قلعة صلاح الدين

وقلاع إسلامية معاصرة

الدكتور عبد الرحمن زكى

الألف كتاب (٢٨٨)

قلعة صلاح الدين

وقلاع إسلامية معاصرة

إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم
الإقليم الجنوبي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة المجلس الأعلى
لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب (٢٨٨)

قلعة صلاح الدين

وقلاع اسلامية معاصرة

تأليف

الدكتور عبد الرحمن زكي

الناشر

مكتبة نهضة مصر ومطبعتها

١٩٦٠

مطبعة نهضة مصر
الفجالة . القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اصطلح علماء العمارة الإسلامية على تقسيم المنشئات الرائعة التى بناها المسلمون إلى ثلاثة أقسام : العمائر الدينية والعمائر المدنية والعمائر الحربية .

وتشتمل الأولى على ما شيدوه من المساجد والأضرحة ، وتضم الثانية المدارس والقناطر والوكالات والقصور والدور والأسبلة ، وتنطوى الثالثة على الحصون والقلاع والأبراج والأسوار . . . إلخ . وقد نهض كثير من العلماء بكتابة الأبحاث المستفيضة عن العمارة الدينية والمدنية ، بينما كان نصيب العمارة الحربية متواضعاً إن لم يكن ضئيلا . ولا ننكر فى الوقت ذاته أن هناك طائفة طيبة من ابحاث علماء الآثار الأجانب ، تناولوا فيها دراسة قلاع الشرق العربى وحصونه ، ولكن ما صدر عنها فى اللغة العربية كان قليلا جـــداً . .

ولذلك حاولت منذ سنوات زيارة بعض القلاع العربية ودراستها من ناحيتها الأثرية والتاريخية ، ونشرت بعض هذه الأبحاث فى شتى المجلات . حتى أتاحت إدارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم لى الفرصة ، وكلفتنى بتأليف هذا الكتاب « قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة » ، فلبيت الدعوة شاكراً ، وأرجو أن أكون قد وفقت .

إن القلاع كالآثار والمخلفات التاريخية ، ترتبط برباط وثيق بالتاريخ . فكم شاهدت من أحداث الماضى ! وما أكثر ما مر بها من المعارك ووقائع الحصار ! إن مئات القلاع والحصون المتناثرة على قمم الجبال ، والرابضة على سفوح الشواهق فى سورية ومصر ، وتلك الرابضة على شواطئ بحارنا وفى قلب صحارينا ووديانا ، لتحدثنا أو لكأنها تروى لنا جميع أحداث تاريخنا المشترك . ومن يطالع صفحات هذا التاريخ فى عصوره القديمة أو الوسيطة

وإلى ما بعدها . . . ليدرك مكانة تلك الحصون لما قامت به من مهام جسام .

* * *

تناولنا فى القسم الأول من هذا الكتاب ، الحديث عن قلعة الجبل ، المعروفة باسم منشئها السلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى ، مؤسس أسرة الأيوبيين ، تلك الأسرة التى نهض أفرادها بتشييد العمائر الحربية فى سورية والأردن ومصر ، ولاغرو فى ذلك ، فإن عصر هذه الأسرة ليتسم بالجهاد لتخليص البلاد من اعتداءات الصليبيين الذين غزوا البلاد وأرادوا البقاء فيها ، لكن لم تتحقق أمنيتهم ، وعادوا خائبين من حيث أتوا .

وتناولنا فى القسم الثانى من الكتاب ، الحديث عن بعض القلاع المعاصرة التى شيدها الأيوبيون أيضاً والمماليك فى أعقابهم . ونذكر بين تلك القلاع قلعة الجندى فى قلب سيناء ، وحصون القاهرة وأبوابها ، وأسوار الإسكندرية وقلاع السلطان قايتباى المجاهد وغيرها مما شيد على سواحل البحر الأبيض والأحمر . . . الخ .

ولكى لا تكون مادة الكتاب جافة ، رأيت أن أضفى على تلك القلاع طرفا من ذكرياتها وأحداثها الماضية ، وإنها لكثيرة حقاً ولكنى أوجزتها على قدر المستطاع .

وأرى نفسى مدينا حقاً إلى كافة الأعلام العرب وغير العرب ، ممن اعتمدت عليهم ، وفى طليعة هؤلاء ، المقريزى المؤرخ المصرى ، وزميله الإمام القلقشندى مؤلف صبح الأعشى ، وعلى مبارك صاحب الخطط المعروفة ، وابن إياس . وكازانوفا المستشرق المشهور ، والأستاذ العلامة كريزويل ، وكتابه عن الأبحاث الأثرية فى قلعة الجبل معروف عند رجال الآثار . وغيرهم من رجال العلم والتاريخ .

وأرجو أن يكون هذا الكتاب الصغير مقدمة لمزيد من الأبحاث عن العمارة الحربية فى بلادنا . والله الموفق دواما .

مايو ١٩٦٠ عبد الرحمن زكى

القسم الأول

قلعة صلاح الدين

قلعة الجبـــل

قلعة الجبل

العصر الأيوبى

(١١٧١ — ١٢٥٠ م).

موضع قلعة الجبل

تنهض قلعة القاهرة على أحد المرتفعات التى تتصل بجبل المقطم[١] فى موضع كانت تشغله قبة تسمى بقبة الهواء — قال عنها أبو عمرو الكندى فى كتاب أمراء مصر :

« اعلم أن أول ما عرف فى خبر موضع قلعة الجبل أنه كان فيه قبة تعرف بقبة الهواء بناها حاتم بن هرثمة والى مصر فى سنة (١٩٥ هـ — ٨١١ م) ولما بنى أحمد بن طولون القصر والميدان تحت قبة الهواء كان كثيراً ما يقيم فيها فإنها تشرف على قصره ، وعنى بها الأمير أبو الجيش خمارويه بن طولون . ولما زالت دولة بنى طولون وخرب القصر والميدان كانت قبة الهواء مما خرب ثم عمل موضع قبة الهواء مقبرة وبنى فيها عدة مساجد[٢] » .

وذكر المقريزى أن « هذه القلعة شيدت على قطعة من الجبل تتصل بجبل المقطم وتشرف على القاهرة ومصر والنيل والقرافة فتصير القاهرة فى الجهة البحرية منها ومدينة مصر والقرافة الكبرى وبركة الجيش فى الجهة القبلية الغربية والنيل الأعظم

---

(١) أطلق على جبل المقطم طائفة من الأسماء . فكان الجزء الواقع منه شمالى القاهرة يتسمى بالجبل الأحمر . والمرتفع الذى يبرز قليلا نحو الغرب يتسمى بالجبل ، وعليه شيدت القلعة وعرفت باسم قلعة الجبل . وكان هناك شرف يطل على هذا المرتفع الذى قامت فوقه القلعة ويعرف هذا الشرف باسم «الرصد» مذ شيد الوزير الأفضل مرصداً فوقه . وكان أبوه قد ابتنى عليه مسجداً عرف باسم جامع أمير الجيوش أو جامع الجيوش .

(٢) الخطط المقريزية . جـ ٢ ص ٢٠٢ .

فى غربها وجبل المقطم من ورائها فى الجهة الشرقية وكان موضعها أولا يعرف بقبة الهواء ثم صار من تحته ميدان أحمد بن طولون ثم صار موضعها مقبرة فيها عدة مساجد . إلى أن أنشأها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أول الملوك بديار مصر على يد بهاء الدين قراقوش الأسدى فى (٥٧٢ ﻫ — ١١٧٦ م) وصارت من بعده دار الملك بديار مصر[1] إلى أيام الخديوى إسماعيل .

أسباب بناء القلعة

ولم تكن فكرة بنائها إلا وليدة لتفحص بضعة من أسباب شتى اختمرت فى رأس صلاح الدين . فقد ارتأى بثاقب بصره — إثر إزالته قوائم الدولة الفاطمية بمصر — أن هناك عيونا تحوم حوله وتتحين الفرص للانقضاض عليه . فهنا شيعة الخلفاء الفاطميين المنبثين فى جوانح الوادى ، وهناك الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ، سلطان الشام .

فكان ينبغى أن يهيء معقلا يدرأ عنه العواصف التى قد تهب ؛ ويحميه من النوازع التى قد تنفجر . وبخاصة لأن قصور الفاطميين بمصر كان قد قسمها بين أمرائه للإقامة فيها .

وقيل إن السبب الذى حدا به إلى اختيار مكان قلعة الجبل « أنه علق اللحم بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة فعلق لحم حيوان آخر فى موضع القلعة فلم يتغير إلا بعد يومين وليلتين فأمر حينئذ بإنشاء قلعة هناك .

وقد أقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى . فشرع فى بنائها ، كما بنى سور القاهرة الذى زاده فى سنة (٥٧٢ﻫ — ١١٧٦ م) وقد اقتضاه ذلك هدم ما هناك من المساجد وإزالة القبور وتدمير الأهرام الصغيرة التى كانت بالجيزة ليستخدم حجارتها فى عملية البناء .

وكانت أمنيته أن يجعل السور يحيط بالقاهرة ومصر والقلعة . بيد أنه لم تمتد حياته فتوارى قبل أن يتم الغرض من السور والقلعة ، بل دون أن يحظى بسكناها .

---

(١) الخطط المقريزية ج ٢ ص ١٠١ .

وهنا توقف العمل . إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى قلعة الجبل واستنابته فى مملكة مصر وجعله ولى عهده ، فأتم بناء القلعة ، وأنشأ بها الدور السلطانية وذلك فى عام (٦٠٤ هـ — ١٢٠٧ م) وما برح يقطنها حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ، فاستمرت من بعده دار مملكة مصر[1] .

صفة القلعة

وقلعة الجبل بناء على نشز عال يدور بها سور من حجر بأبراج وبدنات حتى تنتهى إلى القصر الأبلق ثم من هناك تتصل بالدور السلطانية على غير أوضاع الأبراج .

ولعل المقريزى يقصد من عبارته الأخيرة أن فى القلعة ظاهرة غير عادية فى أسوار القلاع . فبدلا من أن يكون حولها سور تام بأبراجه وبدناته نرى أن سورها تعترضه قصور فتقضى على وحدته .

بدأ صلاح الدين فى تشييدها فى عام (٥٧٢ هـ — ١١٧٦ م) ولم تتم وتتخذ مقراً للملك إلا فى عهد ابن أخيه الملك الكامل (٦٠٤هـ — ١٢٠٧م) ، فهو الذى شيد فيها أول ما بنى بها من قصور ، وهو الذى أقام أبراجها الرئيسية ، ونقل إليها مقر الحكم .

ومما يذكر أن صلاح الدين ترك كتابة تاريخية على باب المدرج فى غربى القلعة مؤرخة سنة ٥٧٩ هـ ، ويشير هذا التاريخ إلى نهاية أعمال صلاح الدين فى القلعة ولكن مما هو قمين بالتنويه أن هذه الأعمال لم تكن خاتمة عمارتها ، فقد أضيفت إليها أجزاء كثيرة بعد ذلك التاريخ كما سنرى .

ويتبين من تخطيط القلعة أنها تتألف من مربعين من الأرض مستقلين . الشمالى منها يشبه مستطيلا ذا أبراج بارزة ، ويفصله عن المربع الجنوبى حائط سميك وأبراج ضخمة . ويخرج المربع الجنوبى من الشمال مكوناً معه زاوية قائمة ، وحدود هذا المربع ليست منتظمة ويبدو أنه لم يكن فى البداية جدران محصنة .

---

(١) الخطط المقريزية جـ ٢ ص ٢٠٣ .

ثم هناك قصر السلطان وملحقاته وهى الإيوان والإسطبلات ، وكان الإيوان يطل على الجهة الشمالية ويفصله عن الحصن المربع الشمالى ميدان كبير كان يقف فيه الضباط والجنود فى انتظار وبدء الاستقبال ، أما الإسطبلات فكانت فى أسفل القصر إلى الجنوب الغربى .

تحصين القاهرة

وإذا كان المقصود من بناء القلعة فى بداية الأمر هو تهيئة معقل لصلاح الدين خشية الفتن والاضطرابات التى يشعلها أنصار الفاطميين والسلطان نور الدين ، فقد كان المرتجى من ورائها أصلا هو تحصين القاهرة فى وجه الغزاة والمعتدين . فثل صلاح الدين — وهو المحارب الفذ والقائد الممتاز — طالع بعينه اليقظة مدى حاجة القاهرة ومصر وما يقيها ، بل واستحثه لتنفيذ هذه الرغبة الجياشة ما أبصره بمدن الشام الكبيرة ، حيث شيدت لكل مدينة قلعة وسور .

فصمم الجندى الكبير على تشييد قلعة على المقطم تتصل بالسور . تكون بمثابة مركز هام لحشد الجنود وخزن العتاد .

وقد تردد أن القلعة كانت محصنة ضد القاهرة أكثر منها ضد الأعداء من الجهات الأخرى . ولكن الواقع أن هذا القول لم يكن صحيحاً إلابعد إنشائها بزمن طويل . أما فى البداءة فإنها لم تكن حصينة تماما إلا من النواحى الخارجية . أما من ناحية القاهرة فقد قامت عمائر عديدة جعلت اتصال المدينة بالقلعة ميسوراً للغاية .

وحين نراجع خطة تحصين القاهرة ، التى وضعت فى عهد صلاح الدين[1] . يلوح لنا أن قلعة الجبل جزء هام من أسوار المدينة وأبوابها ، ويبدو للناظر طول أسوار القلعة البالغة حوالى ١٧٠٠ متر .

---

(١) الخطط المقريزية — ج ٢ ص ٢٣٣ .

وهى فى الأصل على شكل مستطيل غير منتظم . والناحية الشمالية تظهر فى بروز واضح ويفصلها عن جبل المقطم خندق عميق . والناحية الغربية تتجه نحو القاهرة وقبالة الزاوية الجنوبية الغربية المرتفع المسمى الصوة . وفى الناحية الغربية باب المدرج ويصعد إليه بسلالم محفورة فى الصخر . وفى الزاوية الجنوبية الشرقية باب القرافة .

وبهذا نكون قد أتينا على شكل القلعة فى عهد الأيوبيين الأوائل .

ونستطيع فى هذا السياق أن نقول — استناداً إلى شتى المصادر التاريخية الوثيقة — إن الجزء الأكبر من القلعة قد تم فى سنة (٥٧٩هـ — ١١٨٣م) . أما البئر فالمحتمل أنها تمت فى عام (٥٨٣هـ — ١١٨٧م) وهو العام الذى أسر فى غضونه صلاح الدين كثيراً من الفرنجة استغلوا فى حفرها وبنائها . ويؤيدنا فى ذلك ما رواه أبو المحاسن نقلا عن ابن عبد الظاهر (وأعانه على عمله وحفر البئر التى بقلعة الجبل أسارى الفرنج وكانوا ألوفا) .

وكان حول القسم الشرقى من القلعة خندق ولا يزال أثره ظاهراً . فإن الصخر محفور فى هذا القسم إلى عمق عظيم بحيث يضاعف ارتفاع الحائط .

وقد فصل صلاح الدين بين جبل المقطم وبين جزئه الواقع عليه القلعة بهوة كبيرة منعت أى عدو يسيطر على جبل المقطم من الإفادة على إشرافه على القلعة .

ولولوج القلعة بابان أحدهما الباب الأعظم المواجه للقاهرة ويقال له الباب المدرج وبداخله يجلس والى القلعة ومن خارجه تدق الخليلية قبل المغرب ، والباب الثانى باب القرافة وبين البابين ساحة فسيحة فى جانبها بيوت وبجانبها القبلى سوق للمأكل ويتوصل من هذه الساحة إلى دركاه كان يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول . وفى وسط الدركاه باب القلعة ويدخل منه فى دهليز فسيح يؤدى إلى الجامع الذى تقام به الجمعة ، ويمشى من دهليز باب القلعة فى مداخل أبواب رحبة فسيحة فى صدرها الإيوان الكبير المعد لجلوس السلطان فى يوم المواكب وإقامة دار العدل .

وبجانب هذه الرحبة ديار جليلة ، ويمر منها إلى باب القصر الأبلق ومن يده باب القصر رحبة دون الأولى يجلس بها خواص الأمراء قبل دخولهم الخدمة

الدائمة بالقصر وكان بجانب هذه الرحبة محاذياً لباب القصر خزانة القصر[١] .

ولكن المؤرخ القلقشندي صاحب صبح الأعشى ، وقد فرغ من تأليف كتابه في عام ٨١٤ هـ ، يختلف مع المقريزي في عدد الأبواب . فقد أبان أنه كان للقلعة ثلاثة أبواب أحدها من جهة القرافة وجبل المقطم وهو أقلها استعمالا . والثاني باب السر ويختص بالدخول والخروج منه أكابر الأمراء وخواص الدولة كالوزير وكاتب السر ونحوهما ، وهو يقابل الإيوان الكبير الذي يجلس فيه السلطان أيام المواكب ، وهذا الباب لا يفتح إلا لدى وصول من يستحق الدخول أو الخروج منه . فيفتح له ثم يغلق والثالث وهو بابها الأعظم الذي يدخل منه باقي الأمراء وسائر الناس يرقى إليه في درجات متناسبة حتى يكون مدخله في أول الجانب الشرقي من القلعة ويتوصل منه إلى ساحة مستطيلة تنتهي منها إلى درگاه يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول ، وفي قبلي هذه الدرگاه (دار النيابة) وهي التي يجلس بها النائب الكافل للحكم ، وقاعة الصاحب وهي التي يجلس بها الوزير وكتاب الدولة (ديوان الإنشاء) وهو الذي يجلس فيه كاتب السر . وكذلك ديوان الجيش وسائر الدواوين السلطانية .

ويتصدر هذه الدرگاه باب يقال له باب القلة . يدخل منه إلى دهليز فسيح على يسرة الداخل منها باب يفضي إلى جامع الخطبة (قلاوون)[٢] .

قصة البئر

هذه البئر من العجائب التي استنبطها بهاء الدين قراقوش ، وزير صلاح الدين وقائد جيشه ، تحدث عنها ابن عبد الظاهر فقال :

« هذه البئر من عجائب الأبنية تدور البقر من أعلاها فتنقل الماء من نقالة في وسطها وتدور أبقار في وسطها تنقل الماء من أسفلها ، ولها طريق إلى الماء ينزل البقر إلى معينها في مجاز وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء ، وقيل إن أرضها مسامتة أرض بركة النيل وماءها عذب ، قيل إن هذه البئر لما نقرت جاء ماؤها حلوا فأراد

---

(١) خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٢) باب القلعة الأصلي كان موجوداً حتى أيام السلطان بيبرس . أما الباب الحالي فيرجع إلى عهد محمد علي باشا .

قراقوش أو نوابه الزيادة فى مائها فوسع نقر الجبل فخرجت منه عين مالحة غيرت حلاوتها . وذكر القاضى ناصر الدين شافع بن على فى كتابه عجائب البنيان أنه ينزل إلى هذه البئر بنحو ثلثمائة درجة .

ويقال إن هذه البئر كانت متصلة بالنيل بوساطة سرداب تنفذ منه مياه النيل إلى القلعة، وأنه حدث فى عصر الولاة العثمانيين أن فريقا من الثوار نفذوا إلى داخل القلعة عن طريق هذا السرداب .

فترة انتقال

وعقب وفاة صلاح الدين فى سنة (٥٨٩هـ — ١١٩٣م) كانت مصر فى تقسيم إمبراطوريته من نصيب ابنه الملك العزيز الذى توفى فى ٥٩٥ هـ تاركا ابنا صغيراً جعلت الوصاية عليه لبهاء الدين قراقوش بيد أن الملك الأفضل أخا الملك العزيز قبض على منصب الوصاية ولكن الملك العادل طرده منه وجعل مصر طعمة لابنه الملك الكامل وحكم الكامل مصر من سنة ٥٩٦ هـ إلى سنة ٦١٥ هـ باسم أبيه الملك العادل ثم من سنة ٦١٥ هـ إلى ٦٣٥ هـ باسمه الشخصى[1] .

---

(١) المقريزى — الخطط جـ ٢ ص ٢٣ .

القلعة فى عهد السلطان الكامل

(٦٠٤ — ٦٣٥ ﻫ = ١٢٠٧ — ١٢٣٨ م)

قال ابن عبد الظاهر[1] « والملك الكامل هو الذى اهتم بعمارتها (القلعة) وعمارة أبراجها ، البرج الأحمر وغيره فكملت فى سنة ٦٠٤ ﻫ ، وتحول إليها من دار الوزارة » .

وقد بنى الكامل فى القلعة إيوانا وبابا للقصور السلطانية سماه باب السر وبابا يصل لحصن القلعة أو الجزء الشمالى منها بالجزء الجنوبى وهو المدينة السلطانية ويسمى هذا الباب باب القلعة — وبنى كذلك الإصطبلات السلطانية وبعض الأبراج وأبراج الحمام وخزانة الكتب ولعله شيد كذلك مسجداً ومقراً للوزير يسمى قاعة الصاحب . وفى القرن الخامس عشر (عصر المقريزى) لم يكن باقيا من هذه المنشآت إلا الشىء القليل .

ومع أن السلطان الكامل هو الذى نقل لأول مرة مقر الحكم والإدارة إلى القلعة فإن سيادة العنصر العسكرى فى البلاد لم تتم فى عهده وإنما فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى عظم نفوذ المماليك فى عهده وشيد لهم قلعة الروضة فسموا المماليك البحرية ولكنهم رجعوا إلى قلعة الجبل عند ما استقرت فى أيديهم مقاليد الحكم . ولم تلبث العمائر أن قامت على أنقاض المقابر التى كانت تفصل هذه القلعة عن القاهرة حتى اتصلتا .

ومن منشآت السلطان الكامل فى القلعة — الإصطبل السلطانى الذى كان ملحقا بالقصر ، ولم يذكر أحد المؤرخين المسلمين تاريخ إنشائه ونراهم متفقين على ذكره بين منشآت عهد السلطان بيبرس . ونستغرب أن يفوت عليهم ذكره وعلى الأخص إذا لم نفس أن سلاطين آل أيوب كانوا من رجال الجهاد والحروب

---

(١) هو القاضى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر ولد بالقاهرة وتوفى بها (١٢٢٣ — ١٢٩٢) اشتغل بكتابة التاريخ إلى جانب أعمال ديوان الرسائل للملك الظاهر — كتابه الأشهر الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة لم يصل إلينا وقد اقتبس منه المقريزى فى مواضع كثيرة .

ولا يغيب عن نظائرهم أمر الخيول والعناية بها . ومع أن المقريزى لم يفته أن يذكر أن الملك الكامل تحول من دار الوزارة إلى القلعة ونقل سوق الخيل والجمال والحمير إلى الرميلة تحت القلعة .

ومن أعمال الكامل أيضاً — الميدان السلطانى تحت القلعة . ومن منشآته قاعة الصاحب — أى قاعة الوزير — وكان أول من شغلها صفى الدين بن شكر وزير الكامل .

وقد كان موجوداً فى أيام السلطان بيبرس جامع تلقى فيه الخطبة ، ولا يبعد أن يكون الكامل هو المشيد له . وشيد مكان هذا الجامع جامع محمد بن قلاوون المعروف .

أبراج الحمام

ومنشىء أبراج الحمام — الملك الكامل — ولقد ذكر ابن عبد الظاهر فى كتابه « تمايم الحمايم » أن أبراج الحمام قد بلغ عدتها فى عام ٦٨٧ — ألفاً وتسعمائة طائر وكان يستخدم الحمام فى نقل الرسائل . ومما يذكر فى هذا السياق أنه كانت هناك مراكز حمام فى سائر نواحى المملكة فى مصر والشام فيما بين أسوان والفرات .

خزانة الكتب

وهذا عمل آخر يعزى إلى الملك الكامل — خزانة الكتب — التى دمرها حريق عام (٦٩١ هـ — ١٢٩٢م) وكانت فى الأصل تؤلف مكتبة القاضى الفاضل ثم آلت إلى ابنه الأشرف أحمد لما أمر الكامل بوضع اليد على داره ونقل مكتبته إلى القلعة . وقد كان ذلك فى يوم الأحد الموافق لليوم الخامس من جمادى الأولى عام ٦٢٦ هـ . ثم نقلت المجلدات النفيسة فى اليوم السادس والعشرين ، وكانت تتألف من ثمانية وستين ألف مجلد . وبعد أيام حملت الخزائن الخشبية فى تسعة وأربعين حملا . وقيل إنه كان من جملة الكتب المستولى عليها كتاب الأيك والغصون لأبى العلاء المعرى فى ستين مجلداً ، وقد جمعها القاضى الفاضل من مكتبات الفاطميين .

ومن ثم يتسنى لنا أن نلخص أعمال الملك الكامل فى قلعة الجبل كما يأتى :

١ — الإيوان .

٢ — باب السر المؤدى إلى القصور السلطانية .

٣ — باب يصل بين قلعة الجبل (المدينة العسكرية) والقلعة (المدينة السلطانية) واسمه باب القلعة .

٤ — الإسطبلات السلطانية .

٥ — الأبراج .

٦ — أبراج الحمام .

٧ — خزانة الكتب .

٨ — قاعة الصاحب (الوزير)

٩ — الجامع .

ونلاحظ أن عمدتنا فى تاريخ القاهرة — المقريزى — لم يدون آثار الكامل فى الخطط فخلت منها ، ولم يرجع إلى مصنفات السابقين من المؤرخين وينقلها عنهم ، فالمقريزى كما نعلم أجاد وصف القاهرة التى عاش فيها وسنرى فى الفصول التالية كيف انتفعنا بالخطط المقريزية .

القاعة الصالحية

عقب وفاة الملك الكامل (١٢٣٨ م) إلى انتهاء حكم الأيوبيين فى مصر (١٢٥٠ م) لم يشيد أحد من سلاطين هذه الأسرة فى القلعة ما يستأهل التنويه ونكتفى بذكر القاعة الصالحية التى أمر بإنشائها الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ — ١٢٤٩ م) وظلت سكن الملوك إلى أن احترقت فى ٦ ذى الحجة عام (٦٨٤ هـ) .

وإذا نحن اعتبرنا الملك عز الدين أيبك — من أسرة الأيوبيين لأنه كان الزوج الثانى للملكة شجرة الدر وجدناه بعد أن استقر بالقلعة قد أهمل

إيوان الكامل واتخذ المدرسة الصالحية مقراً للحكم والنظر فى الشكاوى[1] ، وقد تنسب إليه قاعة الأعمدة .

موجز أعمال العصر الأيوبى فى القلعة

يعتبر كتاب الأستاذ كريزويل « التاريخ المعمارى للقلعة » الذى نشره معهد الآثار الفرنسية بالقاهرة أظهر المراجع المعمارية وأوثقها فى تاريخ عمارة القلعة وننقل عنه ملخصا موجزا لأسوار القلعة وأبراجها وأبوابها :

(أولا) يعزى إلى صلاح الدين الأيوبى بناء حائط السور بأبراجه النصف الدائرية ، ويبدأ هذا السور من الجانب الشرقى لبرج المقطم ويمتد نحو الجنوب والشرق والشمال حتى ينعطف ويقف لدى المكان الذى يشغله الآن المتحف الحربى وينسب إليه أيضاً البابان الخلفيان والجزء الداخلى من باب القرافة وباب المدرج وكذلك حائط السور الذى يمتد جنوبيه بما فى ذلك الجزء الخافى من البرج النصف الدائرى الكائن بين الباب الأخير والباب المتوسط .

وبعبارة أخرى فإن صلاح الدين بنى هذا السور كاملا وقوياً على قدر ماسمحت له الظروف المحيطة به . إذ أنه استدعى لفلسطين فى الحادى عشر من شهر مايو سنة ١١٨٢ فى ظروف عصيبة خلال الحروب الصليبية . فترك القاهرة وسورها وخاض غمار حروب طاحنة واشترك فى وقائع متوالية خرج منها منصوراً، إذ هزم الصليبيين وانتزع منهم بيت المقدس فى شعبان سنة ٥٨٣ هـ — أكتوبر ١١٨٧م .

ولما خلفه أخوه الملك العادل كانت الأمور قد استقرت قليلا ووقفت الحروب مؤقتاً فانتهز العادل هذه الفرصة واستطاع بما لديه من الثروة، وماله من النفوذ وبما تحت تصرفه من موارد الممتلكات الأيوبية أن يعيد تحصين المواقع الحربية الهامة فى دولته الوسيعة .

وما تزال قلاع حلب ودمشق وبصرى والقاهرة وأطلال حصون جبل طابور شاهدة على جهوده الكبيرة ونشاطه فى هذا السبيل .

---

(١) راجع كتاب النجوم والسلوك لابن تغرى بردى .

(ثانياً) وينسب إلى الملك العادل الأبراج الثلاثة الكبيرة الكائنة بالجانب القبلي وهي برج صفطة وبرج قرقيلان وبرج العلوة — والزيادة التي أضيفت لباب القرافة والجزء الخارجي ببرج الرملة وبرج الحداد والجزء الداخلي ببرج الصحراء والبرج الكبير الذي لم يتبق منه سوى قاعدته . والبرجان الكبيران المربعان في الركن الشمالي الغربي من السور . وقد تمت أعمال العادل سنة (٦٠٤ هـ — ١٢٠٦/١٢٠٧ م) .

وقد ذكر عماد الدين كاتب السر الذي كان موضع ثقة صلاح الدين والذي كانت جميع الوثائق في متناول يده أن « محيط القلعة كان ٣٢١٠ أذرعة هاشمية [1] .

(١) الذراع الهاشمي يساوي ٦٦ر٠ سنتيمترا .

القلعة فى عهد السلاطين البحريين

(١٢٥٠ – ١٣٨٢ م)

الظاهر بيبرس

نصل إلى تاريخ القلعة فى ظل السلاطين المعروفين بالمماليك البحرية ، فلا نجد للثلاثة السلاطين الأول منهم أعمالا تستحق الذكر ، لأنهم لم يكونوا من طراز رابعهم ، الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، إلا إذا استثنينا قطز الجندى المجاهد ، هازم المغول فى معركة عين جالوت والذى قتله غيلة بيبرس ليظفر بملك مصر .

ولا ندرى كيف اتسع وقت بيبرس ليحكم ملكه الواسع ، ويدير شئون دولته ويقود الجيوش الظافرة ضد المغول والصليبيين والروم فى أرجاء آسيا الصغرى والشام وأعالى الفرات والنوبة .

وإن دل هذا على شيء فعلى أنه أحد أفراد ذلك الطراز النادر من سلاطين مصر بل ملوك العالم أجمع .

فلنصغ إلى أقوال أبي المحاسن فى مؤلفه « النجوم الزاهرة » ملخصاً أعمال بيبرس فى القلعة [١] .

« عمر بقلعة الجبل دار الذهب وبرحبة الجبارج [٢] قبة عظيمة محمولة على اثنى عشر عموداً من الرخام الملون وصور فيها سائر حاشيته وأمرائه على هيئتهم ، وعمر بالقلعة أيضاً طبقتين مطلتين على رحبة الجامع [٣] وأنشأ برج الزاوية [٤] المجاورة

(١) أبو المحاسن (النجوم الزاهرة) ج ٧ ص ١٩٠ .

(٢) الجبارج — الجبرج بالضم من طير الماء جمعه جبارج وجباريج .

(٣) الجامع الذى كان موجوداً بالقلعة فى ذاك العهد وقد هدمه الملك الناصر محمد بن قلاوون وأدخله فى جامعه الذى أنشأه عام ٧١٨ هـ — وهذا الجامع لا يزال موجوداً .

(٤) هذا البرج لا يزال موجوداً فى الزاوية البحرية الغربية من السور القديم البحرى للقلعة ولما جدد محمد على باشا سورها الحالى أصبح البرج فى داخله ويعلوه الآن الجناح الغربي للمتحف الحربى .

لباب القلعة[1] وأخرج منه رواشن ، وبنى عليه قبة وزخرف سقفها ، وأنشأ جواره طباقاً لماليكه أيضاً . وأنشأ تجاه برجيه بباب القلعة داراً كبيرة لولده الملك السعيد . وكان فى موضعها حفير فعقد عليه ستة عشر عقداً . لأنه كان يكره سكنى الأمير بالقاهرة مخافة من حواشية على الرعية .

ومثل هذه المنشآت ، سنأتى على وصف كل منها على حدة كما تحدث عنها ابن عبد الظاهر الذى نقل عنه — فيما بعد — المقريزى بكثير من الحذر والعناية والدقة ، وكما أعاد النظر فيها المؤرخ محمد رمزى رحمه الله .

فما هى دار الذهب هذه ؟ وهل لها علاقة بالقلعة الظاهرية والدار الجديدة اللتين ورد ذكرهما فى كتاب ابن عبد الظاهر سكرتير بيبرس ،

يقول هذا المؤرخ إنه فى عام ٦٦٤ ﻫ نجزت عمارة القلعة الظاهرية المجاورة لباب سر قلعة الجبل المحروسة ، المتولى عمارتها الأمير عز الدين أيبك الفخرى ، وهى قاعة عظيمة قد افتن فى عمارتها وزخرفتها ، حتى كادت تبلغ الغاية أو النهاية ولما نجزت جلس بها السلطان ومد سماطاً ، وخلع على عز الدين الفخرى مشيدها ، وللصاحب محي الدين (ابن عبد الظاهر) قصيدة فى هذه المناسبة[2].

وذكر المقريزى عن الدار الجديدة أن الملك الظاهر بيبرس عمرها فى عام (٦٦٤ ﻫ — ١٢٦٦ م) عند باب سر القلعة وعمل بها فى جمادى الأولى منها دعوة للأمراء عند فراغها[3] .

ويرى كازانوفا أن دار الذهب والقاعة الظاهرية والدار الجديدة أسماء على مسمى واحد ونحن من ناحيتنا نتفق معه على هذه النتيجة . فضلا عن أنه لم يرد بالتفصيل شىء عن كل واحدة منها فى كتب المؤرخين المعاصرين .

وهناك برج أمر بتشييده الظاهر فى الزاوية المجاورة لباب القلعة .

---

(١) المقصود هنا باب المدرج الذى لا يزال موجوداً ولكن بطل استعماله وسد الطريق الذى كان يوصل بينه وبين حوش القلعة من جراء وجود الباب الجديد الذى أنشأه محمد على فى سنة ١٢٤٢ بجوار الباب المدرج .

(٢) Bibl, Nat, Paris. Ms. 802

(٣) الخطط المقريزية — ص ٣٤٥ ﺣ .

وهذه القلعة التى عرف بها الباب الذى تسمى بها . كانت موجودة وشيدها الظاهر ثم هدمها الملك المنصور قلاوون ثم جدد باب القلعة على ما كان عليه فى أيام المقريزى .

ونتقل بعد ذلك إلى دار العدل القديمة التى بناها بيبرس ومكانها اليوم إلى يمين الداخل إلى القلعة ويشغلها ميدان سارية العلم .

وقد بنيت هذه الدار (دار العدل) فى سنة ٦٦١ هـ ، وصار السلطان يجلس بها لعرض العساكر فى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع . وقد بدأ بالحضور فى سنة (٦٦٢ هـ — ١٢٦٤ م) فوقف إليه ناصرالدين محمد بن أبى نصر وشكا أنه أخذ له بستان فى أيام المعز أيبك وهو بأيدى المقطعين وأخرج كتابا مثبتا وأخرج من ديوان الجيش ما يشهد بأن البستان ليس من حقوق الديوان . فأمر برده عليه فتسلمه . وأحضرت مرافعته فى ورقة مختومة رفعها خادم أسود فى مولاه القاضى شمس الدين شيخ الحنابلة تضمنت أنه يبغض السلطان ويتمنى زوال دولته لأنه لم يجعل للحنابلة مدرسا فى المدرسة التى أنشأها بخط بين القصرين ولم يول قاضيا حنبليا وذكر عنه أمورا فادحة ، فبعث السلطان الورقة إلى الشيخ فحضر إليه وحلف أنه ما جرى منه شىء وأن هذا الخادم طرده فاختلق على ما قال ، فقبل السلطان عذره وقال : ولوشتمتنى أنت فى حل . وأمر بضرب الخادم مائة عصا .

وغلت الأسعار بمصر حتى بلغ إردب القمح نحو مائة درهم وعدم الخبز ، فنادى السلطان فى الفقراء أن يجتمعوا تحت القلعة ونزل فى يوم الخميس سابع ربيع الآخر منها ، وجلس بدار العدل هذه ونظر فى أمر السعر وأبطل التسعير وكتب مرسوما إلى الأمراء ببيع خمسمائة إردب فى كل يوم ما بين مائتين إلى ما دونهما ، وأن يكون البيع للضعفاء والأرامل فقط دون من عداهم ، وأمر الحجاب فنزلوا تحت القلعة وكتبوا أسماء الفقراء الذين تجمعوا بالرميلة ، وبعث إلى كل جهة من جهات القاهرة ومصر وضواحيها حاجبا لكتابة أسماء الفقراء ، وقال والله لو كان عندى غلة تكفى هؤلاء لفرقتها ، ولما انتهى إحضار الفقراء أخذ منهم لنفسه ألوفا وجعل

باسم ابنه الملك السعيد الوفا، وأمر ديوان الجيش فوزع باقيهم على كل أمير من الفقراء بعدة رجاله .

وما برحت دار العدالة باقية إلى أن استحدث السلطان الملك المنصور قلاوون الإيوان فهجرت . وظلت مهجورة إلى أن هدمها قلاوون فى عام ٧٢٢ ﻫ (١٣٢٢م) وأقام على بقاياها الطبلخانة[1] .

وقد لعبت القلعة على عهد بيبرس دورا مشهودا . وبعبارة أوضح كانت مسرحا لأحداث كبرى فى التاريخ المصرى . يأتى فى طليعتها التجاء الأمير أبى القاسم أحمد إلى مصر بعد أن استحوذ التتار على بغداد ، فلما سمع بسلطنة الملك الظاهر بيبرس وفد عليه مع جماعة من بنى مهارش ، فوصلوا إلى القاهرة فى الثامن من رجب عام ٦٥٩ ﻫ . وهنا ركب السلطان بيبرس للقائه وبصحبته الوزير بهاء الدين بن حنا ، وقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ، والشهود والرؤساء والقراء والمؤذنون . فضلا عن اليهود بالتوراة . والنصارى بالإنجيل . فى يوم الخميس فدخل من باب النصر وشق القاهرة ، وكان لدخوله يوم مشهود .

وحين حل يوم الاثنين الثالث عشر من رجب ، جلس السلطان الملك الظاهر والخليفة بالإيوان وأعيان الدولة بأجمعهم ، وقرىء نسب الخليفة ، وبويع بالخلافة ، بعد أن انقضت ثلاث سنوات ونصف السنة والناس بلا خليفة .

وفى يوم الجمعة السابع عشر من رجب ، خرج الخليفة المستنصر بالله عليه ثياب سود إلى الجامع بالقلعة ، وخطب خطبة بليغة ذكر فيها شرف بنى العباس ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم

وفى مستهل شعبان من العام المذكور . تقدم الخليفة بتفصيل خلعة سوداء ، وبعمل طوق ذهب وقيد ذهب ، وبكتابة تقليد بالسلطنة للملك الظاهر بيبرس . ونصب خيمة ظاهر القلعة . فلما كان يوم الاثنين رابعه ركب الخليفة والسلطان

---

(١) الخطط المقريزية — جـ ٣ ص ٣٣٥ .

والوزير والقضاة والأمراء ووجوه الدولة إلى الخيمة ظاهر القاهرة بقبة النصر[١]

فألبس الخليفة السلطان الملك الظاهر بيبرس خلعة السلطنة بيده وطوقه وقيده . وصعد فخر الدين إبراهيم بن لقمان رئيس الكتاب منبرا نصب له ، فقرأ التقليد وهو من إنشائه وخطه . ثم ركب السلطان بالخلعة والطوق والقيد ودخل من باب النصر وقد زينت القاهرة له ، وحمل الصاحب بهاء الدين التقليد على رأسه راكبا والأمراء يمشون بين يديه ، فكان يوما يقصر اللسان عن وصفه .

وقد أعد بيبرس للخليفة جيشا ليستعيد به بغداد من قبضة التتار .. بيد أن الحملة قد باءت بالفشل. وحدث أن تولى الخلافة من بعده أحد أقاربه باسم الحاكم بأمر الله، وخرج السلطان لاستقباله (٢٧ ربيع الأول عام ٦٦٠ هـ) وهيأ له البرج الكبير (المجاور لباب القرافة) بداخل القلعة لإقامته وسكنه . ثم تحول الخلفاء فيما بعد إلى قلعة الكبش حتى عام ٩٢١ هـ لما تنازل آخر الخلفاء عن سلطاتهم الروحية إلى السلطان سليم الأول العثمانى .

باب الدرفيل

وقبل ختام الحديث عن القلعة ، فى عهد بيبرس ، نذكر شيئا عن باب سارية أو المدرج الذى أصبح على أيامه يتسمى باسم باب الدرفيل . وهو اسم لأحد قادة جيش بيبرس ، وهو الأمير حسام الدين لاشين الأيدمرى وكان يشغل منصب الدوادار وقد وافته المنية فى عام ٦٧٢ هـ (١٢٧٣/٧٤م) .

وهناك رأى آخر يقول إن باب الدرفيل هو باب آخر لا يتصل بباب سارية أو المدرج ...

وفى الفترة القصيرة التى تربع فيها على العرش — السلطان بركة خان بيبرس — يصادفنا ذكر برج الرفرف وإن كان المقريزى يعزو بناءه إلى الملك الأشرف خليل بن قلاوون .

---

(١) كانت هذه القبة زاوية يسكنها فقراء العجم وهى خارج القاهرة بالصحراء تحت الجبل الأحمر تجاه قبة الأمير يونس الدوادار الظاهرى بآخر ميدان القبق من بحريه ، جددها الملك محمد الناصر بن قلاوون وقد اندثرت هذه القبة .

السلطان قلاوون

(٦٧٩ – ١٢٧٩ م)

كان أول مبنى شيده قلاوون فى القلعة ، القبة .. قامها فى سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) ونرى أن ننقل عن ابن عبد الظاهر ما جاء بذكرها فى مخطوطه .

« كان فى غيبة (السلطان قلاوون)[1] رسم ببناء قبة فى الرحبة الحمراء بالقلعة المحروسة بمباشرة الأمير علم الدين المنصورى فجاءت من عجائب الأبنية التى ما عمر مثلها ملك فى مملكة من الممالك . ومن عارض فى هذا القول فليقل فلان فى المكان الفلانى . فنسلم له ذلك . والذى بهذه القبة خاصة من العمد الكبار والصغار الملونة والمذهبة أربعة وتسعون عموداً خارجا من الرواقات ، والذى ألصق بها من الذهب ألفان وثلثمائة دست ذهباً مصرياً . وأما من الرخام فما لا تحصى قيمته ولا تحصى ، وفى جدران رواقاتها صفة قلاع مولانا السلطان قلعة قلعة وحصناً حصناً ببحارها وأنهارها وسهولها وجبالها ، وكتب على لوح رخام منها أن الشروع فيها كان فى مستهل شعبان من هذه السنة .

ومما نظمه الشاعر فيها :

شيدت الملك كل قصر	يربى اعتلاء على البرابى
فصرح بلقيس فى انقضاض	وصرح هامان فى انقضاب
وقصر غمدان فى انقلاء	وشعب بوان فى انقلاب
يا حسنها قبـــة تعالت	حتى تناهت إلى السحاب

ولما وصل مولانا السلطان جلس بهذه القبة فاستحل كمالها . وحضر صاحب حماة وعمه والأمراء جميعهم بها .

وقد أورد المقريزى فى الخطط أن قبة قلاوون هذه هيئت على أنقاض قبة بيبرس — وقد هدمت الأولى فى يوم الأحد ١٠ رجب عام ٦٨٥ ، وانتهى العمل فى الثانية فى شوال من العام المذكور . ولسنا ندرى أين كان موضع هذه القبة بالضبط .

وإلى قلاوون يعزى بناء « دار النيابة » فى عام ٦٨٧ — ١٢٨٨ م وقد قطنها الأمير حسام طرنطاى ومن بعده من نواب السلطنة . ومما يذكر أن النواب كانوا يجلسون بشبا كها .

وقد أنشأ قلاوون أشتاتاً من الأبنية لسكن مماليكه بالقلعة ، كما هيأ برجا على مقربة من باب السر .

وقبل أن نخلف منشآت قلاوون ينبغى أن نشير إلى الحريق الهائل الذى شب فى عام ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) ودمر قاعة الصالحية .

وفى أيام خلفه ابنه الخليل (٦٨٩ هـ — ١٢٩٠ م) اندلعت حريق أخرى أتى على وصفها ابن عبد الظاهر سكرتير بيبرس وقلاوون وخليل فيما يلى :

« فى ليلة الجمعة سابع عشر صفر وقعت نار بالآثار الشريفة السلطانية قرب الخزائن المعمورة وخزانة الكتب وغير ذلك فقوى فعلها واستطار لهبها وارتفع وقدها . وعلت حتى كادت تذهب بالإبصار وحضر مولانا السلطان لذلك معاجلا ، وفتحت الأبواب ، وحضر المماليك السلطانية من الأمراء كلهم وغيرهم واقتحموا تلك النيران بنفوسهم ونقلت المياه من دخار الصهاريج وفتحت الأبواب حتى صارت النار برداً وسلاما . ودفع الله من المخاوف العظيمة ما هنالك .

وبرج الرفرف من تعمير الملك الخليل . يقول المقريزى عنه إنه قد جعله عاليا يشرف على الجيزة كلها وبيضه وصور فيه أمراء الدولة وخواصها . وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها ، وكان مجلساً يجلس فيه السلطان حتى هدمه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة (٧١٢ هـ — ١٣١٢ م) .

---

(١) Ms. de Munich, No 405 fo 90

الناصر محمد بن قلاوون

السلطنة الأولى (٦٩٣ هـ — ١٢٩٣ م)
السلطنة الثانية (٦٩٨ هـ — ١٢٩٨ م)
السلطنة الثالثة (٧٠٩ هـ — ١٣٠٩ م)

هو فى الحق — بناء دولة المماليك البحرية كما تشهد أعماله التى تنطق كلها بقوة شخصيته فى قيادة الجيوش ، وإدارة الحكومة ، وتنظيم الملك ، خلع عن العرش مرتين ثم عاد إليه مرة ثالثة لحكم من عام ٧٠٩ إلى عام ٧٤١ وجلس أبناؤه العديدون على عرش مصر ، كل فى دوره ، وكان قوامهم تسعة ، تتابعوا على حكم وادى النيل من عام ٧٤١ هـ إلى عام ٧٦٢ هـ[1] .

ويعتبر الناصر مكملا لأعمال صلاح الدين وبيبرس وقلاوون . أدخل الرعب والفزع إلى جيوش الصليبيين والمغول . وبالرغم من انشغاله طوال حياته بالفتوح المستمرة كان معمراً من الطراز الأول . خلد اسمه بما شيده من القناطر ، وحفره من القنوات ، وابتناه من القصور والمساجد . ولم ينافسه من ملوك المماليك منافس .

نجده قد عمر خارج سور القاهرة الفاطمى خمسة أحياء مستحدثة ، فازدهرت عاصمة ملكه ، وامتدت مساحتها[2]

وفى عصره انتعش الفن الإسلامى ، وازدهرت العمائر ، وانتشر فى مصر صنع الطرائف . بل ويلاحظ هواة الفنون الإسلامية أن غالبية معروضات المتاحف الفنية فى أوروبا وأميركا والشرق من مخلفات عصر الناصر محمد وأمراء دولته وكبار رجالاته .

---

(١) الخطط — جـ٣ ص ٣٤٥ — ٣٤٩ (طبعة النيل) .
(٢) S. L. Poole. Art of the Saracens in Egypt. P. 189-192

ولا مرية فى أن العصر الذهبى الثانى للقلعة هو عصر السلطان الناصر . أما أول تلك العصور فهو أيام بيبرس الكبير ، هازم الصليبيين والتتار .

أجل هذا هو ثانيهما . وأما ثالثهما فهو عهد محمد على .

ومنشآت الناصر محمد فى القلعة ، تناولها المؤرخ المستشرق كازانوفا فى « تاريخ القلعة » بالتقسيم إلى ثلاثة أقسام .

أولها — المنشآت التى ما زالت باقية إلى اليوم .

ثانيهما — المنشآت التى كانت باقية إلى أيام الحملة الفرنسية ووصفت فى ذيالك العهد .

ثالثها — المنشآت التى أتى وصفها فى كتب المؤرخين شهاب الدين والقلقشندى والمقريزى .

ومنشآت القسم الأول هى :

(١) الجامع :

بدأ العمل فيه عام ٧١٨ هـ (١٣١٨م) فى موضع كان يشغله جامع آخر فهدمه السلطان كما هدم المطبخ والحوائجخانة والفراشخانة ثم تراءى له توسيعه فى عام ٧٣٥ هـ (١٣٣٥ م) ولما انتهى العمل جلس فيه السلطان واستدعى جميع مؤذنى القاهرة ومصر وجل القراء والخطباء ، وعرضوا بين يديه ، وأنصت إلى أذانهم وخطابتهم وقراءتهم . فرتب عشرين منهم . وجعل عليه نفقات تكفيه وتفيض .

وهذا الجامع متسع الأرجاء ، مرتفع البناء ، كانت أرضيته مفروشة بالرخام وسقوفه مبطنة بالذهب . وبصدره قبة عالية يليها مقصورة مستورة هى والرواقات بشبابيك الحديد المحكمة الصنعة ويحف صحنه رواقات من جهاته[1] . وكانت بالصحن ميضأة .

---

(١) الخطط المقريزية جـ ٣ ص ٣٤٤ — ٣٤٥ طبعة النيل .

وقد عنى به وبزخارفه إذ كان بمثابة مسجد القصر الخاص ، وله بابان أحدهما بالواجهة البحرية المواجهة لباب القلعة وعلى يساره منارة ، والآخر بالواجهة الغربية وعلى يمينه منارة أخرى .

وأكبر أروقة الجامع (إيواناته) الرواق الشرقي إذ يتكون من أربعة أروقة تتوسطها قبة كبيرة حملت على عشرة أعمدة ضخمة من الجرانيت ولهذه القبة طراز خشبي به آيات قرآنية يعلوه مقرنص خشبي تعلوه قاعدة أخرى بها شبابيك جصية وقد هدمت هذه القبة ثم جددها السلطان قايتباى سنة ٨٩٣ هـ (١٤٨٧ م) كما عمل للجامع مقبراً رخامياً ثم هدمت هذه القبة أيضاً وجددتها أخيراً إدارة حفظ الآثار العربية(١) .

وهذا الجامع وإن كانت تسوده البساطة من الخارج فلا مقرنصات ولا زخارف ولا كتابات إلا أنه من الداخل كان غنياً بشتى الصناعات كما تدل على ذلك بقاياه ؛ فقد كسيت الجدران إلى ارتفاع نحو خمسة أمتار بوزره رخامية دقيقة طعمت بالصدف . وكان محرابه مكسواً بالرخام المحفور به زخارف دقيقة .

ولهذا الجامع منارتان حجريتان : الأولى على يسار الباب البحري ، والثانية على يمين الباب الغربي .

وقد قرأ كازانوفا على لوحة رخامية مستطيلة كانت فوق باب الجامع البحري السطرين الآتيين :

بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك
السعيد سيدنا ومولانا السلطان الملك ال . . .

كما قرأ على لوحة الباب الغربي :

« بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك السعيد لوجه الله تعالى سيدنا ومولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن مولانا السلطان الشهيد قلاوون الصالحي في شهور سنة ثماني عشرة وسبعمائة من الهجرة النبوية .

---

(١) حسن عبد الوهاب ، مجلة العمارة ، الجزءان ٧و٨ عام ١٩٤١ ص ٢٩٤ — ٢٩٥

كما قرأ طائفة من الآيات القرآنية على الطراز الداخلي تحت القبة . . وعلى المئذنة كتابة تحتوى على آية الكرسي .

(ب) البرج [1] :

على أحد أبراج القلعة ، وعلى ارتفاع كبير من الجدار ، تقرأ كتابة واضحة نصها كما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا البرج المبارك السعيد مولانا وسيدنا المالك الملك الناصر الغازى فى سبيل الله الحاج إلى بيت الله وقبر رسول الله ناصر الدنيا والدين محمد بن مولانا السلطان الشهيد الملك المنصور . بدؤه فى جمادى الأولى .

والفراغ . . . الإث[2]

ويرجح المؤرخ كازانوفا أن يكون بناء هذا البرج قد تم حوالى ٧٢٢ هـ (١٣٢٢ م) وخصوصاً إذا كان هذا البرج هو الذى عناه لما قال إن محمداً بن قلاوون هدم الزفرف الذى شيده أخوه خليل عام ٧١٢ هـ (١٣١٢ م) لكى يجدد بناءه ، وعمل بجواره برجا على مقربة من الإصطبل نقل إليه المماليك .

وهذا الترجيح يكون أقرب إلى الصواب إذا علمنا أن أول شهر جمادى الأولى فى النص المذكور يوافق أول أيام عام ٧١٣ . وإذا أضفنا إلى هذا أنه فيما بين عامى ٧١٢ و ٧١٥ هـ تم لابن قلاوون تشييد أكثر عمائر القلعة أو تجديدها كالرفرف والإيوان والميدان ومجارى المياه . وفى ذلك يقول المقريزى فى كتاب السلوك لدى الحديث عن أعمال السلطان فى هذا التاريخ :

« وأكثر من العمائر وولى اقسنقر أمير أخور وشاد العمائر وأحضر العتالين من سائر البلاد الشامية وأفرد للعمائر ديوانا بلغ مصروفه فى كل يوم اثنى عشر ألف درهم إلى ثمانية آلاف »

(ج) الكتابة المنقوشة على باب السارية

---

(١) راجع خارطة القاهرة المرسومة عام ١٧٩٨ (الحملة الفرنسية) بالقرب من الرقيم ٨٤
(٢) Corpus Inscri-pt Arab. Ier fasc. P. 88
يلاحظ أن فان برشم قرأ كلمة ناصر . حصن .

القسم الثانى من عمائر ابن قلاوون

(ا) الإيوان

لا ريب أن الإيوان كان أظهر عمائر محمد بن قلاون فى القلعة ، وقد شيد محمد على باشا على أنقاضه جامعه الكبير [١] وعرف بإيوان يوسف مدة طويلة ، ولذلك نسبه البعض إلى صلاح الدين خطأ . وخير وصف لهذا الإيوان ورد فى الخطط كما يلى [٢] .

لإيوان المعروف بدار العدل . أنشأه السلطان الملك المنصور قلاوون الآلفى الصالحى النجمى ثم بدده ابنه السلطان الملك الأشرف خليل واستمر جلوس نائب دار العدل به فلما عمل الملك الناصر محمد بن قلاوون الروك أمر بهدم هذا الإيوان فهدم وأعاد بناءه على ماهو عليه الآن ، وزاد فيه وأنشأ به قبة جليلة وأقام به عمداً عظيمة نقلها إليه من بلاد الصعيد ورخمه ونصب فى صدره سرير الملك وعمله من العاج والأبنوس ورفع سمك هـــذا الإيوان وعمل أمامه رحبة فسيحة مستطيلة ، وجعل بالإيوان باب سر من داخل القصر وعمل باب الإيوان مسبوكا من حديد بصناعة بديعة تمنع الداخل إليه وله باب يغلق فإذا أراد أن يجلس فتحه حتى ينظر منه ومن تخاريم الحديد بقية العسكر الواقفين بساحة الإيوان ، وقرر للجلوس فيه بنفسه يوم الاثنين ويوم الخميس ، فاستمر الأمر على ذلك وكان أولا دون ما هو اليوم . فوسع فى قبته وزاد فى ارتفاعه ، وجعل قدامه دركا كبيرا ، فجاء من أعظم المبانى الملوكية . وأول ما جلس فيه عند انتهاء عمل الروك بعد مارسم لنقيب الجيش أن يستدعى سائر الأجناد ، فلما تكامل حضورهم جلس وعين أن يحضر فى كل يوم مقدما ألوف بمضافيها مكان المقدم يقف بمضافيه ويستدعى من تقدمته على قدر منازلهم ، فيتقدم الجندى إلى السلطان فيسأله ابن من ، ومملوك

---

(١) أما الرحبة التى كانت قبالة الإيوان فـكانها الحوش الواقع تجاه الواجهة البحرية الغربية لجامع محمد على .

(٢) الخطط المقريزية . ج ٢ ص ٢٩٦ .

من ، ثم يعطيه منالا ، واستمر على ذلك من مستهل المحرم سنة خمس عشرة وسبعمائة إلى مستهل صفر منها وما برح بعد ذلك أن واظب على الجلوس به فى يومى الاثنين والخميس وعنده أمراء الدولة والقضاة والوزير وكاتب السر وناظر الجيش وناظر الخاصة وكاتب الدست وتقف الاجناد بين يديه على قدر أقدارهم فلما مات الملك الناصر اقتدى به فى ذلك أولاده من بعده واستمروا على الجلوس بالإيوان إلى أن استبد بمملكة مصر الملك الظاهر برقوق فالتزم ذلك أيضاً إلا أنه صار يجلس فيه إذا طلعت الشمس جلوساً يسيراً يقرأ عليه فيه بعض قصص . . وكان موضع جلوس السلطان فى الإيوان للنظر فى المظالم فأعرض الملك الظاهر عن ذلك وجعل لنفسه يومين يجلس فيهما بالإصطبل السلطانى للحكم بين الناس وصار الإيوان فى أيام الظاهر برقوق وأيام ابنه الملك الناصر فرج وأيام الملك المؤيد أغاهوش من بقايا الرسوم الملكية لا غير .

وفى مخطوطة ميونيخ رقم ٤٠٠ ص ٢٩٢ . نقل كازانوفا فى كتابه النفيس عن تاريخ القلعة أن مؤرخاً مجهولا قال إنه فى ٧ جمادى الثانى غام ٧٣٣ ه شرعوا فى هدم القبة بالإيوان بالقلعة وعمروا القبة والإيوان على ما هو عليه اليوم ، وفرغوا فى ربيع الآخر سنة أربع وثلاثين وجلس السلطان على الكرسى فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر المذكور .

ومن الصعوبة بمكان ، أن نقفو إثر تاريخ هذا الإيوان ، كما جاء فى كتب المؤرخين المسلمين أو الرحالة الغربيين . بيد أننا سنورد نتفاً مما ذكره هؤلاء وهؤلاء . . .

ذكر ابن إياس فى كتابه تاريخ مصر ، أنه فى يوم السبت سادس عشر محرم عام ٩٢٨ ه (١٥٢١ م) سقطت القبة العظيمة التى كانت على الإيوان ، سقطت باكر النهار وهذه القبة من إنشاء محمد بن قلاوون . فلما سقطت قال الناس بزوال ملك الأمراء عن قريب ، وهذه القبة لها نحو مائتى سنة من حين عمرت . وكانت من خشب وفوقها رصاص . وكانت مغلفة بقيشانى أخضر ، ولم يعمر فى مصر أكبر منها وكانت من نوادر الزمان » .

وجاء ذكر الإيوان في كتاب رحلة M. Monconys [1]

الذي زار مصر وشاهد الإيوان الكبير في فبراير عام ١٦٤٧ م (١٠٥٦ هـ) ووصف أيضاً الرحالة مايـيـه [2] وريتشارد بوكوك (١٧٤٩ م) ونيبوهر الدانماركي (١٧٨٤ م) ، وأخيراً كتاب الموسوعة الفرنسية وصف مصر .

(ب) القصر الأبلق :

نقرأ وصف هذا القصر في الخطط [3] قبل اندثاره — وكان قائماً في الجهة الغربية من القلعة حيث المكان الواقع على يمين الداخل من البوابة الوسطى للقلعة إلى الساحة التي بها جامع محمد علي ، وكان يشغله إلى أوائل عام ١٩٤٦ السجن الحربي للجيش البريطاني ومساكن المساجين ويتبعه حديقة تطل على القاهرة هي اليوم ساحة العلم التي رفع العلم المصري عليها الملك السابق يوم ٩ أغسطس ١٩٤٦ .

ولنعد إلى الخطط لنقرأ ما كتبه المقريزي عن هذا القصر الذي قيل إنه انتهى بناؤه في مدة عشرة أشهر .

كان يشرف هذا القصر على الإسطبل الذي أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون في شعبان سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) وانتهت عمارته في السنة التالية وأنشأ بجواره جنينة ولما كمل عمل فيه سماطا حضره الأمراء وأهل الدولة ثم أفيضت عليهم الخلع وحمل إلى كل أمير من أمراء المئين ومقدمي الألوف ألف دينار ، ولكل من مقدمي الحلقة خمسمائة درهم ، ولكل من أمراء الطبلخاناه عشرة آلاف درهم فضة ، منها خمسمائة دينار ، فبلغت النفقة على هذا القصر خمسمائة ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم ، وكانت العادة أن يجلس السلطان بهذا القصر كل يوم للخدمة ما عدا يومي الاثنين والخميس فإنه يجلس للخدمة بدار العدل ، وكان يخرج إلى هذا القصر من القصور الجوانية فيجلس تارة على تخت الملك المنصوب بصدر إيوان هذا القصر المطل على الإسطبل ، وتارة يقعد دونه على الأرض والأمراء وقوف . هذا

[1] Journal des voyages de M. Monconys. Lyon 1675. 1er partie. P. 168.

[2] Maillet, Description de l'Egypte 1735 P. 191.

[3] الخطط المقريزية ج ٢ ص ٢٠٩ .

ما تقدم خلا أمراء المشورة والقرباء من السلطان، فإنه ليس لهم عادة بحضور هذا المجلس ولا يحضر هذا المجلس من الأمراء الكبار إلا من دعت الحاجة إلى حضوره، ولا يزال السلطان جالساً إلى الثالثة من النهار فيقوم ويدخل إلى القصور الجوانية، ثم إلى دار حريمه ونسائه، ثم يخرج في أخريات النهار من قصوره الجوانية للنظر في مصالح ملكه ويعبر إليه إلى قصوره الجوانية خاصته من أرباب الوظائف في الأشغال المتعلقة به على ما تدعو الحاجة إليه، ويقال لها خدمة القصر، وهذا القصر تجاه بابه رحبة يسلك إليها من الرحبة التي تجاه الإيوان فيجلس بالرحبة التي على باب القصر خواص الأمراء قبل دخولهم إلى خدمة القصر ويمشي من باب القصر في دهاليز مفروشة بالرخام قد فرش فوقه أنواع البسط إلى قصر عظيم البناء شاهق في الهواء بإيوانين أعظمهما الشمالي يطل منه على الإصطبلات السلطانية ويمتد النظر إلى سوق الخيل والقاهرة وظواهرها إلى نحو النيل وما يليه من بلاد الجيزة وقراها.

وفي الإيوان الثاني القبلي باب خاص لخروج السلطان وخواصه منه إلى الإيوان الكبير أيام الموكب ويدخل من هذا القصر إلى ثلاثة قصور جوانية. وكان لهذا القصر الأبلق رسوم وعوائد تغير كثير منها وبقيت بقايا من شعار المملكة ورسوم السلطنة (إلى أيام المقريزي).

الأسمطة السلطانية[1]

كانت العادة أن يمد بالقصر في طرفي النهار من كل يوم أسمطة جليلة لعامة الأمراء خلا البرانيين وقليل ما هم. فبكرة يمد سماط أول لا يأكل منه السلطان ثم ثان بعده يسمى الخاص قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل ثم ثالث بعده يسمى الطاري، ومنه مأكول السلطان، وأما في آخر النهار فيمتد سماطان الأول والثاني المسمى بالخاص، وفي كل هذه الأسمطة يؤكل ما عليها ويفرق نوالات ثم يسقى بعــــدها الأقسماء المعمولة من السكر والأفاويه المطيبة بماء الورد المبردة وكانت العادة أن يبيت في كل ليلة بالقرب من السلطان أطباق منها أنواع من المطجنات والبوارد والفطر والقشطة والجبن المقلي والموز وأطباق فيها من الأقسماء والماء البارد برسم أرباب النوبة في السهر حول السلطان ليتشاغلوا بالمأكول والمشروب عن النوم،

---

(١) الخطط المقريزية ج ٣ ص ٣٣٥.

ويكون الليل مقسوما بينهم بســـاعات الرمل فإذا انتهت نوبة نبهت التى تليها ثم ذهبت هى فنامت إلى الصباح . وبلغ مصروف السماط فى كل يوم عيد الفطر من كل سنة خمسين ألف درهم. منها نحو ألفين وخمسمائة دينار تنهبه الغلمان والعامة . وكان يعمل فى سماط الملك الظاهر برقوق فى كل يوم خمسة آلاف رطل من اللحم سوى الأوز والدجاج وكان راتب المؤيد شيخ فى كل يوم لسماطه وداره ثمانمائة رطل من اللحم فلما كان من المحرم سنة ٨٢٦ هـ (١٤٢٣ م) سأل الملك الأشرف برسباى عن مقدار مايطبخ له فى كل يوم بكرة وعشيا، فقيل له ستمائة رطل فى الوجبتين، فأمر أن يطبخ بين يديه لأنه بلغه أنه يؤخذ مما ذكر لشاد الشربخانة ونحوه مائة وعشرون رطلا فجعل راتب اللحم فى كل يوم بزيادة أيام الخدمة ونقصان أيام عدم الخدمة خمسمائة رطل وستة أرطال عن وجبتى الغذاء والعشاء ومن الدجاج ستة وعشرين طائرا .

وقيل إنه لما انتهى العمل من هذا القصر الكبير أولم السلطان فى ذلك اليوم وجميع القضاة الأربع وسائر الأمراء وقرأ الختمة ومد سماطا حافلا وملأ الفسقية التى بالقصر سكرا بماء الليمون ووقف رءوس النوبة على الفسقية يفرقون السكر على الناس بالطاسات ، وخلع السلطان فى ذلك اليوم على المهندسين والبنائين والمرخمين والنجارين والدهانين . فجموع ذلك ألفان وخمسمائة خلعة ، ووزع على النقباء خلع حرير وفرق على الفعلة كل واحد عشرة دنانير ، وفرق على الفقراء فى ذلك اليوم خمسين ألف دينار ثم أحضر فى آخر الليل المغانى وأرباب الآلات ووقدت وقده عظيمة بالقصر ، وأحرق حراقة نفط بالرميلة وكانت ليلة لم يسمع مثلها .

وفى أيام العثمانيين تحول القصر إلى مصنع للكسوة الشريفة كما ذكر البكرى وأيد هذا القنصل الفرنسي مابينه فى كتابه وصف مصر .

القسم الثالث من عمائر محمد بن قلاوون

(ا) القصور الجوانية :

تقابل وصف هذه القصور فى الخطط بعد ما ذكره المقريزى عن القصر الأبلق وسننقل ما كتبه عنها :

يدخل من هذا القصر إلى ثلاثة قصور جوانية منها واحد مسامت لأرض هذا القصر واثنان يصعد إليهما بدرج فى جميعها شبابيك حديد يشرف على مثل منظرة القصر الكبير وفى هذه القصور كلها مجارى الماء مرفوعا من النيل تديرها الأبقار من مقره إلى موضع ثم إلى آخر حتى ينتهى الماء إلى القلعة ، ويدخل إلى القصور السلطانية وإلى دور الأمراء الخواص المجاورين للسلطان فيجرى الماء فى دورهم وتدور به حماماتهم وهو من عجائب الأعمال لرفعته من الأرض إلى السماء قريباً من خمسمائة ذراع من مكان إلى مكان ، ويدخل من هذه القصور إلى دور الحريم وهذه القصور جميعها من ظاهرها مبنية بالحجر الأسود والحجر الأصفر موزرة من داخلها بالرخام والفصوص المذهبة المشجرة بالصدف والمعجون وأنواع الملونات وسقوفها كلها مذهبة قد موهت باللازورد والنور ، يخرق فى جدرانها بطاقات من الزجاج القبرصى الملون كقطع الجواهر المتألقة فى العقود وجميع الاراضى قد فرشت بالرخام المنقول إليها من أقطار الارض مما لا يوجد مثله، وتشرف الدور السلطانية على بساتين وأشجار وساحات للحيوانات البديعة والأبقار والأغنام والطيور والدواجن .

(ب) السبع قاعات :

كانت تشرف على الميدان وباب القرافة عمرها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأسكنها سراريه ومات عن ألف ومائتى وصيفة مولدة سوى من عداهن من بقية الأجناس . وقد يكون موقعها اليوم قصر الجوهرة الواقع فى الزاوية الجنوبية الغربية بالقلعة .

(ج) باب النحاس :

كان هذا من أجل أبواب الدور السلطانية . عمره الناصر وزاد فى سعة دهليزه والظاهر أن هذا الباب كان فى أبواب القصر المخصص لسكنى الملك وحرمه . وقد زال بزوال القصر الذى كان مركبا على أحد دهاليزها بقلعة الجبل .

(د) باب القلة[1] :

يستفاد مما ورد فى كتاب صبح الأعشى عند الكلام على القلعة (ج٣ ص٣٧٢) أن باب القلة كان واقعا فى أحد الأسوار الداخلية الواقعة فى القسم الشمالى الشرقى فى مبانى قلعة الجبل . وكان السور الذى فيه هذا الباب يفصل بين الساحة التى كانت خلف باب القلعة العمومى وبين الدور السلطانية . وكانت هذه الساحة يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول . ويستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام على باب القلة (ص ٢١٢ ج ٢) أنه عرف بذلك لأنه كان هناك قلة (برج مرتفع) بناها الملك الظاهر بيبرس ثم هدمها الملك المنصور قلاوون فى سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٦م) وبنى مكانها قبة ثم هدمها الملك الناصر محمد بن قلاوون . وجدد باب القلعة على ما هو عليه فى زمن المقريزى وعمل له بابا ثانياً

وقد اندثر هذان البابان بسبب إزالة السور الذى كان فيه البابان المذكوران وقد كانا واقعين على مسافة قريبة خلف باب القلعة الحالى ، ويستفاد مما هو مبين على خريطة القاهرة رسم سنة ١٨٠٠ أن هذا الباب كان يسمى باب المدافع ، وفى سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) جدد محمد على باب القلة الحالى وهذه البوابة واقعة بعد البوابة الوسطى على اليسار تجاه الباب البحرى الشرقى لجامع الناصر محمد بن قلاوون ، وتوصل إلى ثكنات الحرس سابقاً والمتحف الحربى .

(هـ) دار النيابة :

وننقل فيما يلى ما جاء فى كتاب الخطط المقريزية عن دار النيابة :

«كان بقلعة الجبل دار نيابة بناها الملك المنصور قلاوون فى سنة ٦٨٧ هـ سكنها

---

(١) محمد رمزى بك — تعليقات كتاب النجوم الزاهرة — ج ٨ ص ٤٥ و ج ٩ ص .

الأمير حسام الدين طرنطاى ومن بعده من نواب السلطنة وكانت النواب تجلس بشباكها حتى هدمها الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٣٧ ﻫ وأبطل النيابة وأبطل الوزارة أيضاً فصار موضع دار النيابة ساحة. فلما مات الملك الناصر أعاد الأمير قوصون دار النيابة عند استقراره فى نيابة السلطنة ، فلم تكمل حتى قبض عليه فولى نيابة السلطنة الأمير طشتمر ، ثم قبض عليه فتولى بعده نيابة السلطنة الأمير شمس الدين آق سنقر فى أيام الملك الصالح اسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فجلس بها فى يوم السبت أول صفر سنة ٧٤٣ ﻫ (١٣٤٢م) فى شباك دار النيابة وهو أول من جلس بها من النواب بعد تجديدها وتوارثها النواب بعده ، وكانت العادة أن يركب جيوش مصر يومى الاثنين والخميس فى الموكب تحت القلعة ، فيسيرون هناك من رأس الصورة إلى باب القرافة ، ثم تقف العسكر مع نائب السلطنة وينادى على الخيل بينهم ، وربما نودى على كثير من آلاف الجند والخيم والجركاوات والأسلحة ، ثم يطلعون إلى الخدمة السلطانية بالإيوان بالقلعة فإذا مثل النائب فى حضرة السلطان وقف فى ركن الإيوان إلى أن تنقضى الخدمة فيخرج إلى دار النيابة والأمراء معه ويمد السماط بين يديه كما يمد سماط السلطان ويجلس جلوسا عاما للناس ويحضره أرباب الوظائف وتقف قدامه الحجاب وتقرأ القصص وتقدم إليه الشكاة ويفصل فى أمورهم فكان السلطان يكتفى بالنائب ولا يتصدى لقراءة القصص عليه وسماع الشكوى تعويلا منه على قيام النائب بهذا الأمر ، وإذا أقرئت القصص على النائب نظر فإن كان مرسومه يكفى فيها أصدره عنه ، وما لا يكفى فيه إلا مرسوم السلطان أمر بكتابته عن السلطان ، وأصدره فيكتب ذلك وينبه فيه على أنه بإشارة النائب ويميز عن نواب السلطان بالممالك الشامية بأن يعبر عنه بكافل المملكة الشريفة الإسلامية ، وما كان من الأمور التى لا بد له من إحاطة علم السلطان بها فإنه إما أن يعلمه بذلك منه إليه وقت الاجتماع به أو يرسل إلى السلطان من يعلمه به ويأخذ رأيه فيه ، وكان ديوان الإقطاع وهو الجيش فى زمان النيابة ليس لهم خدمة إلا عند النائب ، ولا اجتماع إلا به ولا يجتمع ناظر الجيش بالسلطان فى أمر من الأمور ، فلما أبطل الملك الناصر محمد بن قلاوون النيابة صار ناظر الجيش يجتمع بالسلطان ، واستمر ذلك بعد إعادة النيابة وكان الوزير وكاتب السر يراجعان النائب فى بعض الأمور دون بعض ، ثم اضمحلت نيابة السلطنة فى أيام محمد بن قلاوون وتلاشت أوضاعها فلما مات أعيدت بعده ولم تزل إلى أيام الظاهر برقوق ، وآخر من

وليها على أكثر قوانينها الأمير سودون الشيخى ، وبعده لم يل النيابة أحد فى الأيام الظاهرية ثم إن الناصر فرج بن برقوق أقام الأمير تمراز فى نيابة السلطنة فلم يسكن دار النيابة فى القلعة ولا خرج عما يعرفه من حال حاجب الحجاب ولم يل النيابة بعد تمراز أحد ، وكانت حقيقة النائب أنه السلطان الثانى وكانت سائر نواب المماليك الشامية وغيرها تكاتبه فى غالب ما تكاتب فيه السلطان ويراجعونه فيه كما يراجع السلطان ، وكان يستخدم الجند ويخرج الإقطاعات من غير مشاورة ويعين الأمرة لكن بمشاورة السلطان ، وكان النائب هو المتصرف المطلق التصرف فى كل أمر فيراجع فى الجيش والمال والخبر والبريد وكل ذى وظيفة لا يتصرف إلا بأمره ولا يفصل أمراً معضلا إلا بمراجعته ، وهو الذى يستخدم الجند ويرتب فى الوظائف إلا ما كان منها جليلا كالوزارة والقضاء وكتابة السر والجيش فإنه يعرض على السلطان من يصلح، وكان قل ألا يجاب فى شيء بعينه[1] .

(و) الطباق — ثكنات الجند[2]

عمرها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأسكنها المماليك السلطانية وعمر حارة تختص بهم وكانت الملوك تعنى بهم غاية العناية حتى إن الملك المنصور قلاوون كان يخرج فى غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للماليك ويأمر بعرضه عليه ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم فى جودته ورداءته ، فمتى رأى فيه عيبا اشتد على المشرف والاستدار ونهرهما وحل بهما منه أى مكروه ، وكان يقول كل الملوك عملوا شيئا يذكرون به ما بين مال وعقار وأنا عمرت أسوارا وعملت حصونا ما نعة لى ولأولادى وللمسلمين وهم المماليك ، وكانت المماليك أبدا تقيم بهذه الطباق لا تبرح فيها فلما تسلطن الملك الأشرف خليل بن قلاوون سمح للماليك أن ينزلوا من القلعة من النهار ولا يبيتوا إلا بها فكان لا يقدر أحد منهم أن يبيت بغيرها ، ثم إن الملك الناصر محمد بن قلاوون سمح لهم بالنزول إلى الحمام يوما فى الأسبوع

---

(١) الخطط المقريزية ، ج ٣ ص ٣٤٨ — ٣٥٠ .

(٢) لم تكن هذه الطباق دوراً بعضها فوق بعض بل كانت قاعات متجاورة لكل جماعة من طباق خاص بهم ، وكانت هذه الطباق واقعة فى الحوش الذى به اليوم الشكنات والمتحف الحربى وجامع سيدى سارية .

فكانوا ينزلون بالنوبة مع الخدام ثم يعودون آخر نهارهم ولم يزل هذا حالهم إلى أن انقرضت أيام ابن قلاوون . وكانت للماليك بهذه الطباق عادات جميلة. أولها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان ونزله فى طبقة جنسه وسلمه للطواشى، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ويأخذ فى تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار ، وكان الرسم إذ ذاك ألا تجلب التجار إلى المماليك الصغار ، فإذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه شيئا من الفقه ، وأقرأه فيه مقدمة فإذا صار إلى سن البلوغ أخذ فى تعليمه أنواع الحرب من رمى السهام ولعب الرمح ونحو ذلك . فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية فى معرفة ما يحتاج إليه، وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمى النشاب لا يجسر جندى ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم فينتقل إذن إلى الخدمة، وينتقل فى أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه ، واشتد ساعده فى رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح ومرن على ركوب الخيل ، ومنهم من يصير فى رتبة فقيه عارف أو أديب شاعر أو حاسب ماهر . هـــذا ولهم أزمة من الخدام وأكابر من رءوس النوب يفحصون عن مال الواحد منهم الفحص الشافى ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ويناقشونه على حركاته وسكناته، فإن عثر أحد من معلميه الذى يعلمه القرآن أو الطواشى الذى هو معلم إليه أو رأس النوبة الذى هو حاكم عليه على أنه اقترف ذنبا أو أخل برسم أو ترك أدبا من آداب الدين أو الدنيا قابله على ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه ، فلذلك كانوا سادة يدبرون المماليك وقادة يجاهدون فى سبيل الله وأهل سياسة يبالغون فى إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى ، وكانت لهم الإدارات الكثيرة من اللحوم والأطعمة والحلاوات والفواكه والكسوات الفاخرة والمعاليم من الذهب والفضة بحيث تتسع أحوال غلمانهم ويفيض عطاؤهم على من قصدهم ثم لما كانت أيام الظاهر برقوق راعى الحال فى ذلك بعض الشىء إلى أن زالت دولته فى سنة إحدى وتسعين وسبعمائة فلما عاد إلى المملكة رخص للماليك فى سكنى القاهرة وفى التزوج فنزلوا من الطباق من القلعة ، ونكحوا نساء أهل المدينة، وأخلدوا إلى البطالة ، ونسوا تلك العوايد ثم تلاشت الأحوال فى أيام

الناصر فرج بن برقوق ، وانقطت الرواتب من اللحوم وغيرها حتى عن مماليك الطباق مع قلة عددهم، ورتب لكل واحد منهم فى اليوم مبلغ عشرة دراهم من الفلوس، فصار غذاؤهم فى الغالب الفول المسلوق عجزا عن شراء اللحوم وغيره . هذا وبقى الجلب من المماليك هم الرجال الذين كانوا فى بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد فى تنور خباز ومحول ماء فى غيط أشجار ونحو ذلك . واستقر رأى الناصر على أن تسليم المماليك للفقيه يتافهم بل يتركون وشئونهم فبدلت الأرض غير الأرض وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس ، وأدناهم وأخسهم قدرا ، وأشحهم نفسا، وأجهلهم بأمر الدنيا ، وأكثرهم إعراضا عن الدين ، لاجرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات بسوء إيالة الحكام ، وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولى الأمر حتى إنه مامن شهر إلا ويظهر من الخلل العام ما لا يتدارك فرطه، وبلغت عدة المماليك السلطانية فى أيام الملك المنصور قلاوون سنة ألف وسبعمائة فأراد ابنه الأشرف خليل تكميل عدتها عشرة آلاف مملوك وجعلها طوائف فأفرد طائفتى الأرمن والجركس وسماها البرجية لأنه أسكنها فى أبراج بالقلعة فبلغت عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة وأفرد جنس الخطأ والقبجاق وأنزلهم بقاعة عرفت بالذهبية والزمردية وجعل منهم جمدارية وسقاة وسماهم خاصكية وعمل البرجية سلاحدارية وجمقدارية وجاشنكيرية وأوشاقية ثم شغف الملك الناصر محمد بن قلاوون بجلب المماليك من بلاد أزبك وبلاد توريز وبلاد الروم وبغداد وبعث فى طلبهم، وبذل الرغايب للتجار فى حملهم إليه ودفع فيها الأموال العظيمة ثم أفاض على من يشتريه منهم أنواع العطاء من عامة الأصناف دفعة واحدة فى يوم واحد ولم يراع عادة أبيه ومن كان قبله من الملوك فى تنقل المماليك فى أطوار الخدم حتى يتدرب ويتمرن كما تقدم وفى تدريجه من ثلاثة دنانير فى الشهر إلى عشرة دنانير ثم نقلته من الجامكية إلى وظيفة من وظائف الخدمة بل اقتضى رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة فأتاه من المماليك شيء كثير رغبة فيما لديه حتى كان الأب يبيع ابنه للتاجر الذى يجلبه إلى مصر وبلغ ثمن المملوك فى أيامه إلى مائة ألف درهم فادونها . وبلغت نفقات المماليك فى كل شهر إلى سبعين ألف درهم ثم تزايدت حتى

صارت فى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة مائتين وعشرين ألف درهم[1]

(ز) الطبلخانة

شيدت الطبلخانة تحت القلعة فيما بين السلسة (باب العزب)[2] وباب الدرج فى مكان دار العدل القديمة التى هدمها الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٢٢ هـ (١٣٣٢م) وصار ينزل إلى عمارتها بين الفينة والفينة وتولى عمارتها آق سنقر . شاد العمائر ، ووجد فى أساسها أربعة قبور عليها قطع رخام منقوش عليها أسماء المقبورين وتاريخ وفاتهم فنبشوا ونقلوا قريبا من القلعة .

وكانت الطبلخانة ساحة بغير سقف فلما ولى الأمير سودون طاز أمير أخور وسكن الإسطبل السلطانى عمر هذه الطباق فوق الطباق ، وكان الغرض من عمارتها صحيحا فإن المدرسة الأشرفية كانت حينئذ قائمة تجاه الطبلخانة . ولما كان زمام الفتن بين أمراء الدولة تحصن فوقها طائفة ليرموا على الإصطبل والقلعة فأراد ببناء هـذه الطباق فوق الطباق أن يجعل بها رماة حتى لا يقدر أحد يقيم فوق المدرسة الأشرفية، ومن المحتمل أن تكون دار المحفوظات الحالية قد شيدت على أنقاض الطبلخانة، ونحن لانعلم بعد ما صارت عليه هذه الطبلخانة فيما بعد وفى أى عصر أهمل شأنها وزال استخدامها .

(ح) الحوش :

استهل العمل فيه على أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٨م) وكانت مساحته أربعة فدادين . وكان موضعه بركة كبيرة قطع ما فيها من الحجر لعمارة قاعات القلعة حتى صارت غوراً كبيراً .

وحينما شرع فى العمل ، ألقى على عاتق كل أمير من أمراء المئين تقديم مائة رجل ومائة بهيمة لنقل التراب ، كما عهد بنفس الشىء إلى كل أمير من أمراء الطبلخانة . وندب الأمير أقبغا عبد الواحد «شاد العمائر» للإشراف على عملية البناء.

---

(١) الخطط المقريزية جـ٣ ص ٣٤٦ — ٣٤٨ .

(٢) ليس هو باب العزب القائم اليوم بل على مقربة منه .

وتوافد من لدن كل أمير جنده ودوابه كما مثات الأسارى . وسخر والى القاهرة ووالى مصر الناس ، واستقدمت رجال النواحى ، وجلس استادار كل أمير فى خيمة ووزع العمل عليهم بالأقصاب . ومضى العمل على النسق المرتب ، يواليه بعناية الأمير أقبغا الذى كان لا ينفك يستحث الناس فى سرعة العمل وإتقانه . وكان الملك الناصر يحضر يومياً بنفسه يتفقد مسيرة العمل .

ومما يذكر أن العمال نالهم من مشاق العمل ضرر بالغ مرجعه شدة الحر وقسوة الجو .

ونفض العمال أيديهم من البناء بانقضاء ستة وثلاثين يوما ، وصار معداً الإعداد الذى وضع له فى بداية الأمر .

وكان أن حشد فيه ألفا رأس من الغنم والأبقار جلبت من الصعيد والوجه البحرى . ثم أجرى الماء بين جوانحه من القلعة ، وقد قيل إن أعداد الأغنام بلغت بعد موت الملك الناصر ثلاثين ألف رأس سوى أتباعها ، ولسبب ما أبطل استعمال الحوش للحيوانات .

وفى أيام الملك الظاهر برقوق ، اتخذ الحوش مقراً للاحتفال بالمولد النبوى الشريف ، ومكان هذا الحوش اليوم — القسم المنخفض من مبانى القلعة فى الجهة الشرقية منها حيث يوجد الآن ديوان كتخدا . وهو القاعة الكبيرة التى تسمى قاعة العدل — أنشأها محمد على فى سنة ١٢٢٩ ﻫ (١٨١٤ م) وكان يجلس فيها الكتخدا أى وكيل الوالى لنظر أمور الدولة ومصالح الناس ، ويوجد فى الحوش الآنف الذكر دار الضرب القديمة التى كانت فى وقت ما داراً للمحفوظات — وجلها داخل سور القلعة الحالية .

(ط) الإسطبلات :

كان أول من استحدث الإسطبلات بالقلعة — الملك الكامل واستمرت فى أيام خلفائه ، ولكن على عهد محمد بن قلاوون زادت نموا ونشاطا واتسعت رحابها — فهو بحق لا يعتبر منشئها ولكن مجددها ومحييها .

وقد أسهب المقريزى فى الكلام عن هذه الإسطبلات . وهى مجموعة من المبانى كان يقيمها بعض كبار أمراء دولتى المماليك بغية سكنى الأمير هو وأسرته ومماليكه وخيوله — فكان الإسطبل يشمل قصر السكنى وبيوتاً لماليكه وإسطبلات لجياده ومخازن لمئونتها وحفظ سروجها — ومثال لها : إسطبل قوصون الذى كان بجوار مدرسة السلطان حسن ، وله بابان أحدهما من الشارع بجوار حدوة البقرة، والثانى قبالة باب القلعة المعروف بباب السلسلة — أنشأه الأمير علم الدين سنجر الجقدار ، ولكن ابتاعه منه الأمير سيف الدين قوصون ، وصرف له ثمنه من بيت المال . وما لبث أن زاد فيه قوصون ، وأضاف بداخله عدة عمائر بين دور وإسطبلات . . لجاء قصراً عظيماً .

وموضع إسطبل قوصون[1] اليوم المنطقة التى تتضمن القصر الأثرى الباقى إلى اليوم خلف جامع السلطان حسن المعروف بقصر يشبك أو بقصر الأمير أقبردى الدوادار وقد حرف العامة الاسم إلى بردق فأصبح يعرف بقصر بردق — والأرض الفضاء المحيطة بهذا القصر التى كانت تعرف بحوش بردق والأرض القائم عليها الآن مدرسة عثمان باشا ماهر الواقعة خلف القصر بشارع قرقول المنشية ، والأرض القائم عليها النصف الغربى من عمارة والدة الخديوى إسماعيل الشهيرة بعمارة خليل أغا المطلة على ميدان صلاح الدين خلف جامع السلطان حسن .

وكانت وظيفة ناظر الإسطبلات جليلة القدر فى أيام المماليك ، وأول من استحدثها الملك الناصر محمد بن قلاوون .

ويستفاد مما ذكره المقريزى أن الإسطبل السلطانى فى أيام الناصر محمد مكانه اليوم مجموعة المبانى التى بها مخازن وورش الجيش المصرى بالقلعة الواقعة على يمين الداخل من باب العزب الذى كان يسمى قديماً باب الإسطبل — فى المسافة الممتدة بين جامع أحمد أغا إلى نهاية الورش من جهاتها الغربية والقبلية والشرقية — هذا مع العلم بأن المكان الحالى للإسطبل المذكور ليس فى منسوب أرضية قلعة الجبل .

---

(١) محمد رمزى — تعليقات النجوم الزاهرة — جـ ٩ ص ١١٠ — ١١١ .

بل هو فى مستوى أوطى مما عليه فى القلعة ويحيط به السور الأسفل الغربى المشرف على ميدان صلاح الدين[1] .

(ى) الميدان :

وإلى هنا قد تكلمنا عن مشتملات قلعة الجبل الرئيسية فى داخلها وخارجها ، ولابد أن نحول حديثنا إلى ميادينها حيث يتدرب الجند ويعرض الجيش .

لقد احتوت القاهرة على ميادين شتى ، والحديث عنها ليس هذا مجاله ، فسنقصر الحديث الآن عن ميادين القلعة . فنلجأ إلى عمدتنا فى البحث ، وهو المقريزى .

كان أهم تلك الميادين — وما زال إلى اليوم — قره ميدان ، أو الميدان الأسود ، وهو الذى يطلق عليه المقريزى ميدان القلعة .

مثل هذا الميدان من بقايا ميدان أحمد بن طولون . جدده الملك الكامل ابن العادل فى عام ٦١١ هـ (١٢١٤ م) ، ثم عنى به الملك الصالح نجم الدين أيوب عناية زائدة وأنشأ حوله الأشجار . فجاء من أحسن الميادين . وفى عام ٦٥١ هـ هدمه الملك المعز أيبك التركمانى فزالت آثاره . وفى عام ٧١٢ هـ (١٣١٢ م) عمره الملك الناصر محمد بن قلاوون وحفر فيه الآبار والسواقى ، وغرس خلاله النخيل والأشجار ، وأدار عليه سورا من الحجر ، وبنى حوضاً للنيل من خارجه . فتأتى ميدانا فسيح المدى يمتد تحت سور القلعة من باب الإسطبل إلى قرب القرافة . ويستفاد مما أورده ابن إياس فى كتاب « بدائع الزهور » (ص ٥٦ ج ٤) أن السلطان الأشرف قنصوه الغورى عمر هذا الميدان عمارة لم يسبق لها مثيل فى سنة ٩٠٩ هـ (١٥٠٣ م) فردم أرضه بالطين وعلى أسواره وجعل له بابا كبيرا مطلا على الرميلة وعليه قصر فاخر . وأنشأ بالميدان بستانا غرس فيه جميع أنواع أشجار الفاكهة وهيأ به مقعداً وبيتاً كما أقام فى الجبهة الغربية منه قصراً حافلا ومنظرة ، وغير ذلك من المبانى الفاخرة .

---

(١) محمد رمزى — تعليقات النجوم الزاهرة — جـ ٩ ص ٣٦ .

ومن هذا يتبدى أن ميدان القلعة والميدان الأسود أو قره ميدان مكانه اليوم ميدان صلاح الدين ، ويقال له ميدان المنشية .

ويقول المقريزى إن الملك الناصر لما انتهى من تعديل هذا الميدان نزل إليه ولعب فيه الكرة مع أمرائه وخلع عليهم . واستمر يلعب فيه يومى الثلاثاء والسبت . وصار القصر الأبلق يشرف على هذا الميدان . وإذا ركب السلطان إليه نزل من درج تلى قصره الجوانى . فينزل السلطان إلى الإسطبل الخاص ، ثم إلى هذا الميدان وهو راكب ، وخواص الأمراء فى خدمته فيعرض الخيول الخاصة للتفسح — وفى هذا الميدان يصلى السلطان أيضاً صلاة العيدين ويكون نزوله إليه فى يوم العيد ، وصعوده من باب خاص من دهليز القصر غير المعتاد النزول منه . فإذا ركب من باب قصره ونزل إلى منفذه من الإسطبل إلى هذا الميدان ينزل فى دهليز سلطانى قد ضرب له على أكمل ما يكون من الأبهة فيصلى ويسمع الخطبة ثم يركب ويعود إلى الإيوان الكبير ويمد سماطه . . . إلى أن كانت سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٨ م) فصلى الملك الظاهر برقوق عيد النحر بجامع القلعة لتخوفه بعد وقعة الأمير على باى فهجر الميدان[١] .

(ك) قناطر مياه القلعة :

ومن أظهر الأعمال الجليلة التى ما انفك أثرها باقياً إلى اليوم تشهد بعلو رأى الملك الناصر محمد — قناطر المياه التى أمر بتشييدها لنقل المياه بوساطتها إلى القلعة . وهو مشروع جبار يدل على بعد نظره ، ومهارة مهندس ذلك العصر الذهبى فى تاريخ القلعة بل وعلى تقدم مصر الهندسى فى ذلك الحين .

ولقد أفرد المقريزى عدة صفحات من كتابه لوصف هذه القناطر العظيمة . وسننقل عنه ما جاء فيه لكى نصل إلى جواب هذا السؤال : « من أين تستقى القلعة ؟ . . » .

جميع مياه القلعة عن ماء النيل تنقل من موضع إلى موضع حتى تمر فى جميع

---

(١) الخطط المقريزية (الطبعة الفرنسية) ج ٢ ص ٢٢٨ و ٢٢٩ .

ما يحتاج إليه بالقلعة . وقد عنى الملوك بعمل السواقى التى تنقل الماء من بحر النيل إلى القلعة عناية عظيمة — فأنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠م) أربع سواق على النيل تنقل الماء إلى السور ، ثم من السور إلى القلعة ، وعمل نقالة من المصنع الذى عمله الظاهر بيبرس بجوار زاوية تقى الدين رجب التى بالرميلة تحت القلعة إلى بئر الإسطبل — فلما كانت ٧٢٨ هـ (١٣٢٩ م) عمل الملك الناصر على حفر خليج من ناحية حلوان إلى الجبل الأحمر المطل على القاهرة ليسوق الماء إلى الميدان الذى عمله بالقلعة . وبكون حفر الخليج فى الجبل فنزل لكشف ذلك ومعه المهندسون ، فجاء قياس الخليج طولا اثنين وأربعين ألف قصبة، فيمر الماء فيه من حلوان حتى يحاذى القلعة فإذا حاذاها بنى هناك خبايا تحمل الماء إلى القلعة ليصير الماء بها غزيراً كثيراً دائماً صيفاً وشتاء لا ينقطع ولا يتكلف لحمله ونقله ، ثم يمر من محاذاة القلعة حتى ينتهى إلى الجبل الأحمر ، فيصب من أعلاه إلى تلك الأرض حتى تزرع . وعندما أراد الشروع فى ذلك طلب الأمير سيف الدين قطلو بك ابن قراسنقر الجاشنكير أحد أمراء الطبلخانة بدمشق بعد ما فرغ من بناء القناة ، وشق قناة للماء إلى القدس فحضر ومعه الصناع الذين عملوا قناة عين بيت المقدس على خيل البريد إلى قلعة الجبل فأنزلوا . ثم أقيمت لهم الجرايات والرواتب ، وتوجهوا إلى حلوان ، ووزنوا مجرى الماء ، وعادوا إلى السلطان ، وصوبوا رأيه فيما قصد ، والتزموا بعمله . فقال : كم تريدون ؟ قالوا ثمانين ألف دينار . فقال ليس هذا بكثير .

فقال كم تكون مدة العمل فيه حتى يفرغ ؟ قالوا عشر سنين . فاستكثر طول المدة . ولما تشاور الأمراء لم يعارضه فيه أحد إلا الفخر ناظر الجيش . فإنه قال : بمن يحفر السلطان هذا الخليج ؟ قال : بالعسكر . قال : والله لو اجتمع عسكر آخر فوق العسكر السلطانى وأقام سنين ما قدروا على حفر هذا العمل فإنه يحتاج إلى ثلاث خزائن من المال . ثم هل يصح أولا ؟ فرجع السلطان عن عمله .

ثم أعاد السلطان — قطلوبك وعماله — إلى دمشق ومات عقب ذلك فى سنة ٧٢٩ هـ (١٣٢٩ م) .

فلما كانت سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠م) اهتم الملك الناصر ثانية بسوق الماء إلى القلعة ، وتكثيره بها لسقى الأشجار وملء الفساقى ولأجل مراحات الغنم والأبقار .

فطلب المهندسين والبنائين ونزل معهم ، وسار فى طول القناطر التى تحمل الماء من النيل إلى القلعة حتى انتهى إلى الساحل . فأمر بحفر بئر أخرى ليركب عليها القناطر حتى تتصل بالقناطر العتيقة فيجتمع الماء من بئرين ويصير ماء واحدا يجرى إلى القلعة . فعمل ذلك ثم أحب الزيادة فى الماء أيضا فركب ومعه المهندس إلى بركة الحبش[1] وأمر بحفر خليج صغير يخرج من البحر ويمر إلى حائط الرصد[2]- وينقر فى الحجر تحت الرصد عشرة آبار يصب فيها الخليج المذكور ويركب السواقى على الآبار لتنقل الماء إلى القناطر العتيقة التى تحمل الماء إلى القلعة زيادة لمائها ، وكان بين أول هذا المكان الذى عين لحفر الخليج وبين آخره تحت الرصد أملاك كثيرة وبساتين عدة — فندب الأمير ألبغا عبد الواحد لحفر هذا الخليج واشترى الأملاك من أربابها — فحفر الخليج وأجزاه فى وسط بستان الصاحب بهاء الدين بن حنا وقطع إنشاءه وهدم الدور وجمع عامة الحجارين لقطع الأحجار ونقر الآبار — وصار السلطان يتعاهد النزول للعمل كل قليل — فعمل عمق الخليج من فم البحر أربع قصبات وعمق كل بئر فى الحجر أربعين ذراعا . ولكن توفى السلطان قبل تمام هذا العمل — فبطل وانطمر الخليج بعد ذلك .

---

(١) هذه البركة كانت واقعة جنوبى مدينة مصر فيما بين النيل والجبل ولم تكن بركة بالمعنى المعروف وإنما كانت حوضاً من الأراضى الزراعية يغمرها ماء النيل وقت فيضانه سنويا بواسطة خليج بنى وائل . فكانت الأرض وقت أن يغمرها الماء تشبه البرك .

(٢) يعرف اليوم بجبل إسطبل عنتر تجاه قرية أثر النبى جنوبى مصر القديمة . ويعلوه الآن مبنى جدده محمد على وجعله مخزناً للبارود باسم جبخانة أثر النبى ، وتسميه العامة إسطبل عنتر ، وإليه ينسب جبل الرصد المذكور — وحائط الرصد هذا هو جبهة الجبل الغربية التى تشرف على قرية أثر النبى (محمد رمزى) .

القلعة فى أعقاب عصر الملك الناصر بن قلاوون

طالعنا فى الفصل السابق تلك الآثار الخالدة من العمائر الجليلة التى شادها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى قلعة القاهرة . والتى يتضاءل شأنها تدريجياً حتى شغلها العثمانيون حيناً من الدهر وأتوا على ما كانت عليه من روعة وجمال . فلما وفد الفرنسيون على مصر ، فى أخريات القرن الثامن عشر ، كانت خرائب بالية قد تحدثك أحجارها عن ماضيها .

ففى أيام خلفاء محمد بن قلاوون — الأبناء والأحفاد — شيد بعضهم طائفة من القاعات والقصور الصغيرة ، كان منها قاعة الدهيشة والبيسرية .

قاعة الدهيشة :

تحدث عن هذه القاعة المقريزى فى خططه . فقال :

عمرها السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون فى سنة خمس وأربعين وسبعمائه . . وذلك أنه بلغه عن الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماه أنه عمر بحماه دهيشة لم ير مثلها فقد قصد مضاهاته وبعث الأمير أقبغا المهندس لكشف دهيشة حماة وكتب لنائب حلب ، ونائب دمشق بحمل ألفى حجر بيض ، وألفى حجر حمر من حلب ودمشق ، وحشرت الجمال لحملها حتى وصلت إلى قلعة الجبل ، وصرف فى حمولتها كل حجر من حلب ودمشق اثنا عشر درهما ومن دمشق ثمانية دراهم ، واستدعى الرخام من سائر الأمراء وجميع الكتاب ورسم بإحضار الصناع للعمل ، ووقع الشروع فيها حتى تمت فى شهر رمضان منها ، وقد بلغ مصروفها خمسمائة ألف درهم سوى ما قدم من دمشق وحلب وغيرهما ، وعمل لها من الفرش والبسط والآلات ما يجل وصفه بها[1] .

وقد قيل إن والده الناصر محمداً ابتدأ فى عمارتها ولم ينته منها فأكملها ابنه هذا . ولم يستطع أحد بعد تفسير كلمة دهيشة — قد تكون « حماما » أو ما يشبه المدرسة أو الربع[2] .

---

(١) الخطط المقريزية جـ ٢ ص ٢١٢ .

(٢) كازانوفا — تاريخ القلعة بالفرنسية .

قاعة البيسرية :

وشيد السلطان الملك الناصر حسن ، أحد أبناء الملك محمد بن قلاوون ، الذى اشتهر مسجده الرائع قبالة القلعة ، قاعة البيسرية . ومثل هذه القاعة خصها المقريزى بعنايته — كعهده دائماً — فنراه يقول :

كان ابتداء بنائها فى أول يوم من شعبان سنة ٧٦١ هـ ونهاية عمارتها فى ثامن ذى الحجة من السنة المذكورة فجاءت من الحسن فى غاية لم ير مثلها ، وعمل لهذه القاعة من الفرش والبسط ما لاتدخل قيمته تحت حصر. فمن ذلك تسعة وأربعون ثريا برسم وقود القنابل جملة ما دخل فيها من الفضة البيضاء الخالصة المضروبة مائتا ألف وعشرون ألف درهم وكلها مطلية بالذهب . وجاء ارتفاع بناء هذه القاعة طولا فى السماء ثمانية وثمانين ذراعا وعمل السلطان لها برجا يبيت فيه من العاج والأبنوس مطعم يجاس بين يديه وأكتاف وباب يدخل منه ، وفيه مقرنص قطعة واحدة يكاد يذهل الناظر إليه بشبابيك ذهب خالص وطرازات ذهب مصوغ وشرافات ذهب مصوغ ، وفيه مصوغة من ذهب . صرف فيه ثمانية وثلاثون ألف مثقال من الذهب ، وبصدر إيوان هذه القاعة شباك حديد يقارب باب زويلة يطل على جنينة بديعة الشكل[1] .

---

(١) الخطط المقريزية — ج ٣ ص ٣٤٤ .

القلعة فى عهد السلاطين الجراكسة

(١٣٨٢ — ١٥١٧)

جرى ملوك أسرة الجراكسة على السكنى فى أبراج القلعة ، وتركوا جزيرة الروضة ، حيث عاش معظم المماليك البحرية .

وأول سلاطين الجراكسة السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق (٧٨٤ هـ — ١٣٨٢ م) ومن أظهر أعماله فى القلعة أنه جدد عمارة القناة التى تحمل ماء النيل إلى قلعة الجبل ، وجدد عمارة الميدان من تحت القلعة بعد ما أضناه الخراب ، بل ورواه وزرع فيه القرط وغرس به النخيل ، وعمر صهريجا يملأ بالمياه ومكتبا لتعليم أولاد المسلمين القرآن الكريم وجعل عليه وقفا ، كما عمر أيضاً بالقلعة طاحونا وسبيلا تجاه باب الضيافة قبالة القلعة ، وابتاع بسطا جـــديدة لدار العدل عام (٧٨٧ هـ — ١٣٨٥ م) .

وقد أورد المقريزى فى «كتاب السلوك» أن فى تاسع جمادى الأولى من (عام ٧٩٠ هـ أو ما يليه) قدمت طوائف من الجندين ونزلوا تحت القلعة وشرعوا فى حفر خندق فى القلعة وراء أسوارها ، وتوعير طريق باب القلعة (باب القرافة) ، وتوعير باب الحوش وباب الدرفيل ، كما تزايد الاهتمام بتحصين القلعة ونقل الأحجار إليها لاستخدامها فى المنجنيق .

وفضلا عن ذلك ، أمر ببناء حائط بين باب الدرفيل وسور القلعة ، وأن يقام حائط آخر فى جوار باب الدرفيل إلى الجبل ، وسد باب الدرفيل وباب سارية (الباب المدرج) تحت دار الضيافة .

وهناك كتابة منقوشة تعزز أعمال التحصين التى سلفت[1] ، وهى بادية فى جدار القلعة ، الذى يعزى إلى الخديوى اسماعيل أمر تجديده .

---

(١) موضع الكتابة الأصلى غير موضعها الحالى . وقد لاحظ كازانوفا أن فى جزء من قلعة السور المجاورة فراغاً مساحته تعادل لوحة الكتابة المذكورة .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بإنشاء هذا السور المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق على يد المقر الأشرف السيفى جركس الخليلى أمير أخور الملكى الظاهرى وذلك بتاريخ شهر (ربيع الآخر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة) » .

وقد لعب جركس الخليلى هذا دوراً كبيراً فى أيام برقوق . فهو الذى كان يباشر بناء مستشفى برقوق الكبير ، وهو مشيد خان الخليلى المعروف وقنطرة الخليلى . وقد قتل فى إحدى الحملات العسكرية بالقرب من دمشق فى ١١ ربيع الثانى عام ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) بعد انقضاء وقت قليل على انتهاء عمارة سور القلعة .

وتولى العرش بعد برقوق ابنه فرج (٨٠١ هـ — ١٣٩٩ م) وله من العمر ثلاث عشرة سنة . فأمر بتشييد مسجد الحوش عام (٨١٢ هـ — ١٤٠٩ م) وكان هذا الجامع فى داخل قلعة الجبل بالحوش السلطانى — وصار يصلى فيه الخدم وأولاد الملك الناصر محمد إلى أن قتل فرج على يد الأمير شيخ الزعيم الكبير . وقد سبق هذه الجريمة حدوث اضطرابات فى القاهرة وكان الأمير اسقبغا الزردكاش فى القلعة ، فلما سمع بمصير الأحوال وقرب وصول الأمير شيخ بعد مطاردته فرج ، شرع فى تحصين القلعة واختزان الطعام والماء . ولكن لم يجد كل هذا واستحوذ الأمير شيخ على القلعة وعزل فرج وانتهى الأمر بموته وولى مكانه المستعين سلطانا على مصر وكان ألعوبة فى يده ، وما لبث الأمر طويلا حتى كسب العرش لنفسه (٨١٥ هـ — ١٤١٢ م) .

واهتم السلطان شيخ المؤيد بتحصين القلعة . ولكن أحداً من المؤرخين لم يف تلك الأعمال حقها من التفصيل ، ومن أظهر تلك الأعمال القمينة بالتسجيل تشييده جامعا على مقربة من سور القلعة : يسميه المقريزى (جامع الصوه) ، وكان موقعه بين الطبلخانة وباب القلعة (المدرج) .

وقد ذكر المؤرخ ابن إياس بأن هذا السلطان كان لا يقيم بالقلعة إلا قليلا وكان — فى معظم أيامه — يلوذ ببيت ابن البارزى فى بولاق ، إلى أن مات بعد مرض لم يمهله طويلا ، وترك العرش لابنه أحمد .

وتمر السنون سراعا ، ولا يذكر المؤرخون شيئاً عن عمارة القلعة سنون عددها

خمسون على وجه التقريب إلى أن يجلس على العرش السلطان الأشرف قايتباى (٨٧٢ هـ — ١٤٦٧ م) اللهم إلا السلطان جقمق الذى نازع منافسه السلطان يوسف برسباى لخلعه وسجنه وتولى الحكم بدلا منه . ومما يذكر أن لهذا السلطان لوحة نقشت عليها الكتابة الآتية وثبتت فى الحائط الأيمن لمدخل باب السارية ويفهم منها ما تم على يديه فى القلعة .

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . أمر بتجديد هذا سلم المدرج بباب القلعة الشريفة سيدنا ومالك رقنا الملك الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محب العدل فى العالمين ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين سلطان العرب والعجم وصاحب السيف والقلم والبند والعلم أفضل من حكم فى عصره بالحكم صاحب الديار المصرية والقلاع الشامية والسواحلية السلطان الملك الظاهر أبو سعيد جقمق عز نصره (بتاريخ شهر جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسين وثمانمائة » .

ولم يتناول ابن إياس أعمال السلطان قايتباى فى القلعة إلا أنه جدد عمارة الإيوان الكبير بالقلعة . وأنشأ المقعد الكبير والبيتين اللذين فى الحوش السلطانى .

وهناك على اليمين — نقش باسم قايتباى (١٤٦٧ — ١٤٩٦ م) يشمل الكتابة التالية :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على آله وصحبه وسلم .

أمر بتجديد هذه القلعة الشريفة السلطان من فضل الله تعالى وحسن عطائه ونعمته سيدنا ومولانا مالك رقنا سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محب العدل فى العالمين أبو الفقراء والمساكين ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى أطال الله ملكه » .

وخلف قايتباى ابنه الناصر محمد (١٤٩٦) ولم تمتد حياته فقد قتل بعد سنوات قلائل ، لخلفه ثلاثة سلاطين ضعاف تعاقبوا على العرش وهم على التوالى . قانصوه الأشرفى وجانبلاط وطومان باى الأول تميز عهدهم بقصر فترة الحكم ، وتكاثر

الاضطرابات ، وانتهاء كل منهم بالعزل ، نتيجة لهياج المماليك ، ومحاصرتهم القلعة لطردهم .

وبالرغم من وجود لوحة رخامية مستطيلة عليها كتابة بالنسخ الجميل ما زالت باقية فى مكانها إلى اليوم تحمل اسم السلطان أبو نصر طومان باى ، فإننا نرى أن قصر مدة حكمه [1] لا تسمح بإجراء العمارة التى نوه بها فى تلك اللوحة ، ونعتقد عن يقين أنها تعزى للسلطان جنبــــلاط (٩٠٥ — ٩٠٦ هـ) يؤيدنا فى ذلك ما أورده المؤرخ المصرى ابن إياس فى كتابه . قال :

إن السلطان (جنبلاط) أخذ فى أسباب تحصين القلعة بالمدافع وتركيب المكاحل وادخر فيها ما يحتاج إليه من بقسماط ودقيق وجبن وعسل وحطب وعليق وملأ الصهاريج بالماء . وأدخل فى القلعة أشياء كثيرة من احتياج المطبخ ثم بنى برجا محيطا على باب السلسلة وبنى بابا بالحجر على باب المدرج وحصن الأبراج التى حول القلعة . ثم إن السلطان صار ينزل إلى الرميلة ويكشف على البنائين الذين يبنون الأبراج — وكاد يأمر بهدم قبة مدرسة السلطان حسن لولا أن راجعه فى ذلك الأمير تغرى بردى الأستادار .

تمت كل هذه التصليحات لتقوية مبانى القلعة خوفا من غزو العثمانيين مصر . فقد أصبحوا يهددون مصر من ناحية حدودها الشمالية الشرقية فى جهة الشام — وظهر أثر حملتهم على أيام السلطان قانصوه الغورى وهزيمته فى معركة مرج دابق قرب حلب واستشهاده تحت سنابك الخيل . ولم تقاوم أسوار القلعة أو أبراجها قبالة جحافل العثمانيين ومدفعيتهم الخفيفة فى الميدان واستقرت مصر طيلة ثلاثة قرون تقريبا فى إغفاءة عميقة . إلى أن أنهضها من سباتها محمد على .

فماذا عمر فيها السلطان قانصوه ؟ . . .

لندع ابن إياس يجيب لنا عن هذا السؤال — فهو مؤرخ هذا العصر الأوحد يشاركه زميله ابن زنبل الرمال — يذكر ابن إياس أن السلطان أنشأ الميدان الذى

(١) كانت مدة حكم طومان باى الأول ثلاثة شهور و ١٣ يوما فحسب .

كان تحت القلعة ونقل إليه أشجاراً من الشام وأجرى إليه ماء النيل من سواقى نقالة وأنشأ به المناظر والبحرة[1] والمقعد والمبيت . وجدد غالب عمارة القلعة منها قاعة الدهيشة وقاعة البيسرية وقاعة العواميد وقاعة البحرة وأنشأ المقعد القبطى الذى بالحوش وجدد عمارة المطبخ الذى فى القلعة وجدد عمارة القصر الكبير الذى بالقلعة .

فى تلك الأيام كان السلطان الغورى يدبر ملكا واسعاً — الملك الذى ذكره أبو الطيب المتنبي وهو يمدح كافور الأخشيدى :

يدبر الملك من مصر إلى عدن إلى العراق فأرض الروم فالنوب

كانت مصر والشام وبلاد العرب وبعض الجزيرة والقسم الجنوبى من آسيا الصغرى فى سلطان ملوك مصر فى معظم العصور الإسلامية . وكانت كذلك أيام الغورى وبلغت الأساطيل المصرية سواحل الهند — وبنى عليها قلاعا لحماية التجارة وقد اجتهد الغورى زمنا فى الاحتفاظ بسلطان المصريين فى تلك الأرجاء على رغم البرتغاليين . وكان بعض أمراء الهند يستنجده على الفرنج فيرسل الأساطيل والجند حينا بعد حين .

ولسنا نؤرخ مصر الإسلامية ، ونحن نقصر كلامنا على تاريخ القلعة أيام الغورى . ومعيننا فى هذا المؤرخ ابن إياس الذى يقول فى حوادث المحرم سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م)

« من الوقائع اللطيفة أن فى يوم الخميس ليلة الجمعة خامس عشرة . نزل السلطان إلى الميدان ونصب خيمه كبيرة . وملأ البحيرة التى أنشأها هناك من ماء النيل من المجراة التى أنشأها . ثم رسم بجمع كل ورد فى القاهرة ووضعه فى تلك البحيرة . وجمع قراء البلد قاطبة والوعاظ . وعلق أحمالا بها قناديل — وفرش حول البحيرة الفرش الفاخرة . وعزم على القضاة الأربعة . وسائر الأمراء من كبير وصغير

(١) عبد الوهاب عزام — مجالس السلطان الغورى ص ٥ — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

وأرباب الوظائف من المباشرين وأعيان الناس قاطبة . وبات السلطان تلك الليلة بالميدان وبات عنده الاتابكي وجماعة من الامراء .

ومد تلك الليلة أسمطة حافلة أعظم من سماط المولد . فمد فى السماط أربعة آلاف صحن صينى . ورسم بأن تعمل المأمونية الحموية وكل قطعة نصف رطل . وكان من الارزو الدجاج والغنم مالا ينحصر . ومن اللحم ألف وخمسمائة رطل . ومن الدجاج ألف طير . ومن الاوز خمسمائة طير ، ومن الغنم المعاليف خمسون معلوفا ، ومن الرمسان الرضع أربعون رميساً ، حتى قيل صرف على ذلك السماط فوق الألف دينار بما فيه من حلوى وفاكهة وسكر وغير ذلك ، وكانت ليلة مشهورة .

وكان الغورى مولعاً بالحدائق والأزهار وإجراء المياه فى الحدائق واتخاذ الأحواض والنافورات يدل على ذلك ما انتهجه فى ميدان القلعة ومثل هذا الميدان وصفه الشاعر الشربنى مترجم الشاهنامه ، وذكره ابن إياس كثيراً . يقول فى حوادث جمادى الآخرة سنة ٩١٥هـ (١٥٠٨م) .

وفيها كان انتهاء العمل من المجراة التى أنشأها السلطان كما تقدم . فدارت هناك الدواليب وجرى الماء فى المجراة حتى وصل إلى الميدان الذى تحت القلعة .

ثم إن السلطان صنع سواقى نقالة . وبنى ثلاثة صهاريج تمتلىء من ماء النيل برسم المماليك الذين يلعبون الرمح فى الميدان وشرع فى بناء بحيرة فى وسط ذلك البستان الذى أنشأه بالميدان فكان طول تلك البحيرة نحوا من الاربعين ذراعا وقيل أكثر من ذلك وبنى هناك عدة مقاعد ومناظر ومظلات على ذلك البستان .

وفى حوادث ذى الحجة سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٨ م) .

وفى هذه السنة أينعت الأشجار التى غرسها السلطان بالميدان ، وأخرجت ما شتله بها من الأزهار ما بين ورد وياسمين وبان وزنبق وسوسان وغير ذلك من الأزهار الغريبة ، فكان السلطان يوضع له دكة كبيرة مطعمة بالعاج والأبنوس ويفرش فوقها مقعد مخمل ينطع ويجلس عليه وتظله فروع الياسمين وتقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المذبات ينشون عليه ويعلق فى الأشجار الأقفاص فيها طيور مسموع ما بين هزازات ومطوق وبلابل وشحارير وقمارى وفواخت وغير

ذلك من طيور المسموع ، ويطلق بين الأشجار دجاج حبشى وبط صينى وحجل وغير ذلك من الطيور المختلفة ، إلى أن يقول ، وقد صار هـــذا الميدان جنة على الأرض .

وقد عاش بمصر ، فى عصر الغورى . علماء كبار أمثال جلال الدين السيوطى والسخاوى والقسطلانى وزكريا الأنصارى .

وقد ترك السلطان الغورى اسمه على أحد عقود قناطر المياه الكبيرة التى كانت تنقل الماء إلى القلعة .

وهناك لوحة رسمها جنتيلى بللينى Gentile Bellini تمثل استقبال الغورى لسفير البندقية فى القلعة ويرى فيها السلطان جالساً على المصطبة التى بناها فى الحوش[1] . ونلاحظ أنه بدون سقف ، وقد كان أول من جلس على التكة السلطان قايتباى ، ولما اعتلى العرش السلطان طومان باى الثانى آخر ملوك الشراكسة (١٥١٦ — ١٥١٧ م) أمر بهدم المصطبة المذكورة وأعادها تكة كما كانت فى أيام قايتباى — وكانت قد تهدمت فأصلحها وكسيت بالجوخ الأصفر وصار يجلس عليها للمحاكات كما كان يجلس قايتباى وقد قال ابن إياس عنها :

قد عادت التكة للحكم وانهدمت مصطبة الظلم
وصار طومان باى بين الورى يمشى الشاه مع الضخم
فيا له من ملك عدله قد شاع بين العرب والعجم

وفى أيام العثمانيين يجىء ذكر ديوان الغورى وديوان قايتباى والسلم الذى يتوسط الديوانين . . . وكذلك حوش الديوان — ونلاحظ وجود تلك العمائر فى خريطة الفرنسيين التى وضعوها عام ١٧٩٨ كما تظهر السبع حدرات والباب الوسطانى . . .

وبهذا ينتهى تاريخ القلعة على عهد دولة المماليك الشراكسة .

---

(١) هناك : أى آخر عن هذه اللوحة المحفوظة فى متحف اللوفر بباريس يقول إنها تمثل أحد سلاطين آل عثمان فى الأستانة .

القلعة فى أيام القلقشندى والمقريزى

فى القرن الخامس عشر

اجتمعت لدينا جميع العناصر الضرورية التى تتألف من المتون الطويلة التى وردت فى موسوعتى المقريزى والقلقشندى . وهما مؤرخان مصريان عاصرا القلعة أزهى أيامها . وبما سجلاه فى سفريهما الضخمين نستطيع بسهولة أن نعطى للقارئ وصفاً واضحاً للقلعة فى منتصف القرن الخامس عشر .

والآن لنتمثل أن زائراً وفد على مصر عام ١٤٤٨ مثلا ، فما الذى كانت تقع عليه عيناه ؟ . .

عقب خروجه من باب زويلة ، ميمما صوب الجنوب ، يجد هذا الزائر أمامه طريقين : أحدهما يصل إلى الفسطاط إلى جهة الجنوب وهو طريق الصليبة ، وثانيهما يفضى إلى الشرق أى القلعة وهو طريق الدرب الأحمر ، فإذا عبر حى التبانة تفرع الطريق إلى فرعين: أولهما إلى يمينه ويصل إلى ميدان الرميلة (صلاح الدين) حيث جامع السلطان حسن يواجهه باب السلسلة وإلى داخله يلتى المساكن التى تتألف منها ملحقات مبانى القلعة فى أيام الأمن والرخاء كالمقاعد والقاعات التى شيدها السلاطين قبل مائة عام (القرن الرابع عشر) .

ويرى الزائر — إثر اجتيازه باب السلسلة — إسطبلات السلطان والمقعد المعد للاستقبال الذى يطل على ميدان الرميلة والمسجد الذى شاده السلطان فرج بن برقوق عام ٨١٢ هـ (١٤١٠ م) . وإلى اليمين تقابله إسطبلات السلطان التى تتصل بباب السلسلة بوساطة مبنى كان يستعمل سجنا للأمراء الكبار وكان يسمى (الحراقة) يوصل إليه بدرج . ومن المحتمل أن تكون هذه الحراقة فى الأصل مكانا يقذف منه الوقود الملتهب على الأعداء الذين يجرءون على اقتحام القلعة عن طريق باب السلسلة [1] وسكنها بعض الأعوام أحد الأمراء المكلفين بمراقبة ميدان الرميلة .

(١) اتخذ هذا المكان بعد عام ١٨٨٢ سكنا للقائد البريطانى بالقلعة وقد أشارت بعض المراجع التاريخية إلى هذه الحراقة . فى النجوم الزاهرة ذكر أبو المحاسن المقعد من الإسطبل السلطانى المعروف بالحراقة كما ورد أيضا سكنه بالحراقة من باب السلسلة .

ولنراجع — بعد هذه النظرة العابرة — تلك المنشآت التى شاهدها الزائر فهناك خلف مسجد الإسطبل يوجد طريق منحوت فى الصخر يسير بمحاذاة السور المنيع الذى يحيط بالقلعة . وإذا تطلعنا إلى أعلى رأينا المدرجات البديعة والمنشآت الجميلة ذوات المناظر الآسرة . جدرها مبنية بالحجارة الصفراء والسوداء بالتبادل ، ومن أجل هذا سمى القصر الرئيسى بالقصر الأبلق ، ويجاور هذا القصر ويبرز عن حائطه بين الحوش والإسطبل برج يحمل كتابة تدل على أنه شيد فى عام ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) على أيام محمد بن قلاوون .

وإذا خلفنا باب السلسلة يبدأ الزائر فى الصعود فيلوح على يساره بعض المساكن . تحول عدة منها إلى جامع حديث البناء يعرف اليوم بمسجد الملك المؤيد — ونستمر فى الصعود فنجد إلى اليمين باب السر المخصص للسلطان أو لمن يعرف كلمة السر — وكان السلاطين يسهرون على العناية بمراقبة هذا الأمير ، وقد قيل إن السلطان بيبرس جاء مرة متخفيا وكان الجميع يعتقدون بغيابه فى الشام فلم يفتح له الباب حتى فاه بكلمة السر « العلايم » ويفضى هذا الباب إلى شرفة كبيرة شيد عليها الإيوان — المقعد الكبير المخصص للاستقبالات السلطانية .

ثم نوالى الصعود لنلق نظرة على مبانى الطبلخانة التى تحولت أيام بيبرس إلى قاعة العدل للنظر فى شئون الرعية ، وإذا تركنا الطبلخانة صعدنا بوساطة سلم كثير الدرج اسمه سلم المدرج له باب بنى فى أيام بيبرس بمعرفة الأمير الدرفيل ولذلك عرف بهذا الاسم، ويؤدى هذا الباب إلىسلم المدرج ، ومما يذكر أنالسلطان برقوق شيد حائطا يربط هذا الباب بالمبانى المجاورة التىأشرنا إليها علىيسارنا وهى محجوزة بين أسوار القلعة العالية وهذا الحائط شيده برقوق .

ونحن إلى هنا لم نعبر أسوار القلعة الأصلية ، ولم نتجول فى مبانيها الرئيسية ولعل من الأهمية بمكان ، أن نذكر شيئاً قمينا بالإشادة . وهو أن القلعة فى ذلك العهد كانت تنطوى على ثلاثة نطاقات: النطاق الأول (القسم) وهو النطاقالعسكرى المخصص للسكنات ذوات الأبراج والأسوار المنيعة ، والثانى يشتمل على القصور

والمساكن التى يشغلها السلطان ورجال الحاشية والأشياع من عسكريين ومدنيين ، وهذان يعلوان النطاق الثالث الذى فى أسفلهما وتتألف مبانيه من الطبلخانة والإسطبل السلطانى والمساكن التى تعاقبت على أبصارنا .

ولنستهل زيارتنا للنطاقين الأول والثانى .

فإذا صعد الزائر على سلم المدرج الذى يحازى الجدران لمسافة خمسين متراً لقى نفسه داخل برج مربع يؤدى إلى الداخل ثم إذا انف يمينه لقى نفسه فى قلب القلعة كما كانت عليه فى أيام صلاح الدين ، وهنا يتعين أن نتوقف بعض الشىء لنقول إن الغرض من اتباع هذا النظام الهندسى فى بناء الباب الرئيسى للقلعة هو عرقلة المهاجمين الذين يحاولون اختراق القلعة من ناحية هذا الباب ، ولا يغرب عن البال أن القلعة لم تحاصر ألبتة ، ولم يقتحمها عدو من هذا الباب — الشىء الذى أفضى إلى إهمال استعماله على مر الأيام .

وهنا تقابلنا كتابة نستدل منها على تاريخ إنشاء القلعـــة فى عام (٥٧٩ هـ) (١١٨٣ م) هذا هو باب المدرج من إنشاء صلاح الدين[1] .

---

(١) باب المدرج هو باب القلعة العمومى القديم الذى أنشأه صلاح الدين فى سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣م) وقد ورد فى الخطط المقريزية (ج ١ ص ٢٠٤) باسم الباب المدرج ولا يزال موجوداً ولـكن بطل استعماله وسد الطريق الذى كان يوصل بينه وبين حوش القلعة بسبب وجود الباب الجديد الذى أنشأه محمد على فى سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ — ٢٧) بجوار الباب القديم المذكور والباب الحالى يعرف بالباب الجديد أو الباب العمومى أو الباب البحرى ونضيف على هذا ما جاء عن الباب المدرج فى كتاب وصف مصر وخريطة القاهرة الملحقة به التى رسمها رجال الحملة الفرنسية سنة ١٨٠٠ .

كان الباب المذكور يعرف فى ذلك الوقت بباب مستحفظان وهم طائفة من عساكر الجيش العامل وظيفتهم المحافظة على البلاد والدفاع عنها وكان هذا الباب خاصاً بهم وكان يوجد باب آخر يقع غربى باب المدرج يسمى باب الإنـكشارية وهم طائفة من العساكر التركية أرسلتهم الدولة العثمانية المحافظة على مصر ، وكان هذا الباب خاصاً بهم وكان يوجد خلف باب الإنكشارية من الداخل باب آخر يسمى الباب المشترك ؛ لأنه كان شركة بين المستحفظان والإنـكشارية يمرون منه معاً .

وإذ يصل الزائر إلى داخل النطاق العسكرى فى القلعة يلقى قبالته ميدانا فسيحاً تحيط به المخازن والمساكن التى يشغلها المماليك وغيرهم . ويرى أمامه برجا كبيراً منعزلا اسمه برج القلة الذى بناه بيبرس .

وإذا أراد الصعود فوق السور شاهد أمامه القاهرة بمساجدها ومآذنها وقبابها التى شيدها السلاطين والمماليك حديثا ورأى أيضاً عن يمينه تلال المقطم التى أصبحت القلعة مفصولة عنها بعد ما استبدلوا بأحجارها فاقتلعوها من محاجرها وأصبحت بذلك حصنا منيعا لا يمكن الاقتراب منه من ناحية الشرق .

وقد حاول محمد بن قلاوون أن يحول هذا المنخفض الصخرى إلى بساتين وغابات لكن أهمل المشروع لما يتكبده من أموال ووقت وعناء .

= وفى ولاية محمد على على مصر جدد أكثر أبواب القلعة وأسوارها . ومن ذلك أنه جدد باب الإنكشارية فى سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م) وهذا الباب لايزال موجوداً ولكنه مسدود بالبناء مكانه غربى باب القلعة العمومى البحرى تجاه باب الدفترخانة القديمة . ولما تبين له أن باب المدرج وباب الإنكشارية لا يصلحان لمرور العربات والمدافع ذات العجل أنشأ فى سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٧ م) باب القلعة العمومى الحالى الذى يعرف بالبوابة العمومية أو الباب الجديد ومهد له طريقاً منحدرة لتسهيل الصعود إلى القلعة والنزول منها تعرف اليوم بشارع الباب الجديد ، وهذا الباب يجاوره من الشرق باب المدرج القديم ومن الغرب باب الانكشارية وقد بطل استعمال هذين البابين من ذلك الوقت اكتفاء بالباب العمومى الحالى . ثم جدد أيضاً الباب الشرقى وهو الذى يلى الباب العمومى من الداخل وهو بذاته باب السر الذى سماه ابن إياس (ج ٤ بدائع الزهور طبعة استانبول) باب السبع حدرات لأن الطريق الذى بينه وبين باب المزين أرضها منحدرة وكان بها قديما سبع حدرات يفصل بين الحدرة والأخرى درجة من الحجر وهذا الباب يعرف اليوم بالبوابة الوسطانية . ويدخل منها الى الحوش الذى فيه جامع محمد على وجامع الناصر محمد بن قلاوون البوابة الداخلية بالقلعة [تعليق الأستاذ محمد بك رمزى بالنجوم الزاهرة ج ٨/٩] .

وباب السر المذكور أعلاه كان لأكابر الأمراء وخواص الدولة كالوزير وكاتم السر ونحوهما ويتوصل إليه من الصوة وهى بقية ما بنيت عليه القلعة من جهة القاهرة ، وكان يقع مقابل الإيوان الكبير الذى يجلس فيه السلطان أيام المواكب ، وكان يغلق ولا يفتح إلا لمن يستحق الدخول والخروج منه ثم يغلق وهذا الباب هو الذى يعرف اليوم بالباب الوسطانى .

وفى نهاية السور — فى النقطة الجنوبية الشرقية — يقف برج ينتهى لديه سور صلاح الدين حيث باب القرافة الذى يطل على الصحراء ، ويظهر أن هذا الباب كان قليل النفع ، ويحتمل أنه بنى فى الأصل ليؤدى غرضا واحداً هو أن يكون منفذا لحماية القلعة وللهروب منه إذا هوجمت القلعة وضيق الحصار على المدافعين .

وتصميم بناء هذا الباب عادى وليس على نمط بناء باب سارية .

ولكى يكمل الزائر زيارته عائداً إلى باب سارية . ينبغى عليه أن يمر بباب القلعة الذى سمى باسم البرج السابق ذكره . وهذا الباب يصل بين النطاقين: النطاق العسكرى والنطاق السلطانى .

وهذا الاخير يحتوى على مساكن كبار الموظفين فى الدولة كنائب السلطان والوزير (الصاحب) وغيرهما .

ومن باب القلعة يخرج الأجناد والمماليك إلى النطاق السلطانى للعرض العسكرى، والاشتراك فى المواكب والحفلات والأعياد والأحداث الكبرى أو الخروج للجهاد . وإن كانوا يخرجون لتنفيذ مؤامرة لإنزال السلطان عن عرشه أو إحداث شغب .

والمنشآت التى يحتوى عليها النطاق السلطانى تدل دلالة واضحة على أبهة الحكم فى عهود السلاطين المماليك — ولا سيما فى أيام محمد بن قلاوون .

ويواجه باب القلعة الجامع الذى بناه هذا السلطان بمئذنتيه الرشيقتين المكسوتين بالقاشانى الأخضر المنقوش بالكتابة الحسناء . ويقع جنوب شرق الجامع بئر يوسف .

ويتصل الجامع بقصر السلطان من ناحيته الجنوبية ، أما الواجهة الغربية فتطل على الميدان الكبير للإيوان ، هذا الإيوان الذى يمتاز بمقعده الكبير الذى تغطيه

قبة يكسوها الخزف المموه الأخضر وتحمل القبة العمد العالية ، وقد قيل إن منشىء هذا الإيوان الأصلى كان الملك الكامل ابن شقيق صلاح الدين بناه على طراز الإيوانات الفاطمية ، ثم جدده قلاوون وابنه فيما بعد . ويلاحظ أن هناك شبها كبيراً بين طراز عمارتى الجامع والإيوان[١] .

وقبالة الجامع والإيوان وباب القلعة ميدان فسيح يحشد فيه الجند ورجال الحاشية والأتباع فى ملابسهم الفضفاضة وعليها أسلحتهم البيضاء ودرقاتهم المستديرة .

ولم يك هناك فى هذا المكان شىء يحجب هذه المنشآت عن المدينة ، فكلها عالية شيدت على ربوة تتألف من أرصفة يعلو بعضها فوق بعض . وكانت القصور تكشف إلى مسافة بعيدة من النيل والأهرام .

والقصر الأبلق أول ما يلفت الأنظار بين تلك المنشآت . فى ركنه برج هائل اسمه الخرجاه ، تتصل به عدة قاعات تفضى إلى قصر آخر مقام على نفس الطراز ، وكانت تستند جدرها على الصخر وإلى أسفلها الإسطبلات بمحاذاة السور الطبيعى للقلعة . وكان هناك درج له أبواب يستخدمه السلطان فى النزول إلى الإسطبل دون أن يراه أحد .

أما الزاوية الجنوبية الغربية للقلعة فكان يشغلها قصر الاستقبالات ، ومن بعده إلى الشرق يمر الزائر إلى قصر الحريم السلطانى وكان ملحقا به مبان كثيرة يشغلها الحشم والخدم . وقد امتدت إلى الزاوية الشرقية للقلعة . وكان يتصل الحريم بالقصر بوساطة باب النحاس ، كما يتصل أيضا بالجامع بوساطة باب الستارة ، وقد أقيمت على جانبى القصر القاعات الضخمة التى شيد منها محمد بن قلاوون سبعا وقد عرفت بالسبع قاعات أو (السبع حدارات) وإحداها عرفت بقاعة الفضة .

---

(١) راجع وصف الإيوان فى الصفحات السابقة.

ثم شيد فيها بعد السلطان حسن بن قلاوون بالقرب منها قاعة البيسرية وكانت تتوسط تلك القاعات وتحيط بتلك القصور الحدائق الغناء التى تغذيها مياه النيل .

وقد كان فى وسع السلطان إذا أراد أن يتخذ الدرج الخاص فى قصره ويهبط إلى الإسطبلات ثم يخرج من باب السلسلة فالميدان .

وهذا ما يستطيع أن يشاهده الزائر بعد انتهاء جولته فى النطاق السلطانية، ولم يبق إلا دار الضيافة المجاورة للقلعة حيث كان ينزل فيها الملوك الأجانب وسفراؤهم ، وكانت تلاصق الباب الرئيسى للقلعة وتجاور الطبلخانة التى سبق الحديث عنها . .

القلعة فى أيام العثمانيين

١٥١٧ — ١٧٩٨

حين تلاشت مقاومة المصريين للجيش العثمانى ، وطفق العدو يبسط جناحيه على ربوع القاهرة ، نودى فى حى الصليبة وقناطر السباع بأن يخلى الأهالى بيوتهم نظراً لأن السلطان سيقصد القلعة للإقامة فيها . فأطاع الناس الأمر واحتل العثمانيون دورهم فى الحال .

وبعد أيام ، صعد السلطان سليم إلى القلعة فى موكب فخم وحواليه جنده . وما انفك أن احتجب عن أنظار الناس ، ولم يجلس على التكة كما جرت العادة من قبل . ومنذ ذلك اليوم أهملت القلعة إهمالا شائناً . . .

فقد ربطت الجياد فى الحوش لدى الإيوان الكبير وباب الجامع ، وصار روث الخيل أكواما متناثرة على الأرض . وبدا دبيب الخراب يتجول فى دورها ويغشى محاسنها . وامتدت الأيدى تنتزع رخامها وحلياتها وتقتنص ما تضمنته أحشاؤها من نقوش وتحف . . .

فتجردت قاعتا البيسرية والدهيشة والقصر الكبير وما إليها من الأماكن الهامة من بديع رخامها وطرائف زينتها ، وافتقر الإيوان الكبير إلى أجمل عمده المسلوبة . لا لشىء إلا لأن السلطان — غفر له الله — شاءت له هويته وإعجابه أن يشحنها إلى استانبول ، عاصمة ملكه ، التى ابتغى أن يخلع عليها زينة وأبهة من أنقاض القلعة خاصة والقاهرة عامة . . .

وياليت الأمر قد قصر على فك نفائس القلعة ونقلها ، بل تمادى أيضاً إلى القصور والمساجد ، بل واستباح حرمات الدور . . . دور الناس الآمنين . فكان والى القاهرة وهو على رأس جماعة وهم يهجمون على البيوت شبه عصابات اللصوص ، ينزعون منها الرخام والطرائف ، رضى أصحاب البيوت أم لم يرضوا .

وفى الوقت الذى كان هؤلاء يجدون فى أعمال النهب والتخريب كان كبار العثمانيين يستلبون الكتب الثمينة من المدرسة المحمودية والمؤيدية والصرغتمية وغيرها من مدارس القاهرة .

ويقضى الأمر بالسلطان — فى سبيل تحقيق أمانيه — بترحيل عدد كبير من أصحاب الصناعات والحرف المصريين ، إلى استانبول . وبذا حرم مصر من أعمالهم الجميلة التى ازدانت بها القاهرة خلال أيام المماليك . وقيل إن السلطان أرسل بدلا منهم عدداً من الصناع الأتراك .

وشرع السلطان سليم فى مبارحة مصر ، عقب أن استطالت إقامته بها ثمانية أشهر إلا أياما قلائل ، كان يتردد إبانها بين القلعة وجزيرة الروضة ، بل وقضى معظمها بالمقياس ، دون أن يحاول ألبتة الجلوس على سرير الملك بالقلعة .

وزايل فى اليوم الثالث والعشرين من شعبان سنة ٩٢٣ هـ (١١ سبتمبر ١٥١٧ م) بيت ابن السلطان قايتباى ، ومر بالقلعة فى موكب زاخر بالعظمة يسبقه ملك الأمراء خير بك . ولم يخترق الموكب قلب القاهرة بل فضل السلطان السير فى خارجها .

وسلم مقاليد الحكم إلى الأمير خيربك الذى خان سيده السلطان الغورى وانضم إلى العثمانيين . وما إن تسلم الزمام حتى صعد إلى القلعة فى موكب فخم مخترقا الصليبة بالفجر . وتستولى عليه الرغبة الملحة فى إصلاح مبانيها . فيرسل فى طلب البنائين والنجارين والمبلطين ليصلحوا ما أفسده العثمانيون .

دأب خير بك على إصلاح القلعة بينما كان العثمانيون دائبى السطو على دور الأزبكية فينزعون أبوابها وسقوفها ونوافذها ويحملونها على الجمال لبيعها فى الأسواق بأبخس الأثمان . بل أكثر من ذلك كان جنودهم ينزعون أخشاب طباق القلعة ويستخدمونها فى إيقاد النار لطهو الطعام .

وكان الأمير خير بك قد أمر قائد جنود الإنكشارية بالصعود بهم إلى القلعة وإحضار مكاحلهم وبنادقهم معهم . فلما وصلوا إلى ثكناتهم أمروا بإدخال تلك

المكاحل والأسلحة فى الزردخانة ، كما أمرهم بالإقامة فى طباق القلعة وألا ينزلوا إطلاقا إلى الميدان .

وفى يوم ٢٧ ذى القعدة عام ٩٢٦ هـ (٢٠ ديسمبر ١٥٢٠ م) أخذ خير بك مفاتيح الأمكنة التى فى القلعة وسلمها لجماعة من الأتراك وطرد البوابين والغلمان ، كما أبطل الطهاة وأقام جماعة من الترك عوضهم ، وأبطل المقرئين الذين كانوا يتلون فى القلعة والمؤذنين كذلك .

رأينا الجنود الإنكشارية[1] تحمى القسم الشمالى من القلعة خلفاً للماليك ، وبعد زمن شغلت طائفة العزب القسم الجنوبى منها . إلا أن هذا التجاور كان مدعاة لأن ينشب الشجار بين جنود الطائفتين مراراً فى القلعة ويتحول منها إلى أحياء المدينة القريبة فيسود الهرج والمرج عدة أيام .

وظلت الطائفتان تضطلعان بأعمال الحامية التركية إلى جانب السلب والنهب والاعتداء ، حتى وصلت الحملة الفرنسية إلى وادى النيل .

وكانت المبانى الملحقة بالقسم السفلى من القلعة والمجاورة لباب السلسلة مخصصة لرجال العزب ، أما المبانى الأخرى التى تنهض على امتداد الميدان فكانت مقر الباشا (الوالى) — ولم يكن هذا القصر على شىء من الفخامة .

فقد وصفه دومابيه بقوله : « إن القاعة التى يعقد فيها الباشوات مجتمعاتهم طويلة ووسيعة . بيد أنها خالية من الزينة . علقت على جدرها سبعة تروس سميكة من خشب الساج قيل إن السلطان سليم — وكان قوياً مجيداً للرماية — أصاب الترس واخترق سهمها فى مرة واحدة ، وقد كان معروفا أن السلطان أرسل هذه التروس والرمح ليظهر للمصريين مدى قوته .

(١) وقد سمى باسمهم سور الإنكشارية وهو الاسم الذى أطلقه الفرنسيون عليه .

مسجد السارية (سليمان باشا)

يقال إنه كان فى موضعه جامع قسطة . شيد فى الأصل للجنود الإنكشارية ، الذين أمروا بعدم مبارحة القلعة ، حتى لا يصطدموا بطائفة العزب فى القسم الأسفل من القلعة . بينما كان مسجد ابن قلاوون قد تهدمت أركانه ، وأهملت أحواله ، وصار لا يصلح لإقامة الصلاة فيه .

وكان هذا المسجد الذى أنشأه بالقلعة الوالى سليمان باشا عام ٩٣٥ ﻫ (١٥٢٨م) على طراز مساجد الآستانة . استنبط طرازه من بعض الكنائس البيزنطية — تعلوه قبة كبيرة مكسوة بالقاشانى . قبالتها صحن كبير مكشوف تحيط به أروقة ذوات قباب صغيرة كسيت بالقاشانى أيضاً .

وفى داخل المسجد كتابة تاريخية عن إنشاء هذا الجامع نصها :

قد بنى وعمر الجناب العالى بملوك سلطان السلاطين سليمان سلطان بن سليم خان من آل عثمان أدام الله دولته إلى يوم الدين وهو أمير الأمراء المصريين سليمان باشا اللهم اجعله من الفائزين مسجداً لوجه الله المعين طلبا لمرضاة رب العالمين ليعبدوا فيه عبادة الله وكان تاريخه فاركعوا لله مع الراكعين .

(وحساب هذه العبارة بالنقط عام ٩٣٥ ﻫ) .

مسجد أحمد كتخدة

وقد شيد مسجد آخر بالقلعة فى العهد العثمانى ، وقد بناه الوالى أحمد كتخدة (١١٠٩ ﻫ — ١٦٩٨ م) ، وعلى أحد جدره كتابة باللغة التركية يستدل منها على اسم منشئه وتاريخ إنشاء المسجد وقد بين على خريطة القاهرة التى وضعها رجال الحملة الفرنسية فى عام ١٧٩٨ باسم مسجد العزب .

الوالى إسماعيل باشا التركى

وقد ذكر المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى وأيده دومابيه قنصل فرنسا فى مصر أن الوالى إسماعيل باشا التركى (١١١١ هـ — ١١١٦ هـ) نهض بإصلاحات شتى فى مبانى القلعة لا سيما فى زاويتها الجنوبية الغربية حيث سكن الباشوات ، وكذلك رمم قاعة الغورى التى بالبستان . وبنى صهريجا بداخل القلعة وأنشأ الحمام البديع بقره ميدان ونقل إلى القلعة حوض رخام كان قطعة واحدة أنزلوه من السبع حدرات .

رضوان كتخدا الجلفى

ثم يجىء دور رضوان كتخدا الجلفى ، أحد زعماء البكوات فى القاهرة — الذى يتغلب على منافسيه من زعماء الأحزاب الكثيرة التى عرفتها القاهرة فى ذياك العهد ويتحد مع إبراهيم بك ، وبدورهما يضمان أيديهما مع الوالى « قيور أحمد » فأزالوا من طريقهم جميع المنافسين بمؤامراتهم .

وتخلصت القاهرة من مكائد الأحزاب وأنانية رجالها ، وأصبحت تحت رحمة اثنين من الأمراء الأقوياء . وسنرى ما تم فى القاهرة من الأحداث فى أيامهما لأنها تعطى صورة لهذه العاصمة .

كان لكل من هذين الأميرين متجه يهدف إليه فى رياسته ، فكان إبراهيم صاحب السلطان وقائد الجيوش ومدبر السياسة ، على حين كان رضوان مؤلف القلوب وقبلة القصاد ، وكان الأميران على اختلاف اتجاهيهما متفقين متآلفين فقضيا فى رياستهما سبع سنين ونيفاً .

فعلى ضفة الخليج المصرى ابتاع رضوان داراً أصلها بيت التاجر الغنى الشرايبى ، وهى التى كان بها العمودان المعروفة (بثلاثة ولية) كانت واقعة على بركة الأزبكية وموضعها اليوم ما يلى حديقة الأزبكية وميدان الأوبرا وكانت تلك البركة آنذاك متنزها من متنزهات القاهرة المحبوبة تحيط بها بيوت أعيان التجار والأمراء ،

فلما اشتراها الأمير رضوان بالغ فى زخرفتها وعقد على قاعدتها العالية قبابا عجيبة الصنعة منقوشة بالذهب المحلول واللازورد والزجاج الملون . وكانت الأنوار تسطع فى هذه القباب فى أثناء الليل فيكاد يخطف بهاؤها ورواؤها الأبصار . وكان للأمير فوق ذلك من الناحية الشمالية الغربية من هذه البركة منظرة بديعة تطل من الغرب على الخليج الناصرى ومن الجنوب على بركة الأزبكية ومن الشمال على بركة أخرى استحدثها الأمير بتوسيع مجرى الماء فى الخليج بالقاهرة مما يلى قنطرة الدكة وأنشأ فى صدر البركة مجلساً خارجا ، بعضه على عدة قناطر لطيفة وبعضه داخل الغيط المعروف بغيط المعدية وبواسطه بحيرة تملأ بالماء من أعلى وينصب منها إلى الحوض من أسفل ويجرى إلى البستان لسق الأشجار ، وابتنى قصراً آخر بداخل البستان مطلا على الخليج ، فكان يتنقل فى تلك القصور التى نسقها أبدع تنسيق . وقصارى القول أن قصور رضوان كانت تتألق دواما بالأنوار الساطعة ويخلع عليها الفن المصرى آيات الروعة والإبداع ، وتجتمع فى أبهائها هامات العصر من الأدباء والعلماء . فلا غرو أن افتن الشعراء فى مدح رضوان ، وفى العمل على الاتصال به . من هؤلاء عبد الله بن سلامة المعروف بالإدكاوى نسبة إلى بلدته التى ولد فيها (إدكو) ومصطفى اللقيمى والسيد السديدى وقاسم التونسى وغيرهم . فقد امتدحه هؤلاء جميعاً وأنشئوا فيه المقامات والتوشيحات ورأينا الإدكاوى يجمع كل ما قاله الشعراء فى هذا الأمير ويتخذ منه مجموعة يسميها (النوافح الجنانية فى المدائح الرضوانية) ولا يكاد يوجد شاعر فى ذلك العصر لم يتصل بالأمير رضوان ، إلا أن رضواناً قد أضله ما هو فيه من نعمة فترك أمر البلاد واتبع طريق الشهوات وجاهر بالمعاصى .

ظل الأميران يقبضان على دفة الحكم فى البلاد ، حتى أنعم الأمير إبراهيم برتبة البكوية على أحد رجاله ، فشق ذلك على إبراهيم بك الشركسى ، ونمت بينهما الضغائن حتى قتله بيده فأصبح الأمير رضوان شيخ البلد وحده إلى أن ظهر شأن عبد الرحمن كتخدا الإنكشارية فأخذ يعضد مماليك الأمير ويقربهم على أمراء رضوان والقضاء على سلطته فتنبه هذا الأخير لذلك واستولى على القلعة وبعض أبواب أحياء القاهر وجامع المحمودية وجامع السلطان حسن واجتمع إليه أغلب

أمرائه وكادت تتم له الغلبة لولا أن سعى إليه الأمير عبد الرحمن كتخدا وأعوانه لإجراء الصلح وطلع بهم إلى الأمير رضوان وخدعوه بكلامهم فحسنت نيته وسلم بنصحهم .

وعقب أن نزل إلى داره من « قوصون » اغتنم أعداؤه الفرصة وبيتوا أمرهم ليلا ، واستولوا على القلعة وبعض الأبواب ، بينما كان رضوان آمنا فى بيته ، فلم يشعر إلا وهم يطلقون عليه المدافع . وكان الحلاق يحلق له رأسه فسقطت الجلل على داره فأمر بالاستعداد ، وطلب من يعتمد عليهم فلم يجد أحداً منهم يقف بجانبه فحارب فيهم إلى قرب الظهيرة حتى أصيب فى ساقه برصاصة من مملوكه الصغير (صالح) الذى لاذ بخصومه . ولما أصيب رضوان طلب الخيل وخرج من نقب فى جدار بستانه ، وانسل قاصداً البساتين فلم يتبعه أحد ونهبوا داره . ثم التجأ إلى قرية الشيخ عثمان بالصعيد حيث مات بشرق أولاد يحيى ودفن فيها عام ١٧٥٤ .

وعمر رضوان بك باب القلعة بالرميلة ، وهو الباب المعروف بباب العزب[1] وعمل حوله هاتين البدنتين العظيمتين الباقيتين والزلاقة التى كانت موجودة إلى أواخر أيام محمد على .

الوالى محمد يحيى باشا

(١٢٠٠ هـ — ١٧٨٥ م)

وكانت القلعة ، فى ذلك العهـــد ، شبيهة بالمدينة المستقلة ، تتمتع بعزلتها — لها مساجدها وميادينها وبيوتها وحماماتها ومقابرها . فيها بيت المال وسكن الباشا وفرقة جنود الإنكشارية .

ولما كانت الحامية العسكرية العثمانية تتصل فى هـذا العهد بالقاهرة أوثق اتصال لسكن أفرادها فى ثكناتها مع أتباعهم ، وكان لكبار ضباطها كلمة مسموعة فى حكم البلاد ، فقد رأينا أن نفرد عدة صفحات للكلام عن هذه الحامية .

---

(١) هو باب السلسلة قديماً .

الحامية العثمانية والأوجاقات السبعة[1]

كانت مهمة الحامية العثمانية بمصر الدفاع عنها والاشتراك فى حروب السلطان . وكذلك كانت لها اختصاصات أخرى غير حربية . فهى تساعد الباشا والصناجق (حكام المحافظات والأقاليم من الاتراك والأمراء المصريين) فى توطيد الحكم العثمانى فى مصر . وفى الوقت نفسه تراقب الباشا والصناجق وتوازن سلطتهم . وكان رؤساء الحامية يحضرون اجتماعات ديوان القاهرة . وهم كهيئة رسمية لهم كلمة مسموعة فى إدارة البلاد ويتضح ذلك فيما كانوا يقدمونه من المطالب إلى الباشا إذا ما أحسوا منه خروجا على العرف القديم . وكلما فكروا فى استحداث قاعدة جديدة يعدلون بها نصوص قانون سليمان . وكذلك كان رجال الحامية العثمانية يشتركون فى صيانة الأمن فى القاهرة ، ويساهمون فى حكم الأقاليم وفى جميع الأموال الأميرية .

والحامية العثمانية فى مصر اشتملت على عناصر مختلفة . فهى كانت تضم أخلاطا من العسكر من العثمانيين والمماليك والعرب والشوام والمغاربة . وبالتدريج أخذ عنصر المماليك فى الحامية يقوى على حساب العنصر العثمانى . وكان عدد الحامية يتراوح بين ١٢ ألفاً و ١٥ ألفا[2] وكانت مقسمة إلى سبعة أوجاقات (فرقة من الجند) وهى :

المتفرقة والجاوشان والكوكلويان والتفنكجيان والجراكسة والمستحفظان أو يكشيجريان والعزبان . وكان لكل أوجاق أغا أى رئيس وكتخدا . وباش اختيار أى رئيس القدماء فيه . وجماعة الاختيارية . والجوربجية أى الضباط .

---

(١) المجمل فى التاريخ المصرى — تأليف بعض هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة القاهرة ص ٢٥٥ — عام ١٩٤٢ .

(٢) مثال لعدد وحدات الحامية العثمانية فى مصر فى سنة ١٠٧٤ هـ (١٦٦٤ م) ويوضح أهمية أوجاق مستحفظان ٣٢٦٥ متفرقة — ١٢٦٩ جاوشان — ١١٥٤ كوكلويان — ٩٠٧ تفنكجيان — ٨٣٣ جراكسة — ٨٩٩ مستحفظان — ١٣٠٦ عزبان — مجموعها ١٣٦٧٣ .

وكاتب يمثل الأوجاق فى ديوان الروزنامة لكي يساعد فى صرف مرتبات الأوجاق ولنعرض بشيء من الإيجاز لهذه الأوجاقات كل على حدة .

١ — أوجاق متفرقة [١] : أهم أعمال هذا الأوجاق حفظ القلاع التى تحيط بمصر مثل قلاع الاسكندرية ورشيد والبرلس ودمياط والعريش والطور وأسوان وأبريم . ولكل من هذه القلاع طوائف من المتفرقة المشاة والفرسان والطوبجية مع جماعة الطبالين ونافخى البورى والمعماريين والنجارين . ويشرف هذا الأوجاق أيضاً على « تشهيل القوافل » ونقل الغلال ومختلف البضائع والمهمات بين الصعيد والقاهرة والسويس ويتولى هذا العمل « قافلة باشى » أى رئيس القافلة . وكذلك يعنى أوجاق المتفرقة بجمع البارود اللازم لشئون الدفاع عن مصر الذى يرسل جانب منه إلى السلطان .

٢ — أوجاق جاوشان (جمع جاويشية) : كان العمل الرئيسى لهذا الأوجاق تحصيل الأموال الأميرية من الملتزمين وتوريدها إلى خزينة الروزنامة ومن واجبه أيضاً الإشراف على شئون الغلال الأميرية . وكان المحتسب فى العهد العثمانى من رجال الجاوشان . وتلخص اختصاصاته فى الإشراف على الأسواق وضبط الموازين والمكاييل وتسعير المواد التجارية وضبط الأمن .

٣ — أوقاجات كوكلويان وتفتكيان وجرا كسة [٢] كانت هذه الأوجاقات من فرقة الاسباهية أى الفرسان ، ويشرف كبراؤها على الباشا ومنهم أغلب رجال الضبط وهم يشرفون أيضاً على حكم الأقاليم عن طريق من يقيم بها من رجال هذه الأوجاقات من الجوربجية والمتولية [٣] وحكام الأقاليم لم يكونوا يبتون فى أمر إلا بعد مشورتهم ، وكان الباشا ينص عليهم فى كل فرمان يصدره متعلقا بحكم الأقاليم

---

(١) متفرقة فى الأصل التركى تدل على أنهم كانوا أصحاب نوع من الإقطاعيات .

(٢) كوكلويان : أى المتطوعون وتفتكجيان أى حملة البنادق وجرا كسة هم المماليك الذين طلبوا إلى السلطان سليمان الانخراط فى سلك الحامية العثمانية .

(٣) الجوربجى الحائز لرتبة عسكرية تعادل اليوزباشى وتأتى بمعنى الكبير من رجال الحفظ فى الأرياف أو عين من أعيان النصارى فى الأرياف ، والمتولية أى الذين يتولون الأشراف على الأمن فى الأقاليم .

ومن أعمالهم أيضا المحافظة على الجسور ومساعدة الملتزمين فى تحصيل الأموال من الفلاحين .

٤ — أوجاق مستحفظان [1] . وهؤلاء هم الإنكشارية ، وكانوا أقوى الأوجاقات وأكثرها عددا ، وعرفوا بأوجاق السلطان ومهمتهم مساعدة الباشا فى تنفيذ أوامر السلطان : كما كانت لهم رقابة عليه ، ومنهم طائفة من كبار أصحاب المناصب مثل كتخدا الباشا فى بعض الأحيان ، وأغا الإنكشارية الذى كانت له الرياسة العليا على ضبط مدينة القاهرة .

وكذلك سردار الحج (أى قائد القوة العسكرية المرافقة للحجاج) وسردار الخزينة (قائد القوة المرافقة للخزينة المرسلة للسلطان) .

٥ — أوجاق عزبان (رجال البحرية من حملة البنادق) : كان لرجال هذا الأوجاق عدة اختصاصات ، فهم بحارة ترسانة الإسكندرية والسويس . وكان من رجاله أمين البحرين ، وهو المشرف على ساحلى بولاق ومصر القديمة . فيما يتعلق بالسفن وبالضرائب المفروضة على الغلال الواردة على هذين الساحلين ، وكذلك كانت لهم اختصاصات بوليسية فتألف منهم مراكز البوليس بالقاهرة ، ويشرفون أيضاً على الملاهى والبهلوانات والحواة والبغايا .

ولم تتعرض مصر طوال العهد العثمانى حتى قدوم الحملة الفرنسية لخطر الاعتداء من الخارج ، وليس معنى ذلك أن قوات الحامية العثمانية ظلت راكدة ، ولم تشترك فى أية حروب فى أثناء هذه القرون ، فالجيش العثمانى المملوكى اشترك فى حروب السلطان فى أوقات وفى ميادين مختلفة ، فمثلا عند ما هاجم الصدر الأعظم أحمد كوبريللى جزيرة كريت اشتركت الحامية العثمانية المصرية فى هذه الحروب ، وأرسلت قوة من ألفى جندى .

---

(١) مستحفظان أى رجال الحفظ ويسمون بكيجريان أى المعسكر الجديد .

وانتهى ذلك الهجوم بانتصار العثمانيين بانتزاع كريت من أيدى البنادقة في سنة ١٦٦٩ وفى أثناء الحروب الطويلة بين الدولة العثمانية والنمسا فى النصف الثانى من القرن السابع عشر اشترك الجند العثمانى المصرى فى هذه الحروب فى أكثر من ميدان . فأرسلت على دفعات قوات إلى رودس وأدرنة والقسطنطينية وسالونيكا وبلغراد ، وفى الحرب الروسية التركية التى وقعت فى عهد كترين الثانية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر اشتركت فرق من الجند العثمانى المملوكى فى هذه الحرب ووصلت حتى رومانيا .

القلعة فى أيام الفرنسيين

١٧٩٧ — ١٨٠١

هزم الفرنسيون فى معركة (أبو قير) الحربية ، ولكنهم انتصروا على المماليك فى معركة (إمبابة) . ودخـــل نابليون القاهرة فى الرابع والعشرين من يوليو عام ١٧٩٨ ، وجعل مقر رئاسة الجيش العامة فى قصر محمد الألفى بخط الساكت (فندق شبرد اليوم) .

وفى السابع والعشرين من سبتمبر فى العام ذاته ، أمر الفرنسيون أهل القلعة بمبارحة منازلهم والنزول إلى المدينة للسكن فيها ؛ وأصعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع ، وهدموا أبنية كثيرة ، وشرعوا فى بناء جدر وكرانك وأسوار وقوضوا أبنية عالية . وأعلوا مواضع منخفضة وغيروا مواضع القلعة وأبدلوا محاسنها ومحوا ما كان بها من معالم السلاطين وآثار الحكماء والعظماء وما كان فى الأبواب العظام من الأسلحة والدروق والبلط والحراب الهندية وهدموا قصر صلاح الدين .

هذا ما ننقله عن مؤرخ هذه الحقبة . عبد الرحمن الجبرتى رحمه الله .

ثم نراه يقرر — فيما بعد — أن مبانى القلعة قد ضاقت بسكانها مما جعل أحد الفرنسيين ينقل سكنه إلى جامع السارية بعد ما نقلوه إليها من العتاد والغلال والذخائر والأحطاب مع ما هدموه من أماكنها وسووا أبواب الميدان واقتصروا على باب السبع حدرات فى النزول والطلوع إلى الميدان المذكور .

وأخيراً حينما يسوء حال الفرنسيين فى مصر بعدهزيمتهم قبالة الإنجليزفىمعركة كانوب (الإسكندرية) التى دارت فى ٢١ مارس ١٨٠١ يعقد مجلس حربى بقيادة الجنرال بلیار فى القلعة ويقوم بينهم شارحا موقف الجيش الفرنسى وكان ميالا إلى التسليم فيعارضه بعض أعضاء المجلس .

وتنتهى المفاوضات بين ممثل الإنجليز والفرنسيين بالاتفاق على جلاء الجيش

الفرنسى عن القاهرة وقلاعها وقلاع بولاق والجيزة وعن جميع الجهات التى تحتلها القوات الفرنسية فى مصر . وحدد للجلاء عن القاهرة وبولاق اثنا عشر يوما على أن يتم الجلاء فى أقرب وقت بحيث لا يزيد على خمسين يوما بعد يوم التصديق على الاتفاق .

أخلى الفرنسيون قلعة الجبل وباقى الحصون وانتقلوا إلى الروضة وقصر العينى والجيزة استعداداً للرحيل من رشيد ودخل الجنود العثمانيون القاهرة فى ١٤ يوليو سنة ١٨٠١ .

ثم أخلى الفرنسيون قصر العينى والروضة والجيزة وأقلعت سفنهم إلى رشيد . وبذلك تم جلاؤهم عن القاهرة وضواحيها وأخذوا معهم رفات الجنرال كليبر . وساروا من رشيد إلى أبى قير وأبحرت بهم السفن فى أوائل أغسطس عام ١٨٠١ إلى فرنسا ، ثم وقع الجنرال مينو اتفاقية الجلاء النهائى عن وادى النيل يوم ٣١ أغسطس ، وبجلاء الفرنسيين بعد احتلال ثلاثة أعوام وشهرين طويت صحيفة احتلالهم وبدأت تتنازع السلطة فى مصر ثلاث قوات : الأتراك والإنجليز والمماليك وظهرت قوة رابعة على مسرح النضال السياسى هى : الشعب المصرى .

* * *

بدأت القلعة المجيدة التى وصلت إلى ذروة المجد فى أثناء حكم السلاطين المماليك تفقد بالتدريج مكانتها الرفيعة نتيجة لإهمال حكامها من الولاة الأتراك الذين كانوا لا يستقرون بالبلاد مدة حتى تصلهم أوامر الباب العالى بالعودة أو بتقلد ولاية أخرى أو ربما فصل الرأس ، ولم يكد ينتهى القرن السادس عشر حتى آلت أكثر منشئات قلعة الجبل إلى أحضان الخراب . ولما زار الرحالة سافارى (Savary) القلعة فى خلال القرن الثامن عشر (١٧٧٧ — ١٧٧٩) قال عنها :

« إنها لا تتألف إلا من مجموعة خرائب وأنقاض تلوح عليها علائم الحزن ، ولم يتبق منها سوى بعض أماكن قليلة صالحة للسكنى » .

ومما يذكر أنه كان يقام بالقلعة ، إبان الحكم التركى ، المهرجانات الرسمية لاستقبال الولاة ، أو حفلات الأعياد القومية والدينية كغرة شهر رمضان والمولد النبوى ووفاء النيل .

وفى أول المحرم عام ١٢٠٠ هـ (١٧٨٥) وصل محمد باشا يكن الوالى الجديد ، وقد تهيأ له فى الفترة القصيرة التى قضاها فى مصر أن يعمر قصراً ويترك أثراً يتحدث عن عمارته . . . فعلى مقربة من باب الجبل إلى داخل الحائط تقرأ كتابة باللغة التركية يستدل منها على بنائه قصراً فى الجهة الجنوبية الشرقية من القلعة . وقد أطلق على هذا الجزء كلمة (سراى) لدى وصول الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١) .

وخير وصف لحال القلعة ، حينما وصل إليها الفرنسيون وصعدوا إليها واتخذوها قاعدة لعملياتهم فى القاهرة ما نورده بعد [1] :

تنقسم قلعة القاهرة إلى قسمين : القسم الأعلى حيث يقيم جنود الإنكشارية على ارتفاع مائة متر تقريبا من سطح النيل ، والقسم الأسفل حيث يقيم جنود العرب ويفصلهما عن بعض سور . وفى داخل القسم العلوى سور صغير يلف حول برج صغير اسمه خزانة القلعة ، وبرج الإنكشارية أقوى أبراج القلعة ، أما بئر يوسف فيوجد فى جهة أخرى خلف القسم العلوى ، كما أن هناك سوراً آخر يطلق عليه سور الآغا .

---

(1) Le Description de l'Egypte Vol. XVIII, deuxième Partie. Page 282-283.

انظر الأطلس أيضاً اللوحة (٢٦)

القلعة فى أيام محمد على وخلفائه

١٨٠٥ — ١٩٣٦

مرت أعوام أربعة ، بين جلاء الفرنسيين وتولية محمد على على مصر ، لم تنعم البلاد خلالها باستتباب الأمن وأسباب السلام . .

وتتوالى الأحداث سراعا . فيحاصر الشعب المصرى القلعة ، ويذعن الوالى خورشيد باشا لما آل إليه أمره ، ويضطر لتسليمها صاغراً ، فى يوم الاثنين ٥ أغسطس سنة ١٨٠٥ (٩ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ هـ) ، وينزل الوالى حريمه وأتباعه وجنوده فى اليوم التالى من باب الجبل إلى باب النصر فبولاق . ويتقدم محمد على وبصحبته بعض الزعماء ويشدون على يديه مودعين ، على ظهر السفينة التى أقلته إلى الإسكندرية .

ويخلو الجو ، ويصبح محمد على والى مصر ، ويرنو إلى أفق المستقبل بعين ملؤها الأمل والثقة . ويبدأ فى تنفيذ خطته الكبيرة .

وتشاء الظروف أن ينتقل محمد على إلى القلعة ويتخذها معقلا له ومقراً . حين شبت فى القاهرة فتنة الجند الأرناءود . ومنذ ذلك اليوم ، بدأ النشاط يسرى فى كل ركن من أركانها .

فقد أصلح أسوارها ، وأحيا أبراجها وأبوابها ، وشـــيد فيها ثكن الجند ، ودواوين الحكم ، ومصانع الذخيرة ، ومدارس الجيش ، وقصوراً للسكنى ، كما أمر ببناء مسجد .

ومن ثم ننتقل إلى عرض منشئات محمد على فى القلعة ، على حسب تاريخ عمارتها .

دار الضرب :

تقع هذه الدار شمال شرقى ديوان الكتخدا (قاعة العدل) وشرق جنوبى مسجد محمد على . وهذه القاعة أنشئت أصلا فى عام ١٧٠٩ م ، وظلت باقية إلى أن جددها محمد على عام ١٨١٢ ، وأثبت هذا التجديد فى لوح رخامى ، على بابها الوسيط ، ونصه :

« جدد هذا المكان المبارك الوزير الأعظم محمد على باشا والى مصر حالا » .

ودار الضرب بناء مستطيل له فناء مكشوف ، أحدقت به حجرات متجاورات يعلوها قباب مبنية بالطوب فتحت بأعلاها مناور . ويتوسط الفناء غرفة بيضاوية الشكل مقامة بالحجر .

ويرى إلى الآن بعض الغرف التى كانت بها آلات الضرب .

ومما يذكر أن هذه الدار كانت تجمع عددا كبيراً من الصناع أوفى فى سنة ١٨١٢ على خمسمائة صانع .

قصر الجوهرة:

يقع هذا القصر جنوبى مسجد محمد على . وكان موضعه أبنية قديمة بناها الملك الأشرف قايتباى والسلطان الغورى . وقد نسب المؤرخ الجبرتى إلى محمد على هدمها ضمن حوادث عام ١٨١٢ . فقد ذكر :

« أن محمد على ، هدم سراية القلعة وما اشتملت عليه من الأماكن . فهدم المجالس التى كانت بها والدواوين وديوان قايتباى وهو المقعد المواجه للداخل إلى الحوش علو الكلار الذى به الأعمدة وديوان الغورى الكبير وما اشتمل عليه من المجالس التى كانت تجلس بها الأفندية والقلفاوات أيام الدواوين ، وشرع فى بنائها على وضع آخر واصطلاح رومى وأقاموا أكثر الأبنية من الأخشاب .

والمدخل الرئيسى للقصر فى الجهة الشرقية أمامه مظلة محمولة على عمد رخامية ومكتوب على أعلى الباب « يامفتح الأبواب افتح لنا خير الباب » سنة ١٢٢٨ هـ . ويفضى هذا الباب إلى طرقة كبيرة بها عقود حجرية تنتهى إلى سلم فباب كبير مكتوب عليه بالخط الفارسى « الله ولى التوفيق » ١٢٢٩ هـ .

وعلى يسار هذا المدخل أبنية تسودها البساطة متصلة بديوان الكتخدا ، وبنهايته الشرقية البحرية قاعة مستطيلة لها سلم مزدوج يوصل إلى الميدان الواقع أمام دار الضرب ومكتوب على أحد أبواب هذا الجناح « من آمن بالقدر أمن الكدر » ١٢٢٩ هـ وكان هذا الجناح مخصصا للموظفين .

أما قصر الجوهرة فكان مخصصا لاستقبالات محمد على وبه قاعة كبيرة عرفت بصالة العرش يتوصل إليها من الباب الأوسط المكتوب عليه « الله ولى التوفيق» وحجرة العرش أو الفرمانات أكبر حجرة بالقصر بجدرانها بقايا نقوش وسقفها على شكل بيضاوى به نقوش مذهبة تمثل آلات حربية وموسيقية تتوسطها سرة خشبية مذهبة بها مجموعة من الفواكه وهى تشرف على ميدان صلاح الدين .

ويحتوى القصر على عدة غرف كبيرة وصغيرة ولها أبواب تصل إلى القاعة الكبرى التى نقش على أعتابها صور لسفن الأسطول ، وعلى أعتاب هذه الغرف نقشت صور سفن حربية ، وبالجهة الشرقية يوجد حمام فرشت جدرانه وأراضيه بالرخام المستورد من محاجر بنى سويف وبه حوض رخامى من قطعة واحدة .

وقد زار محمد على فى هذا القصر كثير من الأعلام المشهورين منهم الأديب الفرنسى «شاتوبريان» والكونت «دى فور بان» الذى وصف فى كتابه مدينة القاهرة كما وصف حفلة استقبال (١٨١٧ — ١٨١٨) فى القصر . ولما زار مصر السلطان عبد العزيز عام ١٨٦٢ احتفل به الخديو إسماعيل احتفالا كبيراً ، وأقام بهذا القصر سبعة أيام [1] .

الدفترخانة (دار المحفوظات) :

شيدت دار المحفوظات على أنقاض طبلخانة بيبرس وتقع خارج الباب الجديد إلى اليمين ، وقد أمر محمد على ببنائها فى عام ١٨٢٨ (١٢٤٤ هـ) ووجهاتها . مبنية بالحجر ، والباب الأصلى لهذه الدار يعلوه لوح رخامى مكتوب باللغة التركية .

ويعلو هذا اللوح سبع كوابيل تحمل « خارجة »حجرية بها ثلاث نوافذ تنتهى من أعلى بكورنيش هرمى .

ويؤدى الباب العمومى إلى طرقة معقودة تنتهى إلى فناء مكشوف تحيط به عقود استعمل ظهرها ممراً حول الحوش ينتهى بسور فتحت به المزاغل . وبالجهة الشمالية للفناء باب آخر يوصل إلى فناء داخلى أحدقت به العقود الحجرية خلفها ممرات

---

(١) حسن عبد الوهاب — مجلة العمارة ، العددان ٣ و ٤ عام ١٩٤١ ص ٢٨ — ٣٢

معقودة على جانبيها غرف أعـــدت المحفوظات يعلوها دورتان . وطراز دار المحفوظات من طراز السور الشمالى الممتد من الباب الجديد إلى شارع المحجر بما فيه الباب المسدود .

قصر الحرم :

يقع هذا القصر فى داخل قلعة صلاح الدين ويشرف على جبل المقطم والحطابة وقد أمر محمد على بإنشائه فى عام ١٨٢٧ م ويتألف من أجنحة ثلاثة .

فالجناح الشرقى ويصل إليه من باب معقود بواجهته القبلية مكسو بالرخام الأبيض عليه زخارف بارزة ولوح رخامى به كتابة تركية .

ويفضى هذا الباب إلى دركاة بها صفف وعقود حجرية على يسارها حجرة للحارس . وهذه الدركاة تؤدى إلى فناء مربع بجداره الشمالى باب به دركاة على نسق السابقة توصل إلى فناء آخر تشرف عليه واجهة القصر ، على امتداد الجناحين الآخرين . ويحيط بهذا الفناء أبنية مكونة من طابقين .

وواجهة هذا الجناح مؤلفة من ثلاثة أدوار .

وقد نقشت الجدر الداخلية برسوم زيتية ملونة تمثل جواسق وستائر وأفاريز وزخارف شجرية فيها بعض الزهور .

والقصر يشتمل على غرف كبيرة نقشت جدرها وأسقفها بنقوش جميلة بعضها مذهب .

وهناك سلم مزدوج يوصل من الدور الأرضى للعلوى — وهنا يجد الزائر ردهة كبرى بها أربع إيوانات فى بعض أركانها بابان لغرفتين — وفى بعضها غرفة وطرقة توصل إلى باقى أجزاء القصر .

وهذه الردهة أبهى ما فى الجزء الشرقى من القصر ، وكذلك حجرة الفسقية الموجودة بالطرف الشرقى البحرى منه .

والنقوش التى تعلو جدر الغرف تدور حول مناظر الزهور فيما عدا السقف فزخرفه هندسى الشكل .

الجناح الأوسط

يتوصل إلى هذا الجناح من حديقته الواسعة التى تبلغ مساحتها ٧٠ × ٥٧ مترا تقريبا . أحيطت بتكاعيب الكرم تتوسطها نافورة يعلوها جوسق . وتطل على الحديقة واجهة القصر ويتوسطها باب كبير ركب عليه مصراعان عليت حشواتهما بنقوش بارزة — وهذا الجناح يحتمل أنه كان المدخل الرئيسى للقصر — ويؤدى الباب إلى سلم مزدوج يوصل إلى الدورين العلويين ، والدور الأرضى يحتوى على ردهة كبيرة بكل ركن من أركانها غرفتان ، وجدرها محلاة بصور زيتية وكذلك الأسقف . ويوجد بهذا الدور حمام يتألف من طرقة مستطيلة مغطاة بسقف جصى حلى بزجاج ملون ، ثم باب أول وهى غرفة مقسمة إلى إيوانين بينهما درقاعة يغطى الجميع سقف جصى من الزجاج الملون وواجهة كل من الإيوانين محمولة على عمد رخامية قواعدها مربعة ومطعمة برخام أحمر اللون .

والقسم الداخلى (بيت الحرارة) يوصل إليه من باب بالغرفة الأولى على جانبيه نافذتان لتوصيل الملابس منها وهو مقسم إلى أقسام أكبرها أوسطها، يغطى الجميع سقف جصى بتقاسيم زخرفية، والسقف محمول على عمد رخامية وبالصدر حوض رخامى كبير من قطعة واحدة

ومن السلم المؤدى يصل المرء إلى الدور الثالث وينتهى إلى ردهة كبيرة تبلغ مساحتها ٢٦ × ١٤ متراً تقريبا بها أربعة إيوانات مقاس بعضها ١٣ × ١٠ متر تقريبا . والسقف والجدر مزخرفة ومنقوشة بالصور .

الجناح الغربى

يمتد سوره الخارجى مع الجناح الأوسط — ويصل إليه من باب فى السور القبلى — يوصل إلى فناء كبير مساحته ٧٥ × ٦٠ متراً تشرف عليه واجهة الجناح المتصلة بباقى الوجهات . ويتوسطها باب يوصل إلى القاعة الكبرى بالدور الأرضى

وإلى السلم المزدوج — وتصميم هذا الجناح يماثل تقريبا تصميم سابقيه وله واجهة أخرى تطل على مدخل القلعة . وقد طرأ عليه تغيير كبير إذ أبدلت بسقفه أخرى حديدية فأزيلت زخارفه .

وجميع أجزاء القصر يتصل بعضها ببعض — كما أن بفناء كل جناح سوراً به باب يوصله بالجناح الآخر[1] .

دار الصناعة :

لعل هذه الدار كانت أهم منشئات محمد على العسكرية بالقلعة . . . فقد كانت الصناعة فى مصر محصورة قبل محمد على فى نسيج الكتان والصوف والنجارة والسبك وصناعة الحصر وما إليها من الصناعات المختلفة . فلما تولى محمد على بدأ بالتقاط من تبقى من أرباب الصنائع وحشدهم فى القلعة سنة ١٢٢١ هـ (١٨٠٦ م) وجمع لهم ما فى المخازن من الخشب والحديد فشرعوا فى صنع آلات الحرب وصب المدافع وما يلزمها من العجلات والعربات .

ومع إنشاء محمد على للمصانع الحديثة أوفد البعثات من نجباء التلاميذ المصريين إلى أوربا لإتقان الصناعات حتى تستغنى البلاد بهم عن اليد الأجنبية .

أنشأ محمد على فى القسم الجنوبى من القلعة دار صناعة كبرى تضم مصانع متنوعة أهمها مصانع للأسلحة الخفيفة ولطرق النحاس ولصب المدافع وسيوف الفرسان ورماحهم واللجم والسروج وملحقاتها وصناديق الذخيرة وغيرها .

وكانت هذه المصانع تمتد من أسفل قصر الناصر بن قلاوون إلى باب العزب . وما زالت آثارها إلى اليوم تشغلها ورش وبعض مخازن مصلحة الأسلحة والمهمات .

قبل بدء إنشاء دور الصناعة بالقلعة كان بها فى عام ١٨٢٣ مصانع تافهة ، بيد أن من المؤكد أن أرجاءها قد اتسعت عام ١٨٢٧ . وكان أهم مصانعها وأكثرها نشاطا معمل صب المدافع الذى كانت تصنع فيه كل شهر ثلاثة مدافع أو أربعة عيار

(١) حسن عبد الوهاب — مجلة العمارة ج ٣ و ٤ ص ٣٨ — ٤١ .

ثمانية أرطال ، وصنعت فيه مدافع الهاون ذات الثماني البوصات ومدافع قطرها ٢٤ بوصة .

وقد أشرف على إدارة هذه المصانع اللواء إبراهيم أدهم باشا ، وكان يعمل فيها تسعمائة صانع ينتجون شهرياً من ٦٠٠ إلى ٦٥٠ بندقية ، وقد بلغ تكاليف البندقية الواحدة ١٢ قرشا . وكان لرؤساء الصناع مرتبات ثابتة وللعمال أجور يومية

ولما زار الماريشال « مارمون » دار صناعة القلعة عام ١٨٤٤ أعجب بنظامها وأعمالها وقد قال عنها : مما أعجز عن توفيته حقه من المدح مصنع الأسلحة الذي يبدع من هذه الأسلحة أكثرها استجماعا لضروب الكمال والإتقان . والمعامل من هذا القبيل في مصر ثلاثة . زرت منها معمـــل القلعة باحثاً مدققا منتقدا . فرأيت أن الأسلحة التي تصنع قد جمعت وسائل الإتقان المتوفرة فيما تصنعه معاملنا من نوعها ، والنوع الذي يصنع فيها منقول عن الطراز الفرنسي — وجميع الاحتياطات الكفيلة بجودة هذا السلاح تتخذ في معاملنا سواء — وقد اتبعت فيها طريقة توزيع العمل والمراقبة المتبعة في معاملنا . فإن كل شيء يعمل بالقطعة وفقاً للنظام المقرر . وخلاصة القول فإن معمل السلاح الذي زرته يناظر أحسن معامل فرنسا وأرقاها نظاما وجودة وأكثرها رعاية لأصول الاقتصاد (١) .

جامع محمد على

رأينا محمداً عليا قد شيد في القلعة القصور ودواوين الحكم والمدارس ودار الضرب ثم أصلح أسوارها وعمر أبراجها ، وسنراه يشيد مسجداً لأداء الفرائض وليكون له المقر الأخير ، فعهد إلى المهندس التركي يوسف بوشناق بوضع تصميم له فوقع اختياره على مسجد السلطان أحمد بالآستانة واقتبس منه مسقطه الأفقي بما فيه الصحن والنافورة مع تعديلات قليلة .

شرع في بناء الجامع سنة ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠ م) واستمر العمـــل سائراً بلا انقطاع حتى توفى محمد على سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩م) فدفن في المقبرة التي أعدها

(١) كلوت بك — لمحة عامة في مصر جـ ٢ ص ٤٥٤ — ٤٥٥ .

لنفسه بداخل الجامع — وكان بناؤه كاملا من أسوار وقباب ومنارات وكتابات تعلو الشبابيك الخارجية .

ولما تولى عباس الأول نهض المهندسون بأعمال النقش والتذهيب وبعض أعمال الرخام بالمسجد . ثم أمر بعمل تركيبة رخامية ومقصورة نحاسية . ثم عنى بالمسجد سعيد . كما اهتم الخديو إسماعيل فعمل له أبوابا حديدية بسماعات نحاسية وأحاطه بأسوار وأنشأ له دورة مياه ، ثم عنى به توفيق سنة ١٨٧٩ فأمر بإصلاح رخام الصحن وإعادة رصاص القباب .

وفى حوالى عام ١٩٣١ ظهر خلل بالجامع فوضع مشروع لإصلاحه .

وانتهى الأمر بإزالة قبة الجامع الكبيرة وما حولها من أنصاف قباب وقباب صغيرة وإعادة بنائها . وقد كشفت عملية الإصلاح عيوبا شتى فى البناء واستمر العمل حوالى أربعة أعوام انتهى فى سنة ١٩٣٩ وبلغت تكاليف أعمال الهدم والبناء ٦٠٫٠٠٠ جنيه مصرى ونفقات البياض والزخرفة حوالى ٤٠٫٠٠٠ جنيه .

وصف المسجد :

المسجد مستطيل البناء ينقسم إلى قسمين : القسم الشرقى وهو المعد للصلاة ، والغربى وهو الصحن تتوسطه نافورة للوضوء . ولكل من القسمين بابان أحدهما قبلى والآخر بحرى .

والقسم الشرقى مربع الشكل طول ضلعه من الداخل ٤١ مترا تتوسطه قبة مرتفعة قطرها ٢١ مترا وارتفاعها ٥٢ مترا من مستوى أرضية المسجد محمولة على أربعة عقود كبيرة متكئة أطرافها على أربعة أكتاف مربعة يحوطها أربعة أنصاف قباب وذلك خلاف أربع قباب أخرى صغيرة بأركان المسجد وقد كسيت جدر المسجد من الداخل والخارج وكذلك الأكتاف الأربعة الداخلية الحاملة للقبة إلى ارتفاع ١١ مترا بالرخام الوارد من محاجر بنى سويف .

ويعلو مدخل الباب الغربى المؤدى إلى الصحن دكة المؤذنين بعرض المسجد مقامة على ثمانية عمد من الرخام فوقها عقود — ولها سياج من نحاس يتوصل إليها

من سلم المنارتين . وبدائرة المسجد من أسفل الشبابيك كتب على أعتابها من الداخل أبيات قصيدة البردة .

والمحراب من الرخام (الألبستر) يجاوره منبر رخامى أمر بعمله الملك السابق فاروق ، وبالقرب منه المنبر الخشبي القديم للمسجد وهو أكبر منبر فى الآثار العربية .

وفى الركن الغربى القبلى ضريح محمد على يتألف من تركيبة رخامية حولها مقصورة من النحاس المذهب جمعت بين الزخارف العربية والتركية .

وعلى طرفى الواجهة الغربية للصحن منارتان وشرفتان ارتفاعهما ٤٨ مترا من مستوى أرضية الصحن بكل منها ٢٥٦ درجة إلى نهاية الدورة الثانية .

وتبلغ مساحة الصحن ٥٢ × ٥٤ مترا يحيط به أربعة أروقة ذات عقود محمولة على أعمدة رخامية تحمل قبابا صغيرة منقوشة من الداخل ومغشاة من الخارج بألواح من الرصاص كالقبة الكبيرة . وبدائرة الإيوانات المذكورة ٤٦ شباكا تشرف على خارج الجامع من الجهات الثلاث البحرية والغربية والقبلية .

وأما الجهة الشرقية فتشرف على الجامع وبها ثمانية شبابيك — ومكتوب على أعتابها آيات من القرآن بالخط الفارسى الجميل بقلم الخطاط المشهور « سنكلاخ » سنة ١٢٦٢ هـ .

وبوسط الصحن قبة أنشئت سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٦ م) مقامة على ثمانية أعمدة رخامية وبداخلها قبة أخرى رخامية مثمنة نقش على أضلاعها عناقيد عنب وبها طراز مكتوب بالخط الفارسى آية قرآنية .

ويتوسط الرواق الغربى المطل على الصحن برج من النحاس المخرم والزجاج الملون بداخله الساعة الدقاقة التى أهديت إلى محمد على من ملك فرنسا لويس فيليب عام ١٨٤٥ وأمام الواجهتين القبلية والبحرية للقسم الشرقى رواقان بهما عمد رخامية تحمل قبابا صغيرة — هذا وقد تمت أعمال الإصلاح بالجامع عام ١٩٣٩ .

تاريخ عمارة القلعة

لما بنيت القلعة فى أيام صلاح الدين كانت مبانيها تشغل المنطقة الشمالية الشرقية من المساحة التى تشغلها القلعة فى الوقت الحاضر . وكانت لها ثلاثة أبواب .

الباب المدرج وباب القلعة وباب القرافة . ويقع الباب الأخير اليوم فى المنطقة الشرقية للقلعة، ويرى الأستاذ كريزويل أن جزء سور القلعة الشمالى الذى يمتد من مسجد سيدى سارية إلى زاوية السور عندما يدور للاتصال بالباب الجديد من أعمال محمد على . إذ أن خريطة القاهرة التى رسمها رجال الحملة الفرنسية لم يظهر عليها هذا الجزء من السور. ومن المحتمل أن السور الشمالى كان يمر فى مكان مبانى الواجهة الحالية بقصر الحريم الذى شيد فى أيام محمد على . وتهدم لما بنى هذا القصر ثم شيد إلى شماله السور الحالى الذى يفصله عن الواجهة الشمالية لقصر محمد على الحديقة الموجودة اليوم .

وما زال جزء من السور الشمالى الأصلى موجوداً إلى اليوم خلف مسجد سيدى سارية ويتصل بحائط القصر الشرقى . وما زالت قاعدة البرج المستديرة القديمة الذى كان عنده منحرف السور موجودة بقاياها إلى اليوم ويبلغ قطر هذه القاعدة خمسين قدما . ومن المحتمل جداً أن يكون الشكل العام للبرج المذكور على مثيل البرجين الآخرين اللذين فى السور الشمالى الشرقى[1] .

ومن المأخوذ به أن بئر يوسف كانت تقع فى محيط القسم الأصلى القديم فى قلعة صلاح الدين ولا ينتظر أن تكون البئر التى تمد سكان القلعة بالمياه تقع فى خارجها وعلى ذلك يتبين أن يكون السور القبلى لقلعة صلاح الدين كان قد بنى إلى جنوب السور الذى يقع فيه اليوم باب القلعة ليدخل ضمنه البئر وقد أثبت الأستاذ كريزويل بعد قيامه بأبحاثه الأثرية صحة هذا الرأى كما أيد الرأى القائل بأن باب القلة الأصلى الذى هدمه قلاوون فى ٢ سبتمبر سنة ١٢٨٦ (١ رجب عام ٦٨٥ ﻫ) كان فى موضع جنوبى الباب الحالى المعروف بهذا الاسم والذى يواجه الباب الشمالى لمسجد الناصر

---

(١) لم توضح بقايا هذا البرج على خرائط المساحة مقاس ١/١٠٠٠ .

— بنى فى مكان هذا الباب قبة — وذكر أيضاً كريزويل ما قاله المقريزى عن باب القلعة كما شاهده فى أيامه وكان فى المكان الذى يقوم عليه اليوم وأن الذى شيده محمد الناصر فى حوالى عام ١٣٢٠ — ١٣٢١ م (٧٢٠ ﻫ) .

ومن حسن الحظ أننا نجد نقطة محدودة كل التحديد فى القسم الجنوبى للقلعة فى الكتابة المنقوشة باسم السلطان محمد الناصر على بعد قدمين إلى يسار البرج المربع الكبير فى الزاوية الشمالية الغربية من مسجد محمد على . وتدل هذه الكتابة على أنه بدىء العمل فى البرج فى جمادى الأولى وانتهى فى شوال عام ٧١٣ ﻫ (أغسطس — سبتمبر سنة ١٣١٣ — يناير فبراير سنة ١٣١٤م) وإلى جنوب هذا البرج توجد عدة دعامات تربطها بعضها ببعض عدة عقود يعلوها كوابيل حجرية كبيرة ولا بد أنها بنيت لحمل الدعامات المربعة الكبيرة للقصر الأبلق الذى شيده السلطان محمد الناصر عام ٧١٣ ﻫ (١٣١٣ م) وانتهى منه فى عام ٧١٤ ﻫ ولا تزال إلى اليوم ترى أحجار هذا القصر الملونة ملقاة فى مكانها .

ويرى الأستاذ كريزويل وهو عمدتها فى تاريخ القلعة من الناحية الأثرية أن توسيع القلعة تم فى أيام حكم محمد الناصر واتجه هذا التوسع إلى الجنوب عندما بدأ بناية الحوش فى عام ١٣٣٧ و ١٣٣٨ (٧٣٨ ﻫ) وكانت مساحته أربعة أفدنة وقد شغل مكان الحفرة التى استمد منها بناءو القلعة الحجارة لبنائها . وكان هذا العمل كبيراً أخذ الأمراء على عاتقهم أن يشيدوه برجالهم والاستعانة بحيواناتهم لنقل الرمل ومواد البناء . وقد اشتغل عدد كبير من أسرى الحروب مع رجال المماليك . وكان العمل مضنيا فمات منهم المئات . وفى هذا نجد تفسير وجود المرتفع الصناعى الذى ترتكز عليه القلعة فى الجزء الجنوبى كما يلاحظ الأثرى عند مقارنة طبيعة الأرض فى المنطقتين الشمالية والجنوبية للقلعة[1] .

ويختم الأستاذ كريزويل بحثه الأثرى للقلعة إلى أن إعادة إصلاح القلعة تم فى خمسة عهود .

---

(1) A brief Chronology of the Muhammedan Monuments of Egypt to AD. 1517. Prcfessor K. A. C. creswell, 1916, Page 69 — 74

١ — فى أيام السلطان برقوق على جركس الخليلى فى ربيع الثانى عام ٧٩١ هـ (مارس أبريل ١٣٨٩ م) .

٢ — فى أيام السلطان جقمق فى ذى القعـــدة عام ٨٥١ هـ (يناير وفبراير سنة ١٤٤٨) .

٣ — فى أيام السلطان قايتباى .

٤ — فى أيام السلطان طومان باى فى رمضان عام ٩٠٦ هـ (مارس و أبريل سنة ١٥٠١) .

٥ — فى أيام الخديوى إسماعيل فى رجب ١٢٨٥ هـ (أكتوبر ونوفمبر سنة ١٨٦٨) .

وجميع عمليات الإصلاح هذه مثبتة فى كتابات منقوشة على جدران القلعة وترى اليوم على الجدار الذى يقع إلى يمين المدخل الخارجى لباب المدرج . وقد كانت تلك الكتابات التاريخية مثبتة فى غير ذلك المكان ولا يعلم بالضبط أين كان بعضها . وقد ذكر الجبرتى أن والى مصر التركى إسماعيل باشا (١٦٩٩ — ١٧٠٤) قام بعمل عدة إصلاحات فى مبانى الزاوية الجنوبية الغربية (للقسم الجنوبى) كما شيد محمد على باشا الباب الجديد حوالى عام ١٨٢٥ كما شيد دار المحفوظات فى عام ١٢٤٤ هـ (١٨٢٨ — ١٨٢٩) وإلى جانب تجديداته شيد الكثير من المستشفيات التى ما زالت باقية إلى اليوم — وإلى محمد على يرجع بناء جزء من السور الذى يربط مسجد سيدى سارية بالطريق المؤدى إلى الباب الجديد — وإليه يرجع أيضا بناء المبانى العلوية لأسوار القلعة التى تحتوى على أمكنة المدافع ومزاغلها ذات الطابع العثمانى القديم .

النصوص المنقوشة على جدران القلعة

١ — لوحة الباب المدرج وهى من الرخام مقاسها حوالى ١٢٥ × ٦٩ سنتى مكتوبة بالنسخ الأيوبى وتشغل تسعة أسطر بتاريخها ٥٧٩ هجرية نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . . أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة القاهرة بالغرمة[1] التى جمعت نفعا وتحصينا وسعة على من التجىء إلى ظل ملكه وتحصينا مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محيى دولة أمير المؤمنين فى نظر أخيه وولى عهده الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد خليل أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش عبد الله الملكى الناصرى فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

ويوجد تحت هذه الكتابة داخل إطار مستدير قطره ٢٥ سنتى تقريبا سطران بالكوفى المزهر فى حروف متوسطة الحجم كتابة نصها : « الملك لله » .

٢ — لوحة تشغل جدران مدخل الباب المدرج ودركانه وباطن قبو المدخل مكتوبة بالنسخ لأيوبى تاريخها ٧١٣ هـ (السلطان محمد الناصر) نصها :

« اللهم أدم النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون أعز الله نصره (أنصاره) فاتح الأمصار ومبيد الكفار ، حامى حومة الدين » .

« عز لمولانا السلطان العالم العادل المجاهد المرابط السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن السلطان الملك المنصور أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره » .

٣ — لوحة رخامية مثبتة بأعلى الكتف على الجدار الغربى للقلعة أسفل دورة مياه مسجد محمد على وميدان العلم — فى ثلاثة أسطر مكتوبة بالنسخ الملوكى نصها :

---

(١) الغرمة — من المحتمل عرمة يقال عرمة تراب أى تل من التراب .

Van Beichem 81-85

« بسم الله الرحمن الرحيم . . أمر بإنشاء هـذا البرج المبارك السعيد مولانا وسيدنا السلطان المالك الملك الناصر الغازى فى سبيل الله الحاج إلى بيت الله الزائر قبر رسول الله حصن الدنيا والدين محمد بن مولانا السلطان الشهيد الملك منصور وبدؤه فى جمادى الأول . والفراغ فى شوال سنة ثلاث عشر وسبعمائة » .

٤ — لوحة السلطان برقوق مثبتة على بعد خمسين متراً جنوب باب العزب المطل على ميدان القلعة — مكتوبة بخط النسخ الملوكى تاريخها ٧٩١ هـ نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . . أمر بإنشاء هذا السور المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر أبو سعيد عز نصره وذلك على يد المقر الأشرف السيفى جركس الخليلى أمير أخور . الملكى الظاهرى بتاريخ شهر ربيع الآخر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة.

٥ — لوحة السلطان جقمق مثبتة بمدخل الباب المدرج — عبارة عن سبعة أسطر مكتوبة بخط النسخ الملوكى . تاريخها ٨٥١ هـ نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أمر بتجديد هذا المدرج بباب القلعة الشريفة سيدنا ومالك رقابنا الإمام الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محي العـــدل فى العالمين ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين سلطان العرب والعجم صاحب السيف والقلم والبند والعلم أفضل من حكم فى عصره بالحكم صاحب الديار المصرية والقلاع الشامية والثغور السكندرية السلطان الملك الظاهر أبو سعيد جقمق عز نصره بتاريخ . . . من ذى القعدة الحرام سنة إحدى وخمسين وثمانمائة .

٦ — لوحة السلطان قايتباى مثبتة بمدخل الباب المدرج . عبارة عن ستة أسطر مثبتة على يمين اللوحة السابقة . مكتوبة بخط النسخ المملوكى تاريخها « مشوه » نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أمر بتجديد هذه القلعة الشريفة السلطانية من فضل الله وعزته سيدنا ومولانا ومالك رقابنا سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محي العدل فى العالمين أبو الفقراء والمساكين ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين مولانا السلطان المالك

الملك الأشرف أبو النصر قايتباى أيد الله ملكه بمحمد وآله وصحبه (عشر كلمات ناقصة) .

٧ — لوحة السلطان طومان باى مثبتة تحت بضعة سنتيمترات من اللوحتين السابقتين أبعادها ١٥٠ × ٨٠ سنتى . حروفها أوضح من كتابة اللوحتين المذكورتين مكتوبة بخط النسخ المملوكى تاريخها ٩٠٦ ﻫ نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . أمر بتجديد هذه القلعة المباركة سيدنا ومولانا ومالك رقابنا السلطان المالك الملك العادل صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والقلاع السواحلية والأقطار الحجازية سلطان الأرض الحاكم طولها والعرض القائم بالسنة والفرض المجاهد المؤيد المنصور صاحب السيف والقلم والبند والعلم السلطان الملك العادل أبو النصر طومان باى عز نصره بتاريخ شهر رمضان سنة ست وتسعمائة » .

محمد على

٨ — فى القسم السفلى للقلعة وهو الذى تشغله بعض مخازن سلاح الأسلحة والمهمات يوجد بورش الخيامية التى يوصل منها إلى المسبك القديم وعلى بابه لوحة تذكارية من الرخام بها أبيات من الشعر باللغة التركية للشاعر خيرت وتاريخها ١٢٣٦ ﻫ .

٩ — الكتابة التركية المنقوشة على مقصورة محمد على .

١٠ — الكتابة التركية المنقوشة على باب الدفترخانة وتاريخها ١٢٤٤ ﻫ .

١١ — الكتابة التركية المنقوشة على باب القلعة القديم المواجه للدفترخانة وتاريخها ١٢٤٠ ﻫ .

١٢ — الكتابة التركية المنقوشة على باب الجناح الشرقى لقصر الحرم وقد ذكرناها فى الفصل الذى عقدناه القلعة فى عصر محمد على وتاريخها ١٢٤٢ ﻫ .

١٣ — الكتابة التركية المنقوشة على باب القلعة .

١٤ — الكتابة المنقوشة بالضربخانة .

لوحة الباب الداخلى — طغراء مكتوب بها — نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين يا محمد .

وحول الطغراء فى الأركان الأربعة :

أبو بكر — عمر — عثمان — على

وبأسفل الطغراء :

جدد هذا المكان المبارك الوزير الأعظم محمد على باشا[1] . . . مصر حالا وكان ذلك فى عام ١٢٢٧ هـ .

١٥ — لوحة الخديو إسماعيل من الرخام مثبتة على حائط السور قبلى باب الغرب بجانب وعلى يسار كتابة برقوق نفس المقاس مكتوبة بخط النسخ نصها :

« إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بإنشاء وتجديد هذا السور المبارك . خديوى مصر حالا إسماعيل بن الحاج إبراهيم بن الحاج محمد على فى تاريخ شهر رجب سنة خمسة وثمانين ومائتين وألف » .

١٦ — الكتابة المنقوشة على باب المنبر الرخامى فى مسجد محمد على تحمل اسم الملك السابق

١٧ — الكتابة العربية المنقوشة على التركيبة الرخامية على قبر محمد على وكذلك على شاهد القبر .

١٨ — الكتابة المدونة على قاعدة برج ساعة محمد على :

« فى عهد فاروق تم ترميم هذا البرج وأصلحت الساعة المهداة إلى محمد على من ملك فرنسا لويس فيليب عام ١٨٤٥ م (١٣٦٢ — ١٩٤٣)

١٩ — الكتابة المنقوشة على مدخل الباب الجديد .

٢٠ — الكتابة المنقوشة على أربع لوحات رخامية مثبتة حول قاعدة سارية العلم منها لوحتان دونت عليهما أسماء وقائع الجيش المصرى منذ أيام السلطان صلاح الدين إلى أيام محمد على

---

(١) يلاحظ أن كلمة والى غير موجودة فى النقش

تحصين القاهرة

١ — الأسوار الفاطمية :

كانت المدن فى أغلب أنحاء العالم فى الزمن الماضى تحصن بأسوار تقام حولها لصد هجمات المغيرين عليها ، ولهذا فإنه لما أنشأ القائد جوهر مدينة القاهرة حرص على أن يقيم حولها سوراً سميكا من اللبن وفتح فيه من الأبواب ما رآه ضروريا فى ذلك الزمان [١] .

وبعد انقضاء ١٢٠ سنة من تأسيس القاهرة رأى أمير الجيوش بدر الجمالى وكان يومئذ وزيراً للخليفة المستنصر أبى تميم معد — أن الناس بنوا خارج السور بسبب اتساع العمران ولا سيما فى الجهتين البحرية والقبلية من المدينة فأحاطها بسور وصله بسور جوهر القائد يمينا ويساراً وفتح فيه أبوابا أمام الأبواب القديمة لتكون عوضاً عنها .

ولما زاد العمران بعد ذلك واتسعت حدود المدينة أخذ صلاح الدين من سنة ٥٦٦ هـ وهو يومئذ وزير للخليفة العاضد عبد الله بن يوسف آخر الخلفاء الفاطميين فى بناء سور جديد بالحجر بدلا من أسوارها القديمة التى كانت مبنية باللبن لكى يشمل السور الجديد ما زاد على القاهرة فى غربها إلى النيل وفى جنوبها إلى مصر القديمة واستبقى أبواب بدر الجمالى لأنها كانت مبنية بالحجر .

السور الأول :

يستفاد مما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام على سور القاهرة [٢] أن القائد جوهر بدأ من عام ٣٥٩ هـ — ٩٧٠ م ببناء السور الذى أنشأه من اللبن على مناخه الذى نزل فيه هو وجنوده حيث القاهرة الآن ثم أداره على القصر والجامع وأدخل

---

(١) من مذكرات المؤرخ محمد بك رمزى ، وكتاب القاهرة للقائمقام عبد الرحمن زكى .
(٢) راجع الخطط المقريزية ج ١ ص ٣٧٧ .

فى دائرة سور القصر بئر المظام وجعل القاهرة حارات للواصلين صحبته وصحبة مولاه المعز ، ورتب فى القصر جميع ما يحتاج إليه الخلفاء .

ومن جهة تعيين موقع السور وحدوده ، فإنه يستفاد مما ذكره المقريزى عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وبابى زويلة القديمين وباب زويلة الحالى وباب البرقية وعلى جامع الحاكم وحارة بهاء الدين وعلى غير ذلك من المبانى التى أقيمت بين هذا السور وسور بدر الجمالى ، يستفاد من كل ذلك أن مدينة القاهرة القديمة التى أنشأها جوهر القائد كانت واقعة بين مبانى القاهرة الحالية وكانت محاطة بسور من جهاتها الأربع فى المنطقة التى تحد اليوم من الجهة البحرية بخط يبدأ على رأس حارة الوساية من جهتها الشرقية حيث كان يبدأ السور البحرى ثم يسير إلى الغرب حتى يتقابل بشارع باب النصر عند نقطة واقعة على مبعدة عشرين متراً إلى شمالى جامع الحاج محمود الحتو المعروف بجامع الشهداء ، حيث كان يقع فى تلك النقطة باب القدس الذى كان بداخل باب النصر . ومن هناك يسير السور إلى الغرب حتى يتقابل بشارع المعز لدين الله (شارع باب الفتوح سابقا) على رأس مدخل شارع بين السيارج حيث كان يقع فى تلك النقطة باب القوس الذى كان داخلا فى باب الفتوح ثم يمتد السور فى مكان الوجهة البحرية للمبانى الواقعة فى شارع بين السيارج إلى نهايته الغربية عند نقطة تجاه جامع حسن الزركشى وكان السور البحرى لمدينة جوهر ينتهى عند تلك النقطة .

وكان السور الغربى يبدأ من النقطة المذكورة ثم يسير متجها إلى الجنوب إلى أن يصل رأس شارع أمير الجيوش الجوانى حيث يقع باب القوس الذى كان بداخل باب القنطرة ثم يسير السور إلى الجنوب فى مكان الوجهة الغربية للمبانى الواقعة بشارع الشعرانى البرانى وشارع بين السورين وشارع بين النهدين إلى باب الخوخة على رأس شارع قبو الزينة ، ثم يمتد السور بعد ذلك بالوجهة الغربية لمبانى شارع جامع البنات إلى أن يلتقى برأس شارع الاستئناف الحالى حيث كانت خوخة الأمير حسين، ثم يسير السور جنوبا إلى حيث مبنى محكمة الاستئناف على مبعدة ٢٠ متراً جنوبى مدخل الاستئناف وعلى بعد عشرة أمتار فى شمالى الباب الغربى لمحكمة الاستئناف . وعند تلك النقطة كان يقع باب سعادة وهو آخر السور الغربى لمدينة جوهر .

وكان السور القبلى يبدأ من الكتف القبلى لباب سعادة ثم يسير إلى الشرق إلى شارع المنجلة من الجهة القبلية ثم يمتد إلى شارع المنجدين من الغرب وبين شارع المعز لدين الله (شارع المناخلية سابقا) من الشرق وكان يقع بابا زويلة القديمان اللذان أنشأهما جوهر بعضهما فى السور القبلى تجاه جامع سام بن نوح ، وفى الجامع المذكور يمتد السور القبلى حتى يصل إلى درب المحروق ، وإلى هذه النقطة ينتهى السور القبلى .

وكان السور الشرقى يبدأ من النقطة المبينة بالخريطة ثم يمتد إلى الشمال حيث موقع باب البرقية الأولى ، ثم يمتد من تلك النقطة إلى الشمال حتى يتلاقى بالسور البحرى عند النقطة التى يحدها اليوم برج الظفر .

هذه هى مواقع السور الذى أنشأه جوهر القائد حول مدينة القاهرة الأصلية . وليس لهذا السور أثر اليوم فى أية نقطة من جهاته الأربع التى كانت تحيط بالمدينة المذكورة حسب التحديد الذى ذكرناه .

السور الثانى :

٢ — سور بدر الجمالى

يستفاد مما أورده المقريزى فى خططه لدى الكلام عن أسوار القاهرة فى أيام الدولة الفاطمية [١] أن السور الثانى بناه أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٤٨٠ هـ — ١٠٨٧ م وزاد فيه من الشمال الزيادة التى بين بابى القوس اللذين أنشأهما جوهر القائد فى سور القاهرة البحرى وبين السور الحالى الذى فيه باب النصر وباب الفتوح الحاليين ، ثم أضاف فيه من الجهة الجنوبية الزيادة التى فيما بين بابى زويلة القديمين اللذين أنشأهما جوهر فى سور القاهرة القبلى وبين السور الذى فيه باب زويلة الحالى وجعل بدر الجمالى الأسوار التى أنشأها من اللبن وأقام الأبواب من حجارة .

هذا هو ملخص تاريخ بناء السور الثانى . وأما من جهة تعيين موقعه وحدوده

---

(١) الخطط المقريزية الجزء الأول ص ٣٧٩.

فإنه يستفاد مما قاله المقريزى ، عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة وعلى جامع الحاكم وعلى حارة بهاء الدين وعلى السور الثالث الآتى ذكره الذى أنشأه صلاح الدين يستفاد من كل ذلك أن الزيادة التى برز بها بدر الجمالى فى الجهة الشمالية من سور جوهر هى التى تحد اليوم من الشمال بالسور الحجرى الموجود الآن الذى يبدأ من النقطة الذى يشغلها اليوم برج الظفر ، ثم يسير إلى الغرب إلى أن يصل إلى باب النصر ثم إلى باب الفتوح وينتهى السور البحرى بحسب وضعه ورسمه المبين على الخريطة .

وتحد هذه الزيادة من الغرب بسور كان يمتد إلى الجنوب التى يبدأ منها السور الغربى لمدينة جوهر .

وتحد من الجنوب بسور جوهر المبين على الخريطة ، وتحد من الشرق بسور من اللبن كان يمتد من النقطة التى فى أول الحد الشمالى من الشرق ، ومنها يسير إلى الجنوب بشكله المتعرج المبين على الخريطة .

وأما الزيادة التى برز بها بدر الجمالى فى الجهة الجنوبية من سور جوهر فتحد اليوم من الشمال بسور جوهر المبين على الخريطة ، ومن الغرب بسور من اللبن . ثم يسير إلى الجنوب حيث كان موقع باب الفرج ، ويعاود سيره إلى الجنوب حتى ينتهى السور الغربى لهذه الزيادة عند موقع باب الخلق ، وتحد من الجنوب بسور من اللبن يسير إلى الشرق فى مكان الوجهة القبلية للمبانى القائمة بالجهة الشمالية من شارع تحت الربع إلى أن يصل إلى النقطة حيث يقع باب زويلة الحالى ، ثم يمتد السور إلى الشرق عند مدخل حارة الروم حيث كان موقع خوخة إيدغمش ثم يمضى من هذه النقطة إلى جهة الشرق فى مكان الوجهة القبلية المبانى الواقعة بجزء من شارع الدرب الأحمر ثم الواقعة فى حارة سعد الله ومنها تمتد إلى حيث ينتهى الحد القبلى عند البرج الذى يتتبعه القارىء على السور المبين على خريطة القاهرة الحالية . وتحد من الشرق بسور القاهرة الحالى المبين على الخريطة .

وأنشأ بدر الجمالى أسواره باللبن ما عدا الجزء الواقع بين بابى الفتح والنصر فهو بالحجر إلى اليوم . وكذلك الأجزاء الواقعة على جانبى البابين المذكورين وعلى جانبى باب زويلة فهى بالحجر على مسافة ١٢٠ متراً تقريباً من كل جانب ، وقد زال

أثر الأسوار التى أنشأها بدر الجمالى باللبن ، وأقام صلاح الدين فى مكانه بعض أجزاء منها أجزاء أخرى بالحجر فى سوره الثالث الذى سنتكلم عنه .

تحصين القاهرة

٣ — فى عهد السلطان صلاح الدين

قال ابن أبى طى : إنه فى سنة ٥٦٦ ﻫ (١١٧٠ م) شرع السلطان صلاح الدين فى عمارة سور القاهرة لأنه قد تهدم أكثره . وصار طريقا لا يرد داخلا ولا خارجا وولاه لوزيره بهاء الدين قراقوش[1] .

ويقابلنا نص آخر أكثر وضوحا لعماد الدين ، كاتب سر صلاح الدين ، وهو شاهد معاصر كانت وثائق الدولة فى متناول يديه . وقد جاء فيه :

«كان السلطان لما تملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منها سور لا يمنعهما فقال إن أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها . وإنى أرى أن أدير عليها سوراً واحداً من الشاطئ إلى الشاطئ وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم . فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج فى المقطم وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظم . ووجدت فى عهد السلطان بيت رفعه النواب (النائب عن السلطان) وتكمل فيه الحساب ومبلغه . وهو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة وذراعان (بذراع العمل وهو الذراع الهاشمى) . من ذلك ما بين قلعة القسم (المقس) على شاطئ النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع . ومن القلعة بالقسم (قلعة المقس) إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعاً . ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتان ذراع ودائر القلعة (من وراء القلعة) بحيال مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف

---

(١) تاريخ القلعة لكازانوفا — ص ٥٣٥ .

ومائتان وعشرة أذرع وذلك طول قوسه فى أبدانه وأبراجه من النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل وذلك بالذراع الهاشمى .

والمعروف أن الذراع الهاشمى يعادل ٦٥٢ من المتر .

وقد ذكر المؤرخ أبو شامه صاحب كتاب الروضتين ، عند ما أورد الكلام عن القلعة نص بن أبى طى فى الفصل الذى تأتى فيه الكلام عن حوادث عام٥٦٦هـ ثم أورد نص عماد الدين عن القلعة فى حوادث عام ٥٧٢ هـ .

ولم يفت المؤرخ المقريزى أن ينقل التاريخين بدون تعليق . ويرى الأستاذ كازانوفا أن صلاح الدين بدأ يفكر فى بناء السور عام ٥٦٦ هـ ، ثم عدل مشروعه عام ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) عقب حملته إلى الشام ، وهذا الرأى هو نفس ما ذهب إليه الأستاذ كريزويل . أى أن عمارة سور القاهرة الثالث لم تستهل إلا فى سنة ١١٧٦ م .

السور الثالث :

ابتدأ السلطان صلاح الدين عمارة السور الثالث للقاهرة سنة ٥٦٦ هـ وهو يومئذ وزير الخليفة العاضد لدين الله ، وفى عام ٥٦٩ هـ انتدب الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى لعمل السور فبناه بالحجارة على ما هو عليه الآن ، وأراد أن يجعل على القاهرة ومصر (مصر القديمة) والقلعة سوراً واحداً . فزاد فى سور القاهرة الجزء الممتد من باب القنطرة إلى باب الشعرية ، ومن باب الشعرية إلى باب البحر ، ومن قلعة المقس فى نهاية السور البحرى على النيل بجانب جامع المقس وانقطع السور من هناك . وكان أمله أن يمد السور من المقس إلى أن يتصل بسور مصر (مصر القديمة) ثم زاد فى سور القاهرة الجزء الذى يلى باب النصر إلى برج الظفر ، ومن هذا البرج إلى باب البرقية ومنه إلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل . فانقطع من مكان يقرب الآن من الصورة تحت القلعة .

وقد ذكر المقريزى أن طول السور المحيط فى أيامه بلغ ٢٩٣٠٢ ذراع (بذراع العمل) وهو الذراع الهاشمى .

شرع صلاح الدين فى سنة ٥٦٦ هـ فى بناء السور الغربى للقاهرة على الحافة الشرقية للخليج المصرى فى محاذاة سور بدر وسور جوهر وعلى مبعدة قليلة منهما إلى جهة الغرب، وأقام صلاح الدين فعلا قطعة من السور الغربى وهى الممتدة من النهاية الغربية لسور بدر الجمالى البحرى ومتجهة نحو الجنوب إلى باب القنطرة الذى أنشأه صلاح الدين فى السور الغربى المذكور تجاه باب القوس الذى كان يعرف بباب الرماحين .

رأى صلاح الدين أن يزيد فى سور المدينة البحرى ويمده إلى الغرب ، ثم يبنى سورها الغربى على النيل بدلا من الخليج ، وذلك لكى يدخل فى السور القسم الذى استجد خارج القاهرة فى الجهة الغربية منها ، بين الخليج والنيل ، ولكى ينفذ هذا المشروع أوقف بناء السور الغربى على الخليج بعد باب القنطرة .

وفى سنة ٥٦٩ هـ شرع بهاء الدين قراقوش فى مد السور البحرى من باب الشعرية إلى باب البحر بالمقس ، وأتمه فعلا ، وأراد أن يبنى السور الغربى للقاهرة على النيل من باب البحر إلى فم الخليج ، ليوصل سور القاهرة بسور مصر القديمة ، ولكن وفاة صلاح الدين حالت دون ذلك .

وقد اندثر أغلب سور صلاح الدين والباقى منه مبين على خريطة القاهرة الحالية فى الجهات الآتية :

(أولا) إن النقطة التى كان قد أنشأها صلاح الدين فى السور الغربى من السور البحرى إلى باب القنطرة فى محاذاة الخليج ، هذه القطعة هدم أغلبها ولم يبق منها إلى وقتنا هذا سوى قطعة طولها ١٢٠ متراً كانت ممتدة من النهاية الغربية للسور البحرى ثم تسير جنوبا فى محاذاة حارة المنسطاحى . فلما فتح شارع الجيش هدمت هذه القطعة فى سنة ١٩٣٠ ودخلت أرضها فى امتداد الشارع المذكور ولم يبق منها إلا جزء صغير طوله نحو عشرة أمتار ولم تزل إدارة حفظ الآثار العربية محتفظة بهذا الجزء للإرشاد إلى موقع السور القديم .

(ثانياً) إن السور البحرى الذى كان ممتداً بين باب الشعرية الذى يعرف الآن بباب العدوى وبين باب البحر الذى يعرف الآن بباب الحديد بميدان باب الحديد

وكان قائماً إلى زمن دخول الفرنسيين مصر سنة ١٧٩٨ م وبعد ذلك اعتدى الأهالى على هذا السور فهدموا معظمه ولم يتبق منه سوى بعض أجزاء لا تزال قائمة بلصق المساكن ومبينة على خريطة القاهرة الحالية مقطعة من الشرق إلى الغرب إلى قطع من السور ممتدة بين المساكن الواقعة فى المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بسكة الفجالة وشارع الفجالة ومن الجنوب بشوارع بين الحارات والشمبكى والطبالة. ومن الشرق بميدان العدوى ، وفى هذا الميدان كان موقع باب الشعرية ويليه إلى جهات الغرب الأجزاء الباقية من السور المذكور .

(ثالثاً) السور البحرى الذى فيه باب الفتوح وباب النصر سبق أن تكلمنا عنه فى السور الثانى . وفى أيام صلاح الدين تجدد بناء بعض الأجزاء بالحجر بدل اللبن كما يشاهد إلى اليوم فى السور البحرى .

ولما فتح شارع الجيش أخذ فى طريقه جزءاً صغيراً فى سنة ١٩٣٠ م وبذلك أصبح السور البحرى ينتهى من الغرب بشارع الجيش على رأس شارع درب البزازة وقد ثبت على طرف السور عند تلك النقطة المشرفة على شارع الجيش لوحة من الرخام مكتوب عليها بالنقش هـــدم جزء من السور لفتح الشارع المذكور فى سنة ١٩٣٠ م .

وابتدأ السور البحرى فى أيام صلاح الدين إلى جهة الشرق حيث موقع برج الظفر ولا يزال يوجد من هذه الزيادة جزء من سور القسم الشرقى المجاور لبرج الظفر .

(رابعاً) أما السور الشرقى لمدينة القاهرة فلا يزال يوجد منه بعض أجزاء قائمة إلى اليوم ، منها الجزء الذى يمتد من برج الظفر يتجه جنوبا بطول ٤٠٠ متر وبناؤه متخرب ، وتتولى إدارة حفظ الآثار العربية الآن ترميمه وإصلاحه ، وفى هذا الجزء يقع الباب الجديد ، أحد أبواب القاهرة القديمة . ومن السور المذكور الجزء الذى يبدأ من برج درب المحروق ويسير إلى الجنوب بطول ٧٦٠ متراً إلى أن ينقطع خلف زاوية الشيخ مرشد بشارع باب الوزير . وهذا الجزء هو أطول الأجزاء القائمة من السور الشرقى وحائطه أغلبه سليم إلى اليوم ، ومنه جزء آخر يمتد إلى الجنوب بين الخانقة النظامية (جامع النظامى وقد خرب) وبين بقايا جامع السبع

سلاطين (خرب) وطول هذا الجزء ١٢٥ متراً ، ويتصل من نهايته الجنوبية بسور القلعة .

وأما الباقى من السور الشرقى ، وهو الجزء الذى يمتد من قلعة الجبل إلى سور مدينة مصر فإنه لما تكلم المقريزى عن السور الثالث (ج ١ ص ٣٧٩) قال إن صلاح الدين لم يتهيأ له أن يصل سور قلعة الجبل بسور مدينة مصر وهذا دليل على بناء السور فى الفترة المذكورة .

وباب القنطرة هذا هو غير باب القنطرة الذى يسمى خطأ باسم باب الشعرية بالقاهرة .

ولما كان صلاح الدين قد عنى بصفة خاصة ببناء السور الشرقى للقاهرة من برج الظفر إلى القلعة كما عنى أيضاً ببناء سور مدينة مصر ، فإنى أرجح الرأى الذى ذكره المقريزى فيما يختص بمد السور من قلعة الجبل إلى باب القنطرة ، أى إلى مدينة مصر يؤيد ذلك وجود الحائط (العيون) التى كان يجرى من فوقها الماء فى المسافة من باب القرافة إلى سور مدينة مصر ، وكان هذا الحائط قبل ذلك من سور القاهرة . ثم بنى فوقها قناة لنقل الماء ، من النيل إلى قلعة الجبل .

ويتبدى مما ذكر أن تكملة السور الشرقى للقاهرة فى المسافة ما بين قلعة الجبل وسور مدينة مصر لا يزال يوجد من آثاره حائط المجرى (العيون) القائمة إلى اليوم من باب القرافة بالقاهرة إلى نقط تلاقيها بحائط العيون الممتدة إلى مصر القديمة عند الزاوية القبلية الشرقية فى جبانة السيدة نفيسة الجديدة .

ويرى القارىء مما ذكرناه نقلا عن القلقشندى أنه قال : إن السور الذى أنشأه صلاح الدين ما بين باب البحر والكوم الأحمر برأس منشأة المهرانى التى عند فم الخليج قد سقط . وبالبحث تبين لنا أن هذا السور كان صلاح الدين عازما على إقامته على شاطىء النيل غربى القاهرة من ميدان باب الحديد إلى فم الخليج المصرى ، ولكنه لم ينشأ بدليل ماذكره المقريزى : وهو أن صلاح الدين زاد فى سور القاهرة القطعة التى من باب الشعرية إلى باب البحر وبين قلعة المقس فى نهاية السور البحرى على النيل بجانب المقس وانقطع من هناك ، وكان أمله أن يمد السور

من المقس إلى أن يتصل بسور مصر القديمة من جهة فم الخليج ولكن هذا الأمل لم يتحقق لوفاة صلاح الدين رحمه الله[1] .

سور صلاح الدين ومجارى المياه القديمة

تعددت الأقوال وتكاثرت الكتابات عن مجارى المياه التى كانت تجلب المياه لعاصمة الديار المصرية ، من الفتح الإسلامى إلى عهد محمد على ، بل وإلى أوائل عصر الخديو إسماعيل وخلط كثير من الكتاب بين مجارى المياه والأسوار ، حتى إن مجرى العيون التى كانت توصل مياه النيل إلى قلعة الجبل اصطلح على تسميتها إلى عهد قريب ، لدى العامة وفى المكاتبات الرسمية ، بجرى صلاح الدين .

وفى العهد القريب ، من سنة ١٩١٢ إلى سنة ١٩١٩ ، وفق المرحوم على بك بهجت ، مدير دار الآثار العربية ، إلى كشف جزء من سور صلاح الدين يحد ما كشفه من أطلال مدينة الفسطاط من الجهة الجنوبية الشرقية ، فأزاح الغموض عن كثير من الالتباسات التى وقع فيها كثير من المؤرخين السابقين ، الذين لم يبين لنا أحد منهم موقعه بالضبط . ولكن المنية عاجلته فلم يتمكن من كشف بقية السور إلى قلعة الجبل . وقد اكتفى قبل إخراج مؤلفه عن حفريات الفسطاط بعمل مجسات بسيطة على امتداد الجزء المكتشف إلى أن بلغ مجرى العيون .

وعندما تولى إدارة دار الآثار للعربية الأستاذ المسيو جاستون فييت اقترح المرحوم الأستاذ حسن الهوارى ، أحد الأمناء ، الاسترسال فى كشف السور من المنطقة التى تركها بهجت بك متجهين إلى الجهة البحرية حيث قلعة الجبل فوافق مسيو جاستون على هذه الفكرة .

وبدأ العمل بطريقة فنية وتوالى الحفر بعناية زائدة فوق موقع السور من آخر جهة يلوح فيها . وكان العمال يحفرون حتى يبلغوا الصخر ، لأن المنطقة التى بها أطلال الفسطاط وسور صلاح الدين صخرية . فإذا ما بلغ العمال الصخر توقفوا عن العمل

---

(١) راجع هامش الجزء ٦ ص ١٧٦ و ١٧٧ من كتاب النجوم الزاهرة ، المرحوم محمد رمزى بك

ووجهوا جهدهم إلى تنظيف السور وعمل صندوق أمامه ونقل هذه الأتربة إلى الجهة الأمامية الشرقية وتنظيمها بشكل جسر يصلح لأن تمر عليه العربات والسيارات ، وفى الجهة الداخلية (الغربية) يواصل العمال فى الكشف عما عساه يوجد من دور الفسطاط .

ولم يكن هناك داع للكشف عن السور بطريقة أخرى غير هذه كرفع الأتربة طبقة فطبقة وكشف ما عساه يوجد فى كل طبقة على حدة ، فالمنطقة التى بها السور تكاد تكون على منسوب واحـــد ، وعثر العمال على السور بعد الحفر لعمق متر أو مترين على الأكثر وأحيانا أقل من المتر ، فلا توجد هناك طبقات تستدعى استخدام النظريات الأركيولوجية العويصة .

وقد كان من نتائج هـذا الحفر المنظم أن كشف الأستاذ جزءاً من السور يبلغ طوله ٨٤١,٣٥ متراً كشفت كلها كشفا تاما فظهرت فيه انحناءات لم يكن فى الوسع قبل الآن معرفتها كما ظهرت عدة دعامات ذات أشكال نصف دائرية لتقوية السور على أبعاد متقاربة البعد .

وفيما يلى بيان تفصيلى لما كشفه بهجت بك ، وما وفق الأستاذ الهوارى إلى كشفه :

ما كشفه بهجت بك

متر	بيان
٢٥,٠٠	جزء مستقيم من السور من أوله (الجهة القبلية) .
١٧,٠٠	» » » » مجرى السابق .
٦,٠٠	دعامة .
٥,٠٠	باب .
٧,٠٠	دعامة .
٣٨,٠٠	جزء مستقيم من السور .
٤٦,٠٠	» » » »
٨,٠٠	دعامة .
٧٠,٠٠	جزء مستقيم من السور .

متر	بيان
١٣,٠٠	جزء مستقيم من السور .
٧,٠٠	دعامة .
٧٣,٠٠	جزء مستقيم من السور .
١١,٠٠	كسرية .
٣١,٠٠	جزء مستقيم من السور .
٣٥٧,٠٠	جملة ما كشفه بهجت بك .

ما كشف بعد وفاة بهجت بك

متر		بيان
٣٥,٠٠ ١٥,٠٠ ٧٢,٠٠	١٢٢	جزء من السور مركب من ثلاثة خطوط مستقيمة .
	٥,٠٠	الدعامة رقم (١)
٢٠,٠٠ ٥٥,٠٠	٧٥,٠٠	جزء من السور مركب من خطين مستقيمين محصور بين الدعامتين رقم (١ و ١) .
	٦,٠٠	الدعامة رقم (١)
٣٠,٠٠ ٤٠,٠٠	٧٠,٠٠	جزء من السور مركب من خطين مستقيمين محصور بين الدعامتين رقم (٢ و ٣) ؛
	٦,٠٠	الدعامة رقم (٣)
٤١,٠٠ ٢٠,٠٠ ١٩,٠٠	٨٠,٠٠	جزء من السور مركب من ثلاثة خطوط مستقيمة محصور بين الدعامتين (٣ و ٤)
	٧,٠٠	الدعامة رقم (٤)
١٥,٠٠ ٣٨,٠٠ ٢٥,٠٠	٦٨,٠٠	جزء من السور مركب من ثلاثة خطوط مستقيمة محصور بين الدعامتين (٤ و ٥) .

متر		بيان
	٦ر٠٠	الدعامة رقم (٥)
	٦٣ر٣٠	جزء من السور عبارة عن خط مستقيم محصور بين الدعامتين (٥ و ٦)
	٦ر٠٠	الدعامة رقم (٦)
١٩ر٢٥ ١٦ر٠٠ ٢٤ر٠٠	٥٩ر٢٥	جزء من السور عبارة عن ثلاثة خطوط مستقيمة محصور بين الدعامتين (٦ و ٧)
	٧ر٠٠	الدعامة رقم (٧)
	٦٢ر٥٠	جزء من السور عبارة عن خط مستقيم محصور بين الدعامتين (٧ و ٨)
	٩ر٣٠	الدعامة رقم (٨)
	٦٥ر٥٠	جزء من السور عبارة عن خط مستقيم محصور بين الدعامتين (٨ و ٩)
	٦ر٠٠	الدعامة رقم (٩)
٤٠ر٠٠ ٢٣ر٥٠	٦٣ر٥٠	جزء من السور عبارة عن خطين مستقيمين محصور بين الدعامتين (٩ و ١٠)
	٦ر٩٠	الدعامة رقم (١٠)
	٤٦ر٠٠	جزء مستقيم من السور .
	٨٤١ر٢٥	

وتكون جملة المكتشف من السور ٣٥٧ر٠٠ + ٨٤١ر٥٥ = ١١٩٨ر٢٥ مترا .

ومما يذكر أن بهجت بك كان يرغب أن يدرس سور صلاح الدين على حدة فى بحث خاص ، كما يستدل على ذلك من كلامه من كتاب حفريات الفسطاط حيث قال فى آخر باب من أبواب هذا الكتاب ما نصه :

« وإن أعمال الحفر أظهرت أجزاء من هذا السور (سور صلاح الدين)

مما كان أعد لحماية الفسطاط من الجهة الشرقية ، وسنبين فيما بعد الظروف التى وضع فيها هذا المشروع وكيف نفذ ، وندرس تفاصيل بنائه ، . إلا أن المنية عاجلته فلم يستطع تحقيق أمنيته .

والآن وقد ظهر من السور جزء كاف يمكننا من تحديد أبعاده على وجه كاف من الدقة لأن ما ظهر بجوار أطلال الفسطاط بين لنا زاويته القبلية الشرقية وزاويته البحرية الشرقية محدودة ببرج الظفر والجدار الغربى كان محاذيا لمجرى النيل فى عهد صلاح الدين .

كان كازانوفا ، الأثرى المعروف ، قد تسنى له فى سنة ١٨٩١ عندما كتب عن (تاريخ قلعة القاهرة ووصفها) بوساطة النصوص التى أوردها المقريزى من تعيين تخطيط هذا السور تعيينا افتراضيا وقد حققت الحفريات ظنونه ، وقد صرنا الآن فى مركز أحسن بكثير نظراً لكثرة الأجزاء التى كشفت من هذا السور .

فعلاوة على الجزء الذى كشفته دار الآثار العربية فى عهد المسيوفييت فإن هناك أجزاء أخرى أظهرها الكشف عن سطح الحاجز الجارى تحت إشراف الدار أيضا وهذه الأجزاء واقعة من الجهة القبلية من أطلال الفسطاط ، وهى على صغر أطوالها هامة لأنها تبين ميل السور فى هذه الجهة واتجاهه نحو شاطئ النيل .

وإلى شمالى القلعة وفى الجهة الشرقية . تم كشف جزء عظيم على امتداد الجناح الشرقى لبرج الظفر بفضل الأستاذ كريسويل .

وفضلا عن سور السلطان صلاح الدين فقد ظهر جزء عظيم من سور القائد بدر الدين الجمالى فى الجهة البحرية من القاهرة الفاطمية ، بين باب الفتوح والخليج المصرى . وقد هدمت منه مصلحة التنظيم الجزء الذى اعترض شارع الجيش وهذا الجزء من السور كان فى حالة حسنة على عهد صلاح الدين ، وكان لا يزال هو الحد البحرى لمدينة القاهرة ، ولم تمتد المدينة إلى الجهة الشمالية بل اكتفت بالأرض الفضاء الغربية التى تخلفت عن انحراف مجرى النيل مما كان سبباً لاستبقاء سور بدر الجمالى

حدا بحريا ومده فقط من الجهة الشرقية إلى برج الظفر ومن الجهة الغربية إلى شاطئ النيل الجديد .

وقد ظهر فى أوائل القرن العشرين بابان من أبواب سور القاهرة الذى بناه بدر الجمالى أولهما باب القنطرة وقد أصلحت لجنة الآثار برجيه وعملت حوله خندقا ، ولكنها عادت وردمته لأنه كان معيقاً لحركة المرور ، ومن جهة أخرى فقد أخذ العامة يلقون أتربتهم وأوساخهم فى الخندق مما جعل منظره قذراً واستدعى ردمه ، والثانى باب البرقية وهو واقع على الشارع المعروف بشارع قطع المرأة الموصل إلى قرافة المجاورين وقد ردمته مصلحة التنظيم أيضاً من أجل إصلاح الشارع .

على أن هذين البابين لا أهمية لهما فى خص سور صلاح الدين لأنهما ليسا منه ، بل من سور بدر الدين الجمالى ولم يستعملهما صلاح الدين .

وهناك نقطة أخرى حققها بهجت بك ، وهى أن الجزء الشرقى من مجرى العيون ابتداء من التقاء هذه المجرى بسور صلاح الدين مشيد على بقايا سور صلاح الدين .

ولكن الآن قد أصبح لدينا عدة نقاط من سور صلاح الدين تحدد على وجه قريب جداً من الدقة موقعه الأصلى وتبين مقدار طوله .

١ — جزآن صغيران من السور واقعان بين المحاجر فى الجهة القبلية من أطلال الفسطاط .

٢ — الجزء الذى يحد أطلال الفسطاط من الجهة الشرقية وجملة طوله ١١٩٨,٢٥ متراً منها ٣٥٧ متراً كشفها بهجت بك و ٨٤١,٢٥ متراً كشفها الهوارى وبه باب واثنتا عشرة دعامة (لم يكن مكشوفا منه عندما كتب الكابتن كريسويل وصفه الوجيز إلا ٣٥٧ متراً) .

٣ — جزء ضائع هدمه عمال المحاجر ولم يتبق منه شىء مطلقاً يبلغ طوله وكان على امتداد الجزء السابق إلى الشمال .

٤ — جزء لم يكشف بأجمعه ولكن بهجت بك عين فيه عدة نقاط بمجسات عملها على امتداد الجزء المكشوف .

٥ — جزء من السور أقيم فوقه جزء طويل من مجرى العيون وهو المجاور لقلعة الجبل .

٦ — جزء كبير من السور مشيد فوقه عدة مساكن من قرب باب الوزير إلى قرب الدراسة .

٧ — النهاية البحرية من الجانب الشرقى للسور وتنتهى ببرج الظفر .

٨ — جزء يبدأ من برج الظفر متجها إلى الجهة الغربية حيث يختفى السور تحت الأتربة .

٩ — جزء يبتدئ من نقطة اختفائه تحت الأتربة إلى باب النصر .

١٠ — من باب النصر إلى برج سلم باب الفتوح وطوله ٢٥٨ متراً و٦٩ سنتيمترا .

١١ — من باب الفتوح إلى شارع الجيش .

١٢ — عرض شارع الجيش .

١٣ — من الضفة الغربية لشارع الجيش إلى جامع أولاد عنان وهذا الجامع فى موضع جامع القس الذى كان مشرفا على النيل وبه عدة أجزاء بين المساكن مرسومة فى خريطة القاهرة (١ : ٥٠٠٠) ذكرها الأستاذ كريزويل

١٤ — الجزء المحاذى للنيل من جامع القس إلى فم الخليج .

فإذا جمعنا هذه الأربعة عشر جزءاً بعضها إلى بعض ألفينا أن طول سور صلاح الدين كان ٢٥٠٠ متراً تقريباً به جزء صغير فى الجهة البحرية من سور بدر الدين الجمالى وهى من الخليج المصرى إلى شرق باب النصر [١] .

---

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : الجزء ٦ ص ١٧٦ و ١٧٧ .

وراجع

A Brief Chronology of the Muhammadan Monuments of Egypt to A. D. 1517. professor K. A. C. Creswell.

أبو سعيد قراقوش عبد الله الأسدى الملقب ببهاء الدين

مشيد القلعة

لا تكاد مصادر التاريخ تذكر شيئاً واضحاً عن نشأة قراقوش . إذ كل ما يعرف عن نشأته أنه فتى رومى خصى ، ولد ببلاد آسيا الصغرى ، وكبر بها ثم اتصل بأسد الدين شيركوه ، وكان هذا الضابط يعمل هو وأخوه نجم الدين أيوب فى خدمة ملك عظيم من آل زنكى ، هو عماد الدين المعروف بالشهيد ، ثم مات هذا الملك ، وخلفه على حكم الشام ولده نور الدين محمود ، فقرب هذين الضابطين الأخويين ، وانتفع بهما انتفاعا عظيما .

وفى دمشق تسمى الفتى الخصى باسم بهاء الدين عبد الله الأسدى ..فأما تسميته بابن عبد الله . فكناية عن أنه لا يعرف له أب مسلم . وأما وصفه بالأسدى فنسبة إلى أسد الدين شيركوه ، ولعله اشترى هذا الفتى بماله وتملكه ثم أعتقه ، أو لعله نسبه لنفسه لأن الفتى أسلم على يده . والولاء كان فى العرف بطرق ، من أهمها هاتان الطريقتان ، وكثيراً ما يكون بهما معاً . ثم لما مات أسد الدين ، واتصل الفتى بخدمة ابن أخيه صلاح الدين ، صار يدعى بهاء الدين بن عبد الله الأسدى الناصرى .

والظاهر أن رجال الجيش فى دمشق كانوا قد أنسوا من هذا الفتى الرومى رشدا ووجدوا فى أخلاقه ميلا إلى الشدة والصلابة ، والقدرة على مواصلة العمل فأدنوه منهم ومنحوه الرتب العسكرية التى شجعته على خدمتهم ، وضربوا به المثل فى الصبر والجلد والمثابرة ، فما لبث بهاء الدين قراقوش أن أصبح أميرا من أمراء الجيش ، الذى كان يرأسه أسد الدين شيركوه ، وهو الجيش الذى دخل مصر يوم دعى نور الدين إلى التدخل فى شئونها ، وإلى تهدئة الأحوال بها ، ثم إلى ضمها جملة إلى التاج الأتابكى ، فذهب إليها أسد الدين ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، وبصحبتهما ذلك الفتى الرومى ، الذى شهد بعينه انهيار الدولة الفاطمية ، وقيام الدولة الأيوبية .

---

(١) قراقوش ومعناها بالتركية الطائر الأسود — ابن خلكان (الجزء الأول — ص ٥٤٣)

قراقوش فى حراسة القصر الفاطمى

وفى عام ٥٦٤ هجرية اضطرب رجال القصر الفاطمى ، وعمهم الذعر والفزع ، وسعى بينهم من حذرهم عاقبة الوزارة الجديدة ، وهى وزارة صلاح الدين .

ومن أجل ذلك دبرت المؤامرات فى داخل القصر وخارجه ، وأخذت هذه المؤامرات تظهر واحدة فواحدة ، وكانت أولاها مؤامرة داخل القصر الفاطمى ، دبرها خصى أسود اسمه «المؤتمن» ، أراد بها إسقاط صلاح الدين والقضاء على جنده وعلى من أتوا معه من أهله وعشيرته . وكاد النجاح يكتب لهذه المؤامرة لولا سيف الملك شمس الدولة بن أيوب وهو الأخ الأكبر لصلاح الدين

فى هذه الآونة فكر المؤتمن ورجاله أن يملئوا أيديهم من ذخائر القصر الفاطمى التى توشك أن تضيع منهم إلى الأبد ، وكان من أغراضهم فى ذلك أن يستعينوا ببعض ثمنها على تشجيع الجند ، وتوفير المال اللازم لرجال المؤامرة .

عرف ذلك صلاح الدين ، فلم يمض وقت طويل حتى هداه تفكيره إلى بهاء الدين قراقوش ، لجعله متولى القصر الفاطمى ، يحرسه ويصون ذخائره ، على كثرتها ودقتها وسهولة حملها وإمكان إخفائها .

ثم مات الخليفة الفاطمى . وكان صلاح الدين قد انتهى من قطع اسمه من الخطبة وذكر اسم الخليفة العباسى بدلا منه فريع من بالقصر . وتولاهم الخوف والفزع . فدعا السلطان الملك الناصر صلاح الدين صديقه بهاء الدين قراقوش . وزوده بالأوامر لمواجهة الحالة الجديدة . منها أن تزداد عنايته بالقصر . فلا يخرج منه شىء أو يدخل فيه شىء إلا بإذنه . ومنها أن يضاعف الحيطة من أهل الخليفة وذوى قرابته ، وأن يخرجهم من القصر إلى مكان عينه له ، ترسل إليهم فيه كسوتهم وأزوادهم فنقلوا إلى (دار برجوان) ، وهى دار كبيرة واسعة بالحارة المسماة بهذا الاسم من حارات القاهرة ، ومن تلك الأوامر التى تلقاها الأمير بهاء الدين قراقوش أن يعزل الرجال فى القصر عن النساء لئلا يتناسلوا ويكثروا ويمتد ظلهم . فيساعد ذلك على أن يعيدوا الدولة الفاطمية .

فعاد الأمير إلى القصر ، وفتح عينيه يومئذ على كنوزه ، فن ملابس وجواهر إلى قلائد ودرر ، إلى ياقوت وزمرد إلى مصوغات ذهبية وأوان فضية ، ومنسوجات مغربية ، و « صوان صينية » وأخرى منقوشة بالميناء ، ومن قطع ثمينة من الخزف ، إلى تماثيل عظيمة من البلور ، على هيئة الوحش أو الطير ، إلى حلل وثياب ، إلى طيب وطرائف ، إلى عقود من الزبرجد والجوهر ، الذى لا نظير له فى العالم كله ، إلى تحف مصنوعة من خشب الصندل والعود والأبنوس ، إلى بسط خيطت بالذهب والفضة ، إلى ستائر وأغطية من الديباج ، وقد نسجت فيها الرسوم الفاخرة ، عدا الأسلحة والسروج ، والخيم والبنود وأما العرش الفاطمى نفسه فكان مرصعاً بالدر والجوهر ، وكانت عتباته مغطاة بالذهب الخالص .

أما خزانة الكتب فقد ذهب المؤرخون أيضاً إلى أنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام أعظم منها ، فقد كانت بالقصر مكتبة مفهرسة ، فقيل يوما للأمير بهاء الدين قراقوش : إن هذه الكتب قد عاث فيها العث ولا بد من تهويتها وإخراجها من الرفوف إلى أرض الخزانة . وكان قراقوش لا خبرة له بالكتب ، ولا دراية له بأسفار الأدب ، فأخرجها ، ثم ظهر أن هذا الطلب إنما كان حيلة مدبرة من تجار الكتب ، يريدون بها تفريقها وخلط أنواعها ، فتم ذلك ، واختلطت كتب الأدب بكتب النجوم وكتب الشرع بكتب المنطق ، وكتب الطب بكتب الهندسة ، والكتب المجهولة بالكتب المشهورة .

وكان فى خزانة الكتب مؤلفات يشتمل كل كتاب منها على خمسين أو ستين جزءاً مجلداً إذا فقد منها جزء لا يخلف أبداً ، ففرق الدلالون هذه الأجزاء ، لتقل قيمة الكتب وتباع بأبخس الأثمان ، هذا مع أنهم كانوا يعرفون مواضع أجزائها ويستطيعون جمع شملها بعد شرائها .

وكان الأمير قد استأذن مولاه صلاح الدين فى بيع هذه الكتب الهائلة ، فأذن له السلطان فى بيعها ، ولم يظهر حرصه عليها ، لما زعم يومئذ من اشتمال أكثرها على كتب فى عقائد الشيعة الفاسدة وآرائهم الدينية المتطرفة ، وهو إنما أتى إلى مصر لأغراض من أهمها محاربة هذه العقائد والآراء حتى لا يبقى فى مصر من يميل إليها، أو يأبه لها .

فعمل الأمير بأمر مولاه فى الكتب ، كما عمل بأمره فى غير الكتب وجعل لبيعها فى القصر يومين من كل أسبوع ، واستمر البيع فيها وفى ذخائر القصر مدة طويلة .

وكذلك نجح الأمير قراقوش فى القيام بمهمته ، فحافظ كل المحافظة على نفائس القصور وذخائرها ، وبذل عنايته فى صونها ، وكان أمينا كل الأمانة فى بيعها . وجمع المال الحاصل من ثمنها ، وإذا صح أنه غلب على أمره فى شىء من ذلك كله ، فهو «خزانة الكتب» وله فى ذلك عذران واضحان : أولهما جهله بقيمة هذه الكتب ، وثانيهما خوف صلاح الدين من هذه المكتبة وإساءته الظن بها إساءة جعلته لا يهمه من أمرها أكثر من جمع المال الحاصل من بيعها .

فاحتال فى اقتناء هذه المكتبة ، وفى انتهاز هذه الفرصة النادرة ، كثيرون من التجار وأهل الأدب ، وكان نصيب القاضى الفاضل منها نصيب الأسد ، فقيل إنه ظفر يومئذ بألوف من الكتب ، أسس بها مدرسة فخمة سماها باسمه ، وخدم بها مذهب السنة ، الذى انهارت بسببه دولة ، وقامت له دولة ، وأتى صلاح الدين كما قلنا للنشر والقضاء على جميع المذاهب التى كانت تناقضه .

قراقوش منشئ الأعمال الحربية

احتاج السلطان صلاح الدين إلى منشآت حربية ومدنية كان من أهمها إذ ذاك إقامة الجسور ، وتطهير الترع ، وتشييد القلاع والأسوار المحيطة بالبلاد ، لتقيها شر الغارات التى تأتى إليها من جانب الفرنج تارة ، والشيعة المنبثين فى بقاع كثيرة من العالم الإسلامى تارة أخرى .

ولعل أول ما أقام الأمير من ذلك قلعة الجبل ، بناها على قطعة مرتفعة تنفصل من جبل المقطم وتشرف منها على القاهرة كلها . ولم يقم فيها السلطان صلاح الدين . وبعد موته سكن القلعة من بعده ابنه العزيز ، ثم فى عهد الملك الكامل من ملوك بنى أيوب ، تم بناء هذه القلعة العظيمة ، واتخذت منذ ذلك اليوم مقرا للحكومة ، واستمر الحال على ذلك إلى أيام محمد على . ثم لم يكن إلا فى عهد إسماعيل أن انتقلت دواوين الحكومة إلى دور أخرى وسط مدينة القاهرة . غير أنه ما كاد الأمير قراقوش

يفرغ من بناء قلعة الجبل حتى اشتغل فى بناء قلعة أخرى يقال لها قلعة المقس وهى برج كبير بناه الأمير على النيل . وبنى بالقرب منه أبراجا أخرى على النمط الإفرنجى لا النمط البيزنطى ، وسبب ذلك فيما يظهر أن صلاح الدين اختلط فى أثناء الحروب الصليبية بالفرنج المقيمين بالشرق فى أثناء هذه الحروب وعرف كيف يبنون قلاعهم وحصونهم ، ووازن بينها وبين حصون الفاطميين وقلاعهم فظهر له أن حصون الفرنج أصلح من الوجهة الحربية . ثم ما كاد الأمير يستريح أيضاً من بناء هذه الأبراج والحصون ، حتى شغل نفسه بإقامة سور عظيم حول مصر والقاهرة ، قطع الحجارة له من الأهرام الصغيرة وبناه تجاه الجيزة على مسافة بعيدة منها .

أقبل الأمير قراقوش على بناء السور وبنى فيه جامعاً ، وحفر فى القلعة بئراً . وكانت هذه البئر من عجائب الأبنية . يدور البقر من أعلاها ، وينقل الماء من وسطها ، وتدور أبقار أخرى فى وسطها فينقل الماء من أسفلها وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء ، وقيل إن أرض هذه البئر مسامتة لأرض بركة الفيل ، وإن ماءها كان عذبا فى أول الأمر ، ثم أراد قراقوش الزيادة فى مائها فوسعها فخرجت منها عين مالحة غيرت حلاوتها .

وكان هذا السور الذى بناه قراقوش هو ثالث الأسوار التى أحاطت بالقاهرة إلى عهده ، أما الأول فكان قد بناه جوهر الصقلى . وأما الثانى فكان قد بناه الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى الفاطمى ، وكان هذان السوران الأولان قد بنيا من اللبن . أما الثالث فقد بناه الأمير قراقوش من الحجارة ووقف عند قلعة المقسى ، لم يستطع أن يصلها بمصر .

بذلك أصبحت لقراقوش خبرة بمثل هذه الأعمال الحربية الجليلة ، وكان السلطان كلما احتاج إلى عمارة قلعة ، أو تجديد حصن ، أو تقوية جسر أو إقامة سور ، أو بناء برج . عهد إليه فى هذا العمل ، فقام به على خير طريقة .

ولعل آخر ما قام به من ذلك عمارته لسور عكا سنة ٥٨٥ هـ ، وذلك فى أثناء المحنة التى مرت به وبالمسلمين .

قراقوش وابن مماتى

تلك صفحة الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى ، وتلك أعماله الجيدة وبلاؤه الحسن فى خدمة الدولة الأيوبية ، لم نذكرها كلها ، وإنما ألممنا بالمهم منها من جهة وما اتفق عليه المؤرخون جميعاً من جهة ثانية ، فلم نذكر أنه اشترك فى فتوح السلطان صلاح الدين بأوسع من هذا المدى الذى وصفناه ، ولم نذكر أن السلطان العظيم كان يعتمد عليه بين حين وحين فى إخماد الثورات التى كانت تشتعل فى القاهرة نفسها ، دفاعا عن الدولة الفاطمية التى انتهى أمرها ، وشاء القدر أن تقضى على يديه نحبها .

ولكن شاء القدر أن يسلط على هذا القبس العظيم دخان كثيف يحول بينه وبين الناظرين إليه ، فلا يصل إليهم حتى يؤذى العين منظره ولا يسر النفس أن تدنو منه . وهكذا الشمس المشرقة إذا اصطلحت على إخفائها السحب ، بل هكذا الحق الأبلج حين تكتنفه الريب .

ذلك أن أديبا جليل الخطر ، هو ابن مماتى ، عرف أنه كتب فى هذا الأمير كتابا كله سخرية ، فانتشر الكتاب وذاع ، وتسلى الناس بقراءته ، وتمعنوا بفكاهته . وحلت فى أذهانهم هذه الصورة الجديدة محل الصورة القديمة[1] .

ولكن يكفى أن مؤرخا جليل القدر كابن خلكان يقضى على هذه الصورة المشوهة فيما كتبه عن الأمير الجليل . . .

وقد لفظ الأمير قراقوش أنفاسه فى مستهل رجب سنة ٥٩٧ هجرية بالقاهرة ووورى فى تربته المعروفة به بسفح المقطم .

(١) كتاب حكم قراقوش — الدكتور عبد اللطيف حمزه — مطبعة مصطفى البابى الحلبى . وعن هذا الكتاب اقتبسنا ما تقدم .

ولاة القلعة

أشرفت القلعة على جميع النظم العسكرية ، فى خلال حكم الدولتين : الأيوبية والمملوكية ونهض فى أرجائها التنظيم الحربى الباهر ، الذى اتسمت به الدولة المملوكية فى مصر . وقد عرف عن سلاطينها جهادهم المعروف فى مقاومة الصليبيين والمغول وكذلك العثمانيين مدة ثلاثة قرون ونيف .

ونحن لا نتناول هنا وصف هـــذا التنظيم الراقى ، الذى تميزت به جيوش السلاطين المماليك فى وادى النيل . بل سنقصر الكلام على أسماء السادة وكبار الموظفين الذين تولوا الإشراف على القلعة ، من حيث الإدارة العسكرية والمحافظة على الأمن فيها .

كان يهيمن على القلعة ، فى أيام المماليك ، ضابطان يختصان بوظيفة الإشراف عليها : أولهما نائب القلعة أو والى القلعة ، وثانيهما والى باب القلعة (كتاب ديوان الإنشاء الذى نقل عنه الأستاذ المستشرق كازانوفا ويرجح أن مؤلفه هو صاحب كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — جمال الدين أبو المحاسن تغرى بردى)[1] .

ويقول كازانوفا إن الفصل الأول من هذا المخطوط الهام اشتمل على ذكر الرتب الحربية الست الأولى لقادة الجيش المملوكى المعروفين بأرباب السيف حسب الترتيب التالى :

١ — الأمراء المقدمون الذين يقودون حوالى ألف من المشاة أو مائة من الخيالة[2] .

---

(١) المكتبة الأهلية بباريز — مخطوط رقم ١٥٧٣ .

(٢) قيل للأمراء المقدمين — أمراء مائة مقدمو ألف — والمقصود بتلك النسمة المركبة وظيفة واحدة .

وكان أصحاب هذه الرتبة أعلى مراتب الأمراء . وشوهد أصحاب هذه الرتبة ، أيام المماليك ، يتولون جميع المناصب العليا بمصر ، أمثال نائب السلطنة ، ونائب الغيبة ، ونائب الوجه البحرى والدوادار الكبير والأستادار ونائب حلب وما يضارع ذلك من الوظائف الكبرى .

٢ — أمراء الثمانين أو السبعينات الذين يقودون ثمانين أو سبعين

٣ — أمراء الطبلخانة (الفرقة الموسيقية) ويقودون أربعين[١]

٤ — أمراء العشرات[٢]

٥ — أمراء الخمسات قادة الخمسة[٣] .

٦ — الجند وهم يكونون جنود الحلقة أو المماليك السلطانية .

وقد تكلم المؤلف ، فى المقصد الثالث ، عند تناوله الحديث عن أمراء الطبلخانة أنه كان عددهم اثنى عشر أميراً يحملون لقب هذه الوظيفة (أمراء الطبلخانة) تاسعهم نايب قلعة الجبل ، وواجبه المنوط به الإشراف على أعمال حراسة الأبواب والأبراج ، والمحافظة على المعتقلين بها والذخيرة ، وعلى فتح باب القلعة وغلقه ، وإليه ترفع المحاكمات فى القلعة من عامتـه ، وهو الذى يدير أعمالها عند خروج السلطان ويلاحظ الأسوار والمنافذ ، وهو الآمر بعمارة ما يحتاج إليه (المخطوطة المذكورة) .

وفى المقصد الرابع ، عند ما تحدث عن أرباب الوظائف من أمراء العشرات وكان عددهم ثمانية أمراء — كان خامسهم والى باب القلة وهو الباب الثانى بعد الباب المدرج وكان مسئولا عن غلقه وفتحه ومراقبة حراسه وله بالقرب منها دركة وله جماعة تحت أمره يأمرهم بالأعمال التى يتخيرها لهم .

وقد كان باب القلعة فى وقت ما ، الباب الثانى فى الأهمية بعد الباب المدرج ، لأن باب السر كان لا يستخدم إلا فيما ندر ، وكان باب القرافة المواجه لباب

---

(١) كان لأمراء الطبلخانة الأحقية فى دق الطبول على أبوابهم كما يفعل السلطان وأمراء المئات . ولكن على صورة مصغرة . ويظهر أنهم كانوا يسمون بأمراء الطبلخانة تمييزا لهم عمن هم أقل منهم فى الرتبة وليس لهم طبلخانة . وفى الوظائف التى جرى إسنادها إليهم وظيفة الدوادار الثانى ووالى القلعة ووالى القاهـرة ونائب الإسكندرية ونائب طرابلس وحماة بالشام (محمد مصطفى زيادة — السلوك ص ٢٣٩) .

(٢) كان يشغل أمراء العشرات وظائف والى الفسطاط وشاد الدواوين ووالى القرافة .

(٣) معظم أمراء الخمسات كانو من أولاد الأمراء المتوفين ، تعطى لكل واحد منهم هذه الرتبه رعاية لسلفه ، وكانوا يعتبرون من أكابر الأجناد .

المدرج والذى يطل على جبل المقطم من الشرق قد أهمل أمره فى القرن الرابع عشر .

ولقد ظلت وظيفة نائب القلعة أو واليها محتفظا بها حتى دخل العثمانيون مصر عام ١٥١٧ فأهمل أمرها ولم يصل إلى علمنا إذا كانت قد استبدلت بها أخرى .

هذه هى واجبات صاحب هذه الوظيفة ، وسنذكر أهم أمراء الجيش الذين تقلدوها منذ إنشائها .

١ — الأمير علاء الدين طيبرس المنصورى وإلى باب القلعة المنسوب إليه العمارة فوق قنطرة المجنون على الخليج الكبير خارج القاهرة ، وكان حا كا حازما توفى فى عام ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) .

٢ — علم الدين سنجر الأحمدى متولى قلعة الجبل فى أول صفر عام ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م)

٣ — بيبرس الأحمدى (الأوحدى ؟) عين فى ٨ صفر ٧٢٠ هـ وعزل .

٤ — كندغلى العمرى . ولى القلعة فى الثانى من ذى القعدة عام ٧٣٦ هـ (١٣٣٥ م) .

٥ — وقد ذكر أحد المؤرخين أنه ولى القلعة هؤلاء الثلاثة :

عبد الملك الناصرى (٧٢٣ هـ — ١٣٢٣م) ثم طار نطاى (٧٢٥هـ — ١٣٢٤م) ثم الأمير بهاء الدين (٧٢٦ هـ — ١٢٢٥ م) ثم نقل كندغلى العمرى فى ١٥ ربيع الاول عام ٧٣٨ هـ (١٣٣٧ م) إلى نيابة البيرة . وفى ٢٠ منه عين عزالدين أيدمر الزراخ ألير جاندار .

٦ — سيف الدين أيدق . عين فى أول ربيع الأول عام ٧٤٠ هـ (١٣٢٩) وعين على باب القلعة أرغون شاه أمير عشره وهو أول من يقابلنا من الموظفين الذين شغلوا هذه الوظيفة .

٧ و ٨ — وفى عام ٧٥٣ هـ (١٣٥٢م) عين اثنان على ولاية القلعة هما الأمير

أرنان والأمير قطلوبغا الذهبي ، كما عين آخران على ولاية باب القلعة وهما الأمير كشلي السلاح دار وعلى الماردانى .

٩ — وفى أيام السلطان شعبان الثانى (٧٦٤ — ٧٧٨ هـ) كان على القلعة سيف الدين الماردانى الذى مات فى عام ٧٨٩ هـ وكان قد أنعم عليه بإمرة طبلخانة كما ذكر المؤرخ الجوهرى .

١٠ — وقد ذكر مؤرخ آخر اسما لأمير سراج الجشبجاوى ، عين على القلعة عام ٧٨٥ هـ (١٣٨٣ م) عوضا عن طشتمر المظفرى بعد أن أضيف إليه إمرة طبلخانة وقد مات سراج عام ٧٩٠ هـ

١١ — وكانت مدة خلفه الأمير سبيع قصيرة فى ولاية القلعة وقد سماه الجوهرى والى القلعة .

١٢ — بحّاس النوروزى نائب القلعة . وهو الذى وكل إليه فى ٢٧ صفر عام ٧٩١ هـ التأكد من شخصية الخليفة المتوكل .

١٣ — قطلوبغا السيفى — ٧٩١ هـ — ١٣٨٨ م .

١٤ — جابان أخى مامق .

١٥ — صارم الدين إبراهيم بن يلبغا ٧٩١هـ وحكم عليه بالسجن فى عام ٧٩٢هـ ثم أفرج عنه وخلع عليه وأعيد إلى وظيفة ولاية القلعة .

١٦ — لما جلس السلطان برقوق على العرش فى عام ٧٩٢ هـ عين الأمير سودون النظامى نائباً للقلعة .

١٧ — فى عام ٨٠٢ هـ (١٣٩٩م) عين الأمير قارى الإسنبغارى واليا للقلعة .

١٨ — الأمير كشبغا الجمالى (٨١٣هـ — ١٤١٠م) .

١٩ — شاهين الرومى (٨١٤ هـ — ١٤١١ م) .

٢٠ — عين الملك المؤيد شيخ — الأمير — بردبك .

٢١ — أسندت ولاية القلعة للأمير أزبغا الزردكاش وكلف بتحصين القلعة وشحنها

٢٢ — تسلم القلعة الأمير يلبغا الناصرى .

٢٣ — أزدمر حيا (؟) فى عام ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) .

٢٤ — الأمير طوغان .

٢٥ — الأمير أحمد الملطى .

٢٦ — فى عام ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) تولى نيابة القلعة الأمير جقمق العلائى .

٢٧ — فى عام ٨٢٧ هـ (١٤٢٣ م) ولى تغرى برمش نيابة القلعة .

٢٨ — فى عام ٨٣٨ هـ (١٤٣٤ م) خلع على ثانى بك نيابة القلعة الذى عزل سنة ٨٤٢ هـ ثم توفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) .

٢٩ — نصب جقمق النورى على نيابة القلعة سنة ٨٤٢ هـ (١٤٣٨ م) .

٣٠ — خلع على الأمير ثانى بك البردكى ، أحد أمراء الألوف ، بنيابة القلعة فى ربيع الأول عام ٨٤٢ هـ (١٤٣٨ م) .

٣١ — وفى عام ٨٤٩ هـ (١٤٤٥ م) عين تغرى برمش الفقيه — ويحتمل أن يكون هذا الوالى نفسه الذى ولى القلعة المرة الأولى فى عام ٨٢٧ هـ . وقد نفى إلى القدس فى العام ذاته .

٣٢ — وولى فى مكانه الأمير سيف الدين يونس بن عبد الله العلاى الناصرى الأمير أخور فى ١١ صفر عام ٨٤٩ هـ وقد مات بالطاعون عام ٨٦٤ هـ (١٤٥٩ م) .

٣٣ — وفى عام ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) ولى قانباى الأعمش الناصرى عوضا عن يونس . وكان أصله من مماليك الناصر فرج .

٣٤ — بعد موته قرر تعيين سودون النوروزى السلحدار . وتوفى فى السبعين من عمره ، وكان من مماليك نوروز الحافظ نائب الشام . جعله الملك الأشرف إينال نايب قلعة الجبل بعد موت قايتباى . فدام فى النيابة إلى أن مات سنة ٨٦٢ هـ (١٤٥٧ م) .

٣٥ — استقر كسباى المؤيدى .

٣٦ — فى عام ٨٦٥ هـ (١٤٦٠ م) عين خير بك القصروى ، وفى أيامه غادر مقره فى باب المدرج ، وبقى باب القلعة بغير ضابط .

٣٧ — عين سودون البردكى الفقيه المؤيدى عام ٨٧٢ هـ (١٤٦٧ م) وعزل .

٣٨ — تولى النيابة تغرى بردى ططر الظاهرى .

٣٩ — وفى عام ٩٠٣ هـ (١٤٩٧ م) نصب بيبرس على نيابة القلعة .

٤٠ — تولى الأمير قانباك أبو شامة .

٤١ — فى عام ٩٠٥ هـ عين جانبلاط .

٤٢ — خلع على الأمير أرزمك وصار نائب القلعة عوضاً عن الأمير جانبلاط .

٤٣ — وفى ١٩ شعبان عام ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) عين السلطان طومان باى الأمير طوخ المحمدى واليا على القلعة .

٤٤ — وفى أوائل عام ٩١٢ هـ (١٥٠٦ م) كان لأمير طقطباى نائب القلعة الذى ظل ينهض بأعباء وظيفته إلى ٢٠ رمضان ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) حين عين كبيراً لأمناء السلطان (حاجب الحجاب) وأخلع على ثانى بك الأشرفى .

٤٥ — ثانى بك الأشرفى .

٤٦ — الأمير خير الدين ، أحد أمراء الجيش وكان آخر نواب القلعة على عهد السلاطين المماليك (١٥١٧) .

وبانتهاء الحكم المملوكى ، قضى على هذه الوظيفة الجليلة .

القسم الثانى

قلاع مجيدة

شيدت فى العصر الإسلامى

١ — قلعة صلاح الدين فى سيناء .
٢ — قلعة فرعون فى خليج العقبة .
٣ — قلعة المقس .
٤ — قلعة جزيرة الروضة .
٥ — قلعة الطور فى سيناء .
٦ — قلعة نخل فى سيناء .
٧ — قلعة العقبة على خليجها .
٨ — قلعة العريش فى سيناء .
٩ — قلاع الإسكندرية وأسوارها .
١٠ — قلعة قايتباى فى الإسكندرية .
١١ — حصون دمياط .
١٢ — قلعة قايتباى فى رشيد .
١٣ — قلعة البرلس .

قلعة صلاح الدين فى سيناء

(٥٨٣ هـ — ١١٨٧ م)

رأس الجندى تل صغير يعلو ٢١٥٠ قدما فوق سطح البحر ويرتفع ٥٠٠ قدم فوق السهل المستوى المجاور له. هو ذو شكل فريد وموقع حاكم يجعلانه هيئة طبيعية ظاهرة على بعد ثلاثين كيلومترا . ويعتبر رأس الجندى أكمة منفصلة عن جبال واحــــة الـكلسية التى تؤلف حاجزاً منيعاً بين الجزء المتوسط لسيناء الشمالية وخليج السويس .

ويقع رأس الجندى على رأس وادي البروك أحد الأفرع الرئيسية لوادى العريش الذى يشغل سهلا فسيحاً يمتد إلى جميع المنطقة الوسطى لسيناء الشمالية . وإلى جنوب وادى الصدر الذى يخترق سلسلة جبل راحا ويفتتح له سبيلا نحو السهل الساحلى لخليج السويس .

وفى وادى صدر وعلى بعد خمسة كيلومترات من القلعة التى سنتحدث عنها تقع عين صدر الطبيعية ذات المياه العذبة التى تمتاز بها . وموقع القلعة لا يبعد أكثر من عشرين كيلومترا عن طريق الحج القديم الذى يبتدئ من السويس وينتهى إلى العقبة مارا بنخل . وكان الطريق الوحيد الموصل بين خليج السويس إلى شمالى سيناء وبلاد العرب .

ولذلك اشتمل هذا التل الصغير على أهم العناصر التى يتطلبها الموقع العسكرى أولهما القرب من المياه الوفيرة وثانيهما الإشراف التام على الطرق الهامة وسهولة المواصلات .

وصف القلعة

نستطيع أن نصف الموقع الطبيعى الذى تقع عليه هذه القلعة إذا اقتربنا قليلا من رأس الجندى ، فهذا التل تظهر روعته عن بعد . فهو على شكل مخروطى ذى قمة مسطحة وجوانب صخرية حادة جداً .

والجزء الأصلى من التل كبقية جبل راحا ذو طبيعة طباشيرية التكوين لا يمكن تسلق جوانبه الشرقية والغربية، وإن كان الصعود على منحدره الشمالى أو الشمالى الغربى بصعوبة .

فإذا اتخذنا طريقنا مجتازين درباضيقاً ملتوياوسرنا فى بعض أجزاء الدرب القديم نحو المنحدر الشمالى والشمال الغربى وصلنا إلى قمة التل ، ووجدنا أنفسنا أمام جدار يتراوح سمكه بين مترين أو ثلاثة مبنى بالحجارة الجافة ، ووراءه خندق كان يمتلىء بالمياه يبلغ اتساعه خمسة أو ستة أمتار ويدور هذا الخندق حول الأكمة من ناحيتها الشمالية والشمالية الغربية فيزيد فى منعتها ووقايتها .

إذا عبرنا الخندق صعدنا فوق كتل من الحجارة المبعثرة بدلا من درج السلم التى وجدت فى الأيام السالفة والتى استبقى الزمن بضعة منها لا تزال راقدة فى محالها الأصلية . وإذا صعدنا عشرة أمتار أخرى وصلنا إلى الجدار الأصلى وباب القلعة .

ولنقف لحظة هنا أمام هـذا الباب لنقرأ نصاً من الكتابة منقوشاً على عقد الباب المسطح . ففى وسط النصف العلوى للعقد نشاهد اللوحة المنقوشة وعلى جانبيها رسم السيف والدرع اللذين اتخذهما السلطان صلاح الدين شعاراً لدولته . وعلى الجزء الأسفل فى المربع الأوسط نشاهد النجمة المسدسة الأضلاع التى كانت على ما يظهر شارة صلاح الدين المحببة إليه والتى نراها على عملته ، وعلى مبان أخرى شيدت فى عهده . وبقية اللوحات التى من الحجر الجيرى حسنة الشكل ومزررة ببعضها البعض على الطريقة الإسلامية المستعملة إلى اليوم .

ونقرأ فى النص المنقوش بحروف ناتئة اسم بانى القلعة وتاريخها كما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد . خلد الله ملك مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين الملك يوسف بن . . . العادل الناصرى فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة » . (أغسطس ١١٨٧ م) .

وتخطيط قلعة صلاح الدين مستطيل الشكل يتجه فى اتجاهين : شمال بشرق إلى جنوب بغرب . وطرفها الجنوبى الغربى ينتهى نصف مسدس الأضلاع . ويتراوح ضلع القلعة ما بين مائة وخمسين ومائتى متر طولا . وأوسع عرض لها يبلغ مائة

متر وسمك سور القلعة الخارجى يبلغ مترين مازال جزؤه الأسفل باقيا . أما زوايا القلعة (أركانها) فقدقويت بدعامات مربعة أو مستديرة ، وكانت لكل برج دعامة تسنده .

وقد ضمت أسوار القلعة غرفا صغيرة لرجال ملحتها (حاميتها) وبعضها كانت تستخدم كمطابخ أو محلات للغسيل . وقد كان فى صحن القلعة عدة مبان شيدت لأغراض مختلفة على مستويات عدة من الأرض الطبيعية ، لكنها تهدمت ولم تخلف سوى الأنقاض . وتشمل هذه المبانى :

١ — ردهة مسطحها ٥,٠٠ × ٦,٠٠ أمتار وعمقها خمسة أمتار . وهى تحت مستوى الأرض الطبيعية، ومن المحتمل أنها كانت مخزنا للمئونة أو مكانا للاجتماع فى أثناء الشتاء .

٢ — مسجد بدون سقف ، وفى جداره الشرقى قبلة . وعليها كتابة منقوشة للبسملة .

٣ — صهريج تحت الأرض يحتوى على خزان حجمه ٦,٠٠ × ١٠,٠٠ × ٥,٥٠ من المتر مازالت جداره تحتفظ بطبقة من الملاط الجيد ، وله فتحتان إحداهما لإدخال المياه منها ومتصلة بمجرى (سرداب) لتصريف المياه إلى داخل القلعة ، والأخرى مستديرة وضيقة لا شك أنها كانت تستعمل لسحب المياه منها . وقد كانت فوق الفتحة الأولى كتابة منقوشة بقيت منها البسملة وكلمة « صهريج » واسم « صلاح الدنيا والدين . ويتفق أسلوب الكتابة مع الكتابة الأخرى التى ذكرناها على باب القلعة .

٤ — وأكمل أجزاء القلعة التى ما زالت محتفظة برونقها القديم ، المسجد وفى أسفله صهريج المياه لتحتفظ ببرودتها اللطيفة فى تلك المنطقة الصحراوية الحارة فى فصل الصيف . والصهريج مبنى على الطريقة المشيد بها الصهريج السابق الذكر ولا يشتمل على كتابات منقوشة .

ومسطح المسجد ١٢,٠٠ × ٦,٠٠ من الأمتار وبجانبه الغربى باب له درجتان أو ثلاثة . والقبلة التى فى جداره الشرقى مزخرفة وقد كتبت عليها البسملة على أرضية

من الملاط القرنفلى اللون (Pink) . وللمسجد فى جداره الشمالى نافذتان ، ونافذة فى جداره الجنوبى . وكانت هناك فى الزاوية الجنوبية الغربية منارة صغيرة كما يستدل من الأساس المربع وترى آثار بعض الدرجات فى الداخل وهى تحدد مكان المنبر على يمين القبلة . وكانت فوق عتبة الباب الخارجى للمسجد لوحة عليها الكتابة الآتية :

« بناء استعمله الملك الناصر صلاح الدنيا والدين الملك العادل سيف الدين فى ذى القعدة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

وهذا يثبت أن تلك الإضافة عملت بعد انتهاء البناء الأصلى للقلعة بخمسة عشر عاما فى أيام السلطان العادل سيف الدين .

٥ — ردهة مسطحها ١٥ متراً تحت مستوى الأرض الطبيعية ذات سقف من العقود المقببة .

مصدر مياه القلعة

إن مسألة المياه فى مقدمة ما يفكر فيه الجندى للجنود ، والذى اختار ذلك الموقع الحربى المنيع ليجعل منه قلعة حصينة لا بد أنه انتخبه بعد درس مسألة المياه فى تلك البقعة الصحراوية .

هناك على بعد خمسة كيلومترات من قلعة صلاح الدين عين مياه اسمها عين صدر هى التى أمدت المسلحة بالمياه التى احتاجت إليها . وهى ما زالت إلى اليوم يلتجىء إليها كل من اجتاز الصحراء عن طريقها . بعد هذه العين وصعوبة الحصول على مياهها جعل رؤساء الجند يفكرون فى طريقة أخرى لاستجلاب المياه ، فعمدوا إلى الانتفاع بمياه السيل المنهمرة بغزارة فى أثناء الشتاء فى وديان تلك الجهة ، واختاروا واديا عميقا يعبر قريبا من القلعة من ناحيتها الشمالية وشيدوا سداً فى عبره يحجز مياه السيل . وكان طول ذلك السد عشرين متراً وعلوه عشرة أمتار ، ويختلف سمكه من متر فى عاليه إلى خمسة أو ستة أمتار فى أسفله . ولتقويته شيدت دعامتان فى منتصفه ، وما زال هذا السد المنيع قائماً إلى اليوم يشهد بمتانة بنائه وتصميمه .

وقد امتلأ الوادى فى خلف هذا السد ببقايا الرمال والأعشاب التى تحملها السيول الغزيرة .

وكانت مياه عين صدر ومياه السد تحمل على ظهور الجمال أو الخيول إلى سفح الأكمة التى شيدت فوق قمتها القلعة ، ثم تحمل على ظهور الرجال إلى أعلى الحصن لتخزن فى الصهاريج . ولا شك أن هذا كان مجهوداً شاقا لرجال الحامية بجانب عملهم العسكرى .

أسباب بناء القلعة

والآن لنسأل أنفسنا هذا السؤال .

ما الذى دفع صلاح الدين إلى بناء تلك القلعة فى قلب الصحراء ؟ وما الذى دعا أخاه العادل بعد خمسة عشرعاما إلى إضافة مبانأخرى ثم يأتى إليها بنفسه لزيارتها .

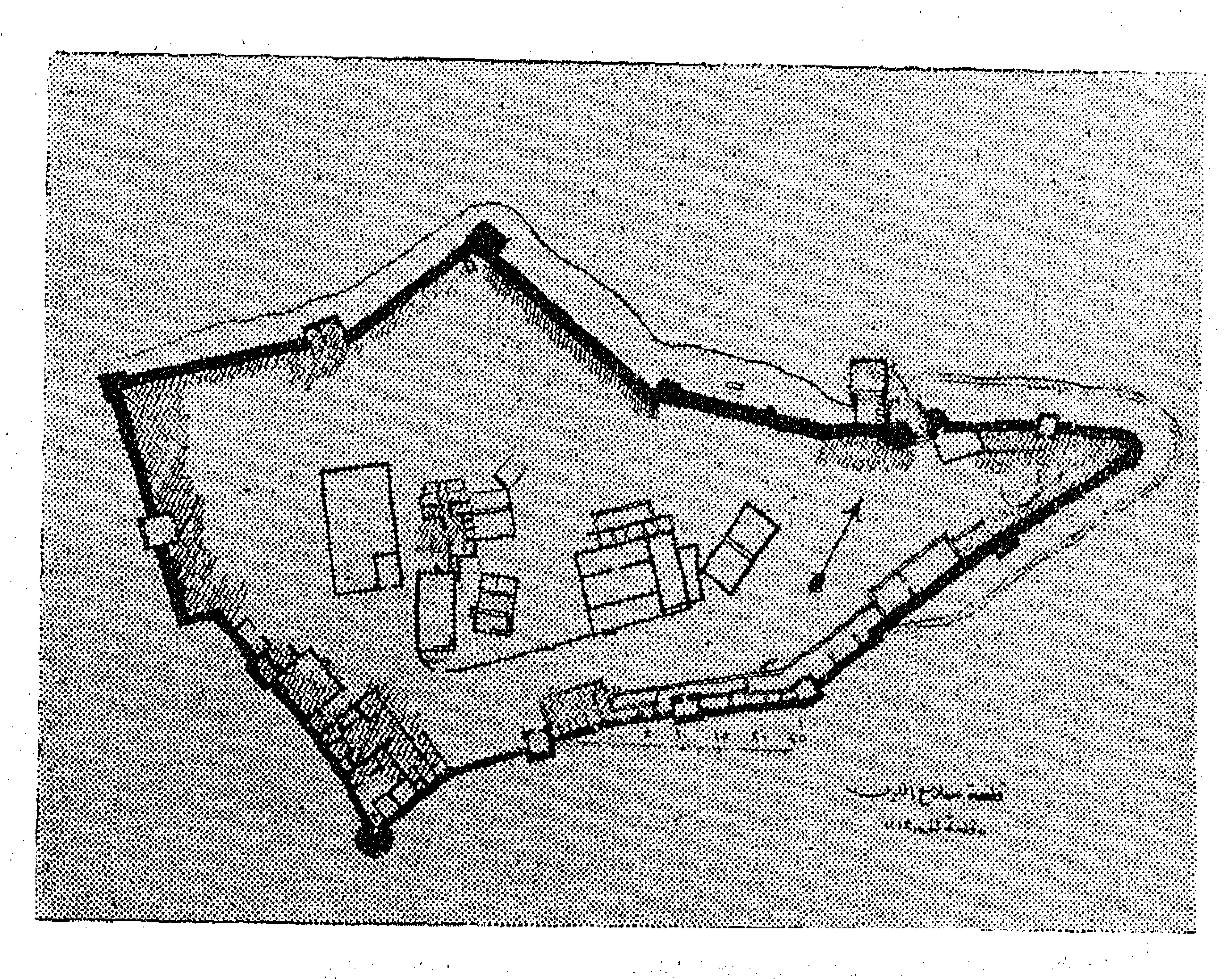
كان « ريجنالد دى شاتيلون » أمير الكرك من ألد أعداء صلاح الدين بين الصيلبيين . وقد أراد الشروع فى فتح بلاد العرب والاستيلاء على مدينة النبى ﷺ والكعبة . ولكى يحقق أغراضه اتصل ببدو سيناء بالرشوة . فاستطاع بمعاونتهم أن ينقل قطع أسطوله عبر الصحراء من الكرك إلى خليج العقبة . ثم استولى على الميناء المصرية عيذاب أمام جدة وجعلها مقر قرصنته البحرية ، ثم حاصر مدينة أيلة (العقبة) بحراً ومنع كل اتصال خارجى بها. فأمر الملك العادل الذى خلفه السلطان صلاح الدين بالقاهرة الحاجب حسام الدين لؤلؤ بالسفر إلى القلزم حيث أعد أسطولا صنعت سفائنه فى مصر والإسكندرية . وسار إلى أيلة وظفر ببعض سفن الفرنج وحرقها وأسر من فيها . وسار إلى عيذاب وتبع مراكب الفرنج وبعد أيام استولى عليها وأطلق من فيها من التجار المأسورين . ورد عليهم ما أخذ منهم وصعد البر ثم أدرك من فر من الفرنج وأسرهم وساق منهم اثنين إلى منى ونحرهما فيها ثم عاد بالأسرى إلى القاهرة وضربت أعناقهم .

ولا شك أن تلك الحملة كانت جرأة عجيبة أقدم عليها أمير الكرك بينما كان صلاح الدين مشغولا بحروبه فى فلسطين . وكان هذا العمل درساً استفاد منه السلطان ولم يتركه يمر بدون فائدة .

فمن ناحية الانتقام من أمير الكرك فقد هاجمه فى عقر داره وانتقم منه أشد انتقام . ولكن ما العمل مع رجال البدو من أهل سيناء . وكيف يقاومهم ؟

رأى أن يشيد هذا المعقل الحصين فى قلب ديارهم لكى يستطيع بجنوده البواسل تأديبهم ويقضى على مؤامراتهم اللعينة . فأمر بتشييد قلعته المنيعة والتى بدأ فى بنائها حوالى عام (١١٨٣ أو ١١٨٤ م) وكان انتهاؤه منها فى عام ١١٨٧ وهو ما يتفق مع التاريخ الهجرى المنقوش على الباب .

وفى ذلك الحين كان صلاح الدين قد نقل مقر حكمه من القاهرة إلى دمشق وخلف أخاه العادل لينوب عنه فى حكم الديار المصرية . فقام العادل بتشييد القلعة، ولما توفى صلاح الدين وتولى الحكم عام (١١٩٣) زاد العناية بالحدود الشرقية ومراقبة البدو فزار القلعة عام ١٢٠٢ هـ بعد أن أمر ببناء المسجد والصهريج كما احتفظ بحامية تحمى البلاد .



١ ــ قلعة صلاح الدين فى شبه جزيرة سيناء

قلعة فرعون

فى خليج العقبة ثلاث جزر . جزيرة تيران وجزيرة فرعون وتبعد هذه الأخيرة ثمانية أميال من مدينة العقبة . وهى جزيرة صغيرة محيطها نحو ألف متر مؤلفة من أكمتين صغيرتين بينهما فرجة ضيقة وبينها وبين شاطىء سيناء نحو ٢٥٠ متراً .

وعلى قنى الأكمتين خرائب قلعة قديمة لم يبق منها سوى صهاريج الماء ومخزن الغلال والذخائر ومنازل الجنود . وفى جدرانها المزاغل لضرب النار . وهى الآن خرائب لا يسكنها أحد . وكان يحيط بها سور منيع له باب إلى جهة سيناء .

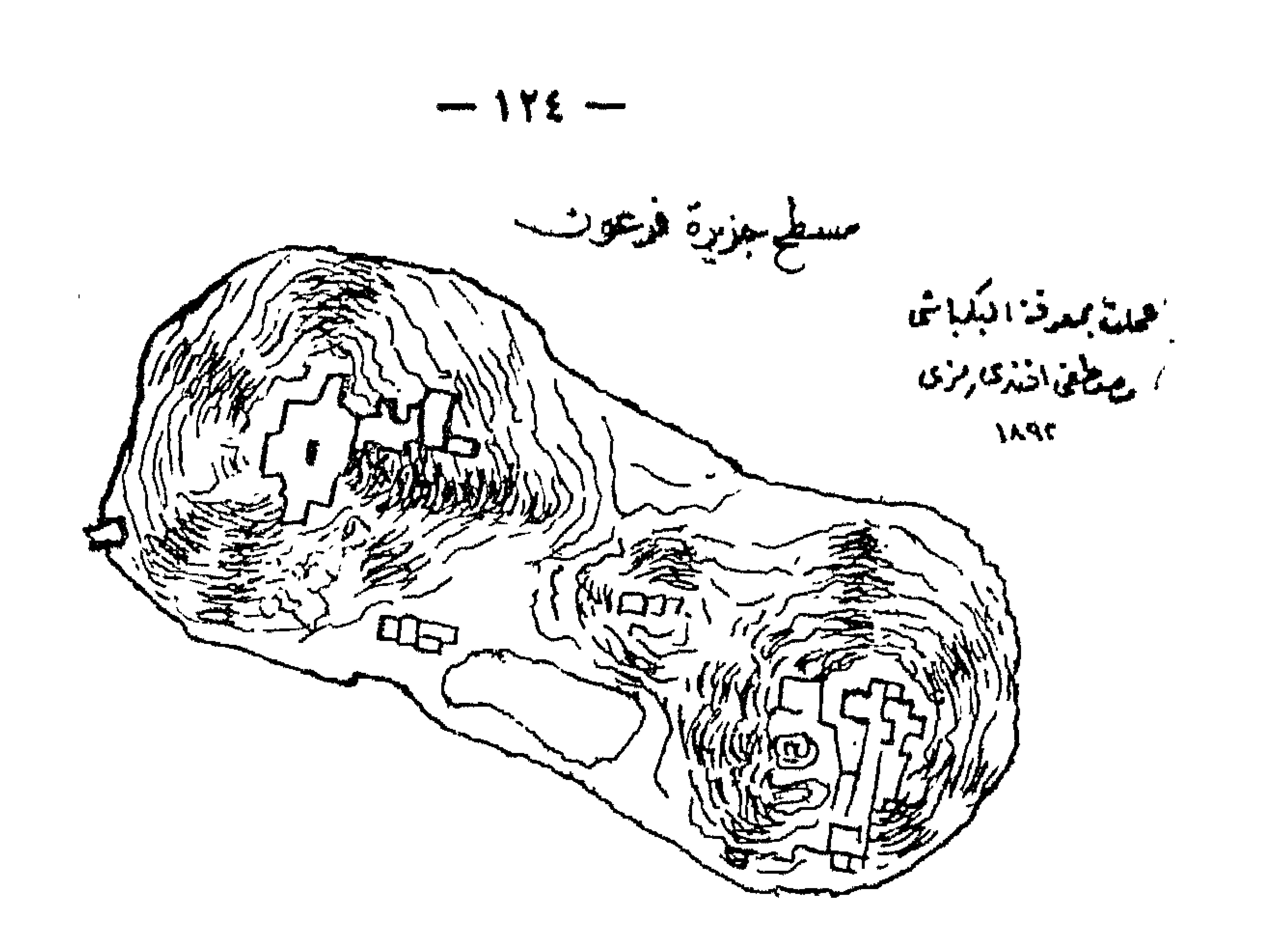
وقد ذكر بعض السياح الإفرنج أنه مر بالجزيرة فى أواسط القرن الماضى فرأى حجراً فوق الباب عليه اسم مشيد القلعة وتاريخ بنائها ، ولكن هذا الباب قد تهدم ، كما تهدم السور . ويرجح أن يكون بناء القلعة قد تم بأمر صلاح الدين الايوبى ، وأنه قد بناها لمقاومة الصيليبين . وهى تشبه فى بنائها قلعة صلاح الدين (قلعة الجندى) فى جوار عين سدر . وقيل إن أرناط أمير الكرك حاصرها بسفنه عام ١١٨٢ م إلى أن انتصرت عليه قوات الايوبيين . ثم هجرت بعد ذلك بمائة عام واكتفى بقلعة العقبة [١] .

قلعة المقس

ذكر المقريزى أن صلاح الدين أمر بهاء الدين قراقوش ببناء برج كبير على النيل عام ٥٧٠ هـ . وقد «كشف» هذا البرج فى سنة نيف وثمانين وستمائة . وكان يقع فى محل قنطرة الخلفاء بجوار جامع المقس فى نهاية سور القاهرة عند باب البحر ويقال له قلعة المقس [٢] . ومحلها اليوم المكان القائم عليه عمارتا الأوقاف وراتب باشا المجاورتان لجامع أولاد عنان من الجهة البحرية الشرقية بميدان رمسيس (باب الحديد) .

---

(١) و (٢) النجوم الزاهرة . جـ ٤ ص ٣٩ .



منظور جزيرة فرعون من عدة نقط مختلفه

قلعة جزيرة الروضة

٦٣٧هـ — ١٢٤٠م

من الصعب معرفة العهد الذى وجدت فيه جزيرة الروضة . ولكن أثبت بعض قدامى المؤرخين أنها لم تكن موجودة فى العصر الفرعونى . ولم تذكر جزيرة الروضة كموقع له أهمية حربية إلا فى عصر الفتح العربى . فقد كانت فى ذاك العهد ذات حصون ومنعة كانت تزيد فى قوة حصن بابليون وخطره الحربى ، لأنها كانت وسط النهر تملك زمامه ، وقد لاذ بها زعماء الروم عند محاصرة الحصن وأقاموا داخل أسوارها المنيعة المحيطة بها من جميع جهاتها بين البساتين والحدائق الجميلة فى انتظار الفرج الذى لم يأت .. فطلب المقوقس الصلح . وقد دارت مفاوضات الصلح بين رسل القائد عمرو بن العاص وبين مندوبى المقوقس فى هذه الجزيرة أولا . فلما فشلت هذه المفاوضات غزا العرب تلك الجزيرة وهرب الروم ، منها وبعد ذلك تم الصلح فى حصن بابليون كما هو معروف . وعندذلك دك عمرو أسوارها وحصونها فبقيت مجردة عاطلة خربة حتى أيام ابن طولون .

ففى إمارة أحمد بن طولون (٨٧٠ — ٨٨٤م) أعاد بناء أسوارها وحصونها (٨٧٦ م) وجعلها مقراً لخزائن أمواله واتخذ فيها القصور . وكان سبب ذلك مسير موسى بن بغا العراقى من العراق ليتقلد الولاية على مصر . فلما بلغه الأمر استعد لحربه . فتثاقل موسى عن المسير خوفا من الهزيمة وأصيب بعلة طالت به وكان بها موته . فكفى ابن طولون أمره . ولم يزل ذلك الحصن على الجزيرة حتى احتواه النيل شيئاً بعد شىء ، وقد بقيت منه بقايا إلى أيام القرن الخامس عشر [1] .

ومازال حصن الجزيرة عامراً أيام الأسرة الطولونية ، وأنشئت فيه دار صناعة السفن الحربية وكان فيها محل ديوان الجهاد ، فلما تقلد الأمير محمد بن طغج الإخشيد

---

(١) للقاضى ابن عمر وعثمان النابلسى كتاب عن هذا الحصن سماه «حصن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » مفقود الآن ذكره المؤرخ المقريزى فى الخطط ونقل عنه (جـ ١ ص ٣٢٦ طبعة بولاق) وذكره أيضاً السيوطى فى كوكب الروضة .

إمارة مصر (٩٣٤ — ٩٤٦ م) هزم جيش مصر الذى أعده أحمد بن كيغلغ وأقبل فى سفينة إلى الفسطاط فاستولى عليها، ثم أرسى بجزيرة دار الصناعة وحرقها . ثم نقل محمد بن طغج دار الصناعة إلى ساحل الفسطاط وأنشأ موضعها فى الجزيرة بستانا وداراً سماها المختار .

ثم عرفت الجزيرة بالروضة نسبة إلى البستان الذى أنشأه فى نهايتها البحرية الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٤٩٠ هـ — ١٠٩٦ م وسماه الروضة . ومابرحت جزيرة الروضة متنزها ملكيا ومسكنا للناس إلى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل سلطنه مصر فى عام (٦٣٧ هـ — ١٢٤٠ م) فأنشأ القلعة بالروضة فعرفت بقلعة المقياس وبقلعة الروضة وبقلعة الجزيرة وبالقلعة الصالحية وبقلعة جزيرة الفسطاط وبقلعة الجيزة كما ذكرها المؤرخ أبو الفداء[1] .

وها هو ما ذكره عن القلعة المؤرخ المقريزى[2] المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) فى يوم الأربعاء خامس شعبان عام ٦٣٨ هـ (١٢٣٩ م) : شرع فى حفر أساس القلعة وابتدأ بنيانها فى آخر الساعة الثالثة من يوم الجمعة سادس عشر . وفى عاشر ذى القعدة وقع الهدم فى الدور والقصور والمساجد التى كانت بجزيرة الروضة وتحول الناس من مساكنهم التى كانوا بها ، وهدم كنيسة كانت لليعاقبة بجانب المقياس وأدخلها فى القلعة وأنفق فى عمارتها أموالا جمة ، وبنى فيها الدور والقصور وعمل لها ستين برجا وأقام بها جامعا وغرس بداخلها أنواعا شتى من الأشجار ، ونقل إليها عمد الصوان من البرابى وعمد الرخام وشحنها بالأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليه من الغلال والأزواد والأقوات خشية من محاصرة الفرنج ، فإنهم كانوا حينئذ على عزم أن يقصدوا بلاد مصر ، وبالغ فى إتقانها مبالغة عظيمة . وكان الملك الصالح يقف بنفسه ويرتب ما يعمل فصارت تدهش من كثرة زخارفها وتحير الناظر إليها من حسن سقوفها المزينة وبديع رخامها . ويقال إنه كان يقع فى الموضع الذى أنشأ فيه هذه القلعة ألف نخلة مثمرة كان رطبها يهدى إلى ملوك مصر لحسن منظره وطيب طعمه .

---

(١) المختصر فى تاريخ البشر ص ١١٩ .

(٢) طبعة بولاق جـ ٢ من ص ١٨٣ إلى ١٨٥ .

وقد خرب الهودج والبستان المختار وهدم ثلاثة وثلاثون مسجداً عمرها خلفاء مصر وسراة المصريين لذكر الله تعالى وإقامة الصلوات .

وكان النيل عندما عزم الملك الصالح على عمارة القلعة من الجانب الغربى فيما بين الروضه وبر الجزيرة . وقد انطرد عن بر مصر ولا يحيط بالروضة إلا فى أيام الزيادة ، فلم يزل يغرق السفن فى البر الغربى ويحفر فيما بين الروضة ومصر ما كان هناك من الرمال، حتى عادماء النيل إلى بر مصر واستمر هناك فأنشأجسراً عظيما ممتداً من بر مصر إلى الروضة وجعل عرضه ثلاث قصبات . وكان الأمراء إذا ركبوا من منازلهم يريدون الخدمة السلطانية بقلعة الروضة يترجلون عن خيولهم عند البر ويمشون فى طول هذا الجسر إلى القلعة ، ولا يمكن أحد من العبور عليه راكباً سوى السلطان فقط . ولما كملت تحول إليها بأهله وحرمه واتخذها دار ملك وأسكن فيها مماليكه البحرية ، وكانت عدتهم نحو الألف مملوك .

وقد قال العلامة على بن سعيد المتوفى سنة (٦٧٣ ﻫ — ١٢٧٤ م) فى كتاب المغرب فى حلى المغرب . وقد ذكر الروضة . . بنى بها قاعة مسورة بسور ساطع اللون محكم البناء عالى السمك لم تر عينى أحسن منه . . ولم أنفصل عن مصر حتى كمل سور هذه القلعة . وفى داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت إليه همة بانيها . وهو من أعظم السلاطين همة فى البناء . . . وإذا زاد النيل فصل ما بينها وبين الفسطاط . وفى أيام احتراق النيل يتصل برها ببر الفسطاط من جهة خليج القاهرة ويبقى موضع الجسر فيه مراكب . وركبت مرة هذا النيل أيام الزيارة مع الصاحب المحسن محيى الدين بن ندا وزير الجزيرة وصعدنا إلى جهة الصعيد ثم انحدرنا واستقبلنا هذه الجزيرة وأبراجها تتلألأ والنيل قد انقسم عنها .

فقلت :

تأمل لحسن الصالحية إذ بدت	وأبراجها مثل النجوم تلالا
والقلعة الغراء كالبدر طالعاً	تفرج صدر الماء عنه هلالا
ووافى إليها النيل من بعد غاية	كما زار مشغوف يروم وصالا

وعانقها من فرط شوق لحسنها فمد يميناً نحوها وشمالا
جرى قادما بالسعد فاختط حولها من السعد أعلاما فزاد دلالا

وذكر المقريزى أيضاً أن مبانى القلعة امتدت إلى مقياس النيل من الجهة الجنوبية . ومن مختصر بحوث المؤرخين يتبدى أن هذه القلعة كانت تشغل مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فدانا واقعة فى الجزء الجنوبى من جزيرة الروضة . ومكانها المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بشارع الملك المظفر . ومن الغرب بنهر النيل ومن الجنوب بسلاملك قصر حسن فؤاد المناسترلى باشا وبمقياس النيل . ومن الشرق بسيالة جزيرة الروضة . والسلاملك المذكور كان موضع الجامع الذى أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٨٥ هـ على النيل بجوار المقياس من الجهة الغربية . وعرف بجامع المقياس . وكانت بقايا هذا الجامع قائمة إلى سنة ١٢٦٧هـ — ١٨٥٠م وفيها أزال حسن باشا تلك البقايا . وبنى هذا السلاملك فى مكان جامع المقياس[١] .

سكن الملك الصالح هذه الجزيرة مع مماليكه البحرية — وكانت عدتهم ألف مملوك — بعد انتقاله من قلعة الجبل . . وقد قال المؤرخ ابن واصل إن بناء تلك القلعة استنفد ثلاث سنوات[٢]

ولم تزل قلعة الصالحية عامرة حتى انتهت دولة بنى أيوب . فلما ملك السلطان الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى مؤسس دولة المماليك البحرية بمصر أمر بهدم هذه القلعة ليعمر منها مدرسته المعزية التى كانت فى رحبة الحناء بمدينة مصر . واقتدى به ذوو الجاه فأخذوا كثيراً من سقوفها وشبابيكها وغيرها . وبيع من أخشابها ورخامها أشياء جليلة .

---

(١) النجوم الزاهرة — جـ ٦ ص ٣٢٠ و ٣٢١ من تعليقات المرحوم محمد بك رمزى .
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك — نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة — تعليق ص ٣٠١

الظاهر بيبرس والقلعة

ثم تولى ملك مصر السلطان الملك الظاهرى ركن الدين بيبرس، فعنى بعمارة قلعة الروضة وأمر الأمير جمال الدين موسى بن يغمور بإعادتها كما كانت . فأصلح بعض ما تهدم فيها ورتب بها فرقة الجاندارية . وردها إلى ما كانت عليه ووزع أبراجها على الأمراء وأعطى برج الزاوية للأمير سيف الدين قلاوون الألفى . والبرج الذى يليه للأمير عز الدين الحلى . والبرج الثالث من برج الزاوية للأمير عز الدين أرغان وأعطى برج الزاوية الغربى للأمير بدر الدين الشميسى . وفرقت بقية الأبراج على سائر الأمراء (قادة الحامية) وأمر أن تكون بيوتات جميع الأمراء وإسطبلاتهم فيها وسلم المفاتيح لهم .

ولما آل الملك إلى السلطان الملك المنصور قلاوون الألفى (٦٧٨ هـ — ١٢٧٩م) وشرع فى بناء المارستان والقبة والمدرسة المنصورية،نقل من قلعة الروضة ما احتاج إليه من عمد الصوان والرخام والأعتاب . كما أخذ منها فيما بعد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون مما مست إليه، حاجته من عمد الصوان فى بناء الإيوان الكبير بدار العدل فى قلعة الجبل والجامع الجديد الناصرى .

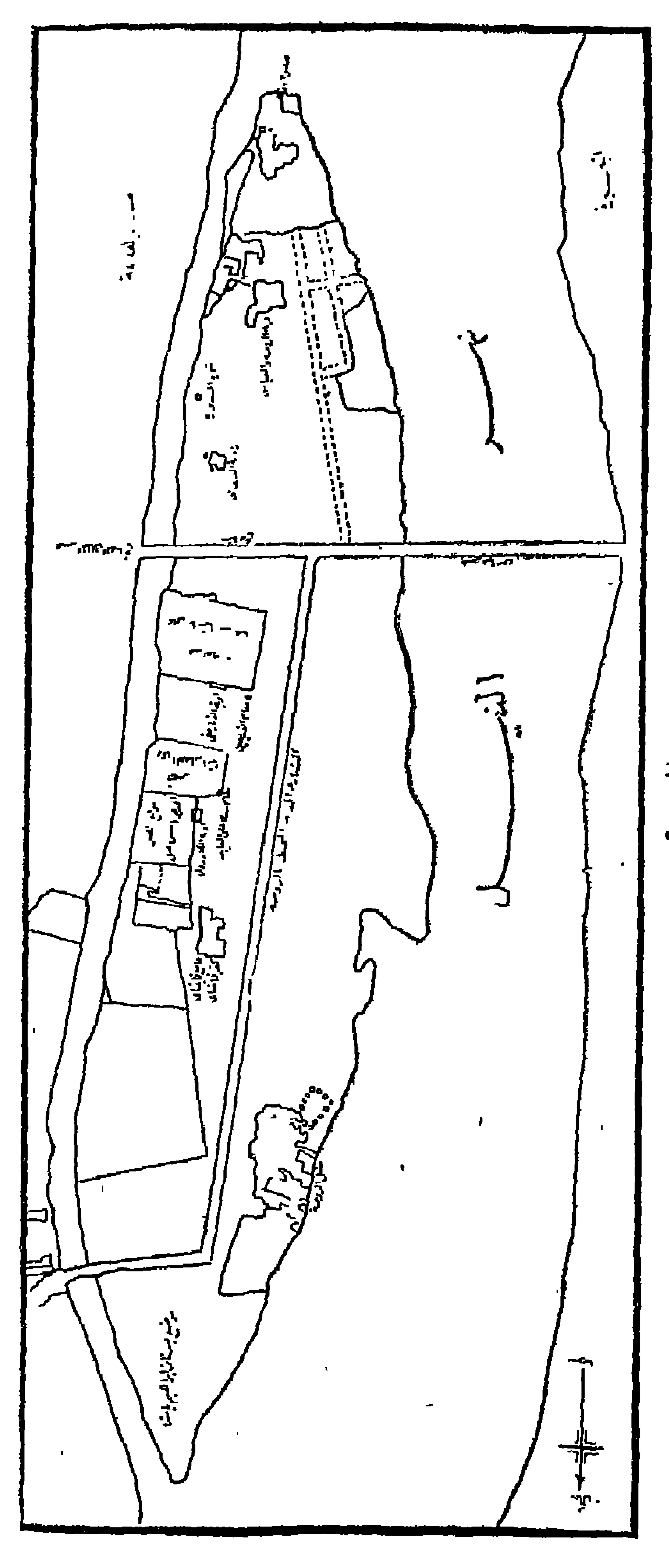
وقد ذكر فى كتاب وصف مصر الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية (ج ١٠ ص ٤٥٠ و ٤٦٥) أنه كان فى الجزيرة على عهد الاحتلال بقايا قصر بالمقياس جهة الشرق ومطل على الفرع الشرقى للنيل عرف بقصر السلطان الملك الصالح نجم الدين . ولم يكن وقتئذ باقيا منه غير قاعة كبيرة تتصل بها عدة أماكن أكثرها خرب ، ولكن يظهر لنا أن الذى أدركه رجال الحملة الفرنسية لم يكن من الأبنية الصلاحية القديمة ، بل كان مما جدده فيه السلطان الغورى من القاعات والمساكن .

ومما يذكر عن هذا القصر نزول السلطان سليم العثمانى به مدة مقامه بمصر ، وقد فضل الإقامة بالروضة ، فانتقل إليها ونزل بالمقياس .

ولما جاء الفرنسيون (١٧٩٨ — ١٨٠١) حصنوا جزيرة الروضة ووضعوا

عدة بطاريات مدفعية فى كل طرف من طرفيها وجعل من المقياس شبه قلعة . كما حصنوا شاطىء النيل مقابل الجزيرة لحماية الملاحة النيلية . وجعلوا فم المجراة طابية حصينة سميت طابية المجراة (أو السبع سواقى) واتخذوا من قصر إبراهيم بك (قصر العينى) مستشفى عسكريا حصيناً يسع ألف مريض وجريح . وألحقوا به البيت الذى كان بجواره . وقد عرف وقتئذ ببيت محمد كاشف الأرناءوطى وجعلوه مخزناً ومصنعاً لفرقة الهندسة . ثم حصنوا السور المحيط بها وركبوا عليه المدافع فصار حصناً منيعاً .

ولم يتبق من كل ذلك سوى أطلال من الجدران البائدة .. وقامت الدور الجميلة تغمر معالمها ، وشقت الطرق فى حناياها وانتثرت البساتين تطوى قصتها !



جزيرة الروضة

قلعة الطور

كان فى جنوبى مدينة الطور قلعة قديمة فوق البحر شيدت فى أيام السلطان سليم أدركها الخراب فى القرن الماضى واستخدم أهل المدينة حجارتها لبناء منازلهم . كما اتخذ بعض موظفى الحكومة ما بقى من حجارة أساسها لبناء منازل الحكومة . وقد كان تخطيطها ظاهراً فوق سطح الأرض حتى زال .

ومن المحتمل أن تكون تلك القلعة قد شيدت على بقايا الحصن العتيد الذى بناه هناك الملك عيسى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب . وكان قد أنفق عليه الأموال الجمة ، وأحكمها غاية الإحكام . فلما كان فى سنة ٦١٥ هـ وخرج الفرنج من وراء البحر طالبين بيت المقدس أمر ابنه بخرابها .

وكان فى قلعة الطور سجل كتبت فيه صور الدعاوى والحكم فيها وصكوك المبايعات . . . وهذا السجل يعرف بكتاب الأم وقد حفظه أهل الطور فى وكالة دير طورسينا بناء على رغبتهم . وقد ورد فيه أسماء بعض نظار هذه القلعة .

ولما تهدمت القلعة عام ١٨٢٦ لم يبق فى مدينة الطور إلا ناظر يرجع بأحكامه إلى محافظة السويس ، وكان يسكن منزلا فى المدينة .

وفى سنة ١٨٩٣ ألحقت الطور إداريا بمحافظة السويس .

ولما زحف الأتراك على مصر عام ١٩١١ كان ناظر الطور الملازم أحمد عيسوى فأمرت السلطة العسكرية بإخلاء مدينة الطور من السكان وأعدتها للدفاع .

ففى أوائل عام ١٩١٥ فى أثناء تقدم الأتراك إلى مصر أرسلوا قوة مؤلفة من ٧٠ جنديا للاستيلاء على الطور بقيادة ضابط ألمانى . فوصلوا ضواحى الطور فى ١٨ يناير سنة ١٩١٥ واحتلوا موقعاً حصينا فى سفح جبل الحمام . ولكن تصدت لهم قوة من الجنود المصريين والهنود ، فأبادوا معظمها وأسروا من تبقى منهم ، ولم يقتل من القوة المصرية والهندية سوى جندى واحد .

قلعة نخل

هى إحدى القلاع التى شيدت فى عصر السلطان « قنصوه الغورى » (١٠٥١ هـ — ١٥١٦ م) فى بلدة نخل بدرب الحج المصرى . وقد عرفت قديما بالخان .

وقلعة نخل قائمة على هضبة عن يمين أبو طريفية قرب مصبه بوادى العريش على نحو ٨٠ ميلا من السويس و ٧٠ ميلا من العقبة وتعلو ١٧٥٠ قدما عن سطح البحر .

وتخطيط القلعة مربع الشكل تقريبا طول الجانب من ٣٧ ياردة إلى ٣٩ ياردة ، وعلوها من ٢١ قدما إلى ٢٥ قدما، وسمك حائطها ثلاث أقدام ونصف قدم فى أسفله وقدمان ونصف قدم فى وسطه وقدم فى أعلاه. ولها خمسة أبراج ، فى كل زاوية برج والبرج الخامس فى منتصف الضلع الشمالية . وبناؤها بالحجر الكلسى المنحوت .

وللقلعة بوابة عظيمة مصفحة بالحديد معقودة عتبتها بقنطرة تفتح للشرق وتقفل من الداخل بمتراس من الخشب تدخل من هذه البوابة فى دهليز طوله خمسة أمتار فتلاقى عن يسارك بوابة عظيمة أخرى تفتح للشمال تؤدى إلى فناء القلعة كانت فيه شجرة سدر قديمة .

ويحيط بالصحن طبقتان من الغرف الضيقة المسقوفة . وكان سقفها قليل الارتفاع جداً يكاد الرجل الطويل القامة يمسه برأسه ، فرممها بعض محافظى سيناء فى أوائل هذا القرن . وجعلت فيها الطبقة العليا فيما بعد مسكنا للمحافظ وناظر القلعة والسفلى مكتبا لهما ومخازن .

وفى أعلى السور فوق سطح الطبقة العليا وفى جدران الأبراج مزاغل إلى الجهات الأربع .

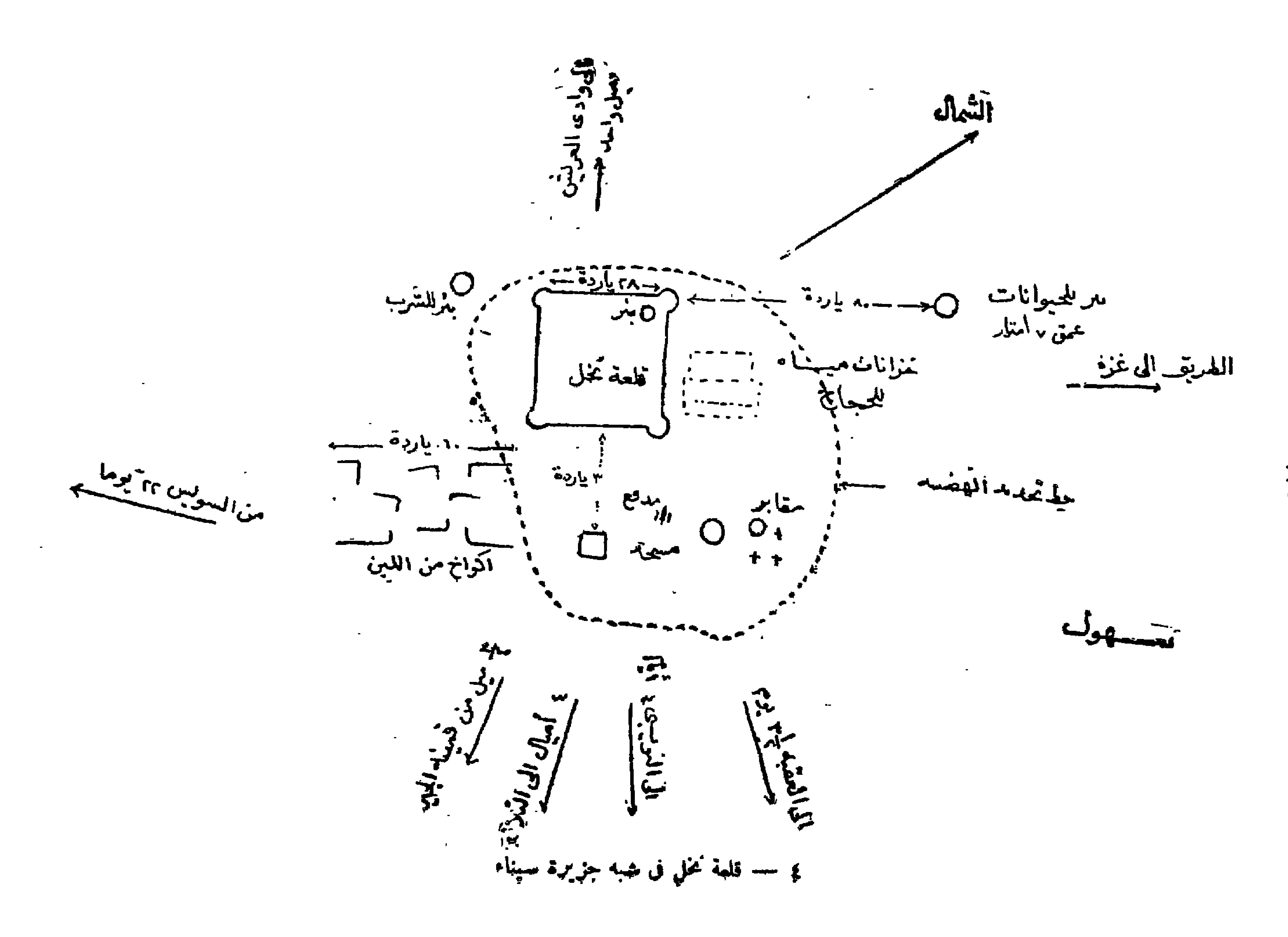
وفى واجهة قاعة نخل فوق البوابة المذكورة ثلاثة أحجار تاريخية فى صف واحد ، بين الحجر والآخر نحو ذراع عليها كتابة بالعربية بحروف نافئة .

الحجر الأول عن يمين الداخل مستدير الشكل قطره نحو قدم لم يبق ظاهراً من النقش عليه سوى هذه الكلمات . . « مولانا السلطان . . عز نصره » .

والحجر الثانى فى الوسط فى شكل الحجر الأول وحجمه وعليه هذه العبارة ... مولانا السلطان مراد خان عز نصره سنة . . . والتاريخ غير ظاهر تماما وقد رممها هذا السلطان ولم يكن مشيدها كما يظهر لأول وهلة .

والحجر الثالث عن اليسار مستطيل الشكل منقوش عليه هذه العبارة « جدد هذا المكان المبارك مولانا السلطان أحمد بن السلطان محمد خان عز نصره مدة راجى محمد باشا سنة ١١١٧ هـ — ١٧٠٦ م » .

وقد نسف رجال الحامية المصرية فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٤ جزءاً عظيما من قلعة نخل ودمروها عقب انسحابهم من نخل وسيناء . كما نسفوا أيضاً سداً للمياه كان على بعد كيلو متر من القلعة .



٤ — قلعة نخل في شبه جزيرة سيناء

قلعة العقبة

(٩٢٢ هـ — ١٥١٦)

العقبة مدينة صغيرة فى رأس خليج العقبة على نحو ١٩٠ ميلا من السويس بطريق البحر و ١٥٠ ميلا بطريق البر . والمدينة الحالية حديثة العهد قامت على أنقاض مدينه أيلة التى ورد اسمها كثيراً فى الكتب السماوية وأخضعها النبطيون واليونان والرومان والعرب .

وتقوم قلعة العقبة فى جنوبى المدينة وتلصق بها من جهة الشرق وعلى بعد خمسين متراً من شاطىء الخليج . وتخطيط القلعة مربع الشكل مبنى بالحجارة المنحوتة . وكان على كل ركن من أركانها الأربعة برج فتهدمت . ولها بوابة عظيمة بقنطرة تفتح إلى الشمال الشرقى يدخل منها إلى صحن القلعة بدهليز عظيم معقود بالقناطر . وفى أول الدهليز عن يمين الداخل وشماله ديوانان مشيدان بالحجر نقش على جدرانهما وواجهة البوابة بأحرف بارزة كبيرة اسم مشيد القلعة ومرممها . أما مشيد القلعة فهو السلطان قنصوه الغورى (١٥١٦ م) أما مرممها فهو السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥ م) وعلى جدار الديوان الأيمن نقشت هذه العبارة :

« أمر بإنشاء هذه القلعة المباركة السعيدة مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قنصوه الغورى سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والملحدين محى العدل فى العالمين » وفى واجهة القلعة على صدغى القنطرة حجران مستديران نقش على كل منهما هذه العبارة « لمولانا السلطان الملك الأشرف . مراد بن سليم خان . عز نصره جدد هذه القلعة » وفى داخل البوابة إلى يسار الداخل حجران آخران مستديران نقش على كل منهما هذه العبارة :

« لمولانا السلطان مراد بن سليم عز نصره . جدد هذه القلعة سنة ٩٩٦ هـ — ١٥٨٧ م » وكانت تحتل قلعة العقبة حامية من الجنود المصريين إلى أوائل عام ١٨٩٢ حينما سلمت إلى تركيا . وتتمتع العقبة بميزتين جليتين جعلتا لها مقاما ممتازاً هما موقعها الحربى الحصين وموقعها التجارى الفذ . فهى من الوجهة الحربية تسيطر على الخليج المعروف باسمها سيطرة مطلقة تجعل الأسطول الراسى فى مينائها أمنع من عقاب الجو .

قلعة العريش

(٩٦٨ هـ — ١٥٦٠)

كان تخطيط هذه القلعة مربع الشكل . طول كل من ضلعيه الشرقى والغربى نحو ٧٥ متراً ، وطول كل من ضلعيه الشمالى والجنوبى نحو ٨٥ متراً . وكان ارتفاع سورها نحو ثمانية أمتار ، وفى أعلاه ستة مزاغل لضرب النار ، وفى كل ركن من أركان القلعة الأربعة برج وضع فيه مدفع وفى أسفل كل برج قبو لخزن الذخيرة والقنابل .

كان بناء القلعة بالحجر الرملى الصلب . وقد أحاط بالقلعة قديما خندق متسع . قامت قلعة العريش على ذلك التل المرتفع الذى يقوم عليه المستشفى الأميرى جنوبى العريش . وقد كان لها باب عظيم بقنطرة ومصفح بالحديد الصلب،ارتفاعه نحو خمسة أمتار وعرضه ثلاثة أمتار ونصف متر . وكان إلى جانبى الباب من داخل السور ثلاث غرف غرفة إلى يمين الداخل وفيها حرّاس القلعة ، وغرفتان إلى شماله وفيها خزينة المحافظة ومحفوظاتها القديمة . وفى فناء القلعة بناء واسع بطبقتين الطبقة العليا سكن ناظر القلعة ومفتش المحافظة ، والطبقة السفلى ديوان لكتاب المحافظة . وإلى الجانب الشرقى من السور مكتب الناظر والمحكمة الجزئية ومكتب التلغراف والبريد، وإلى الجانب الجنوبى منازل للبوليس ومصلى . وبين بناء الوسط وبناء الجنوب حديقة صغيرة غرست فيها بعض الأشجار الظليلة . وبينها وبين بناء الشرق بئر عمقها ثمان وثمانون قدما وقطرها أربعة أمتار وماؤها يميل إلى الملوحة .

وكان فوق باب القلعة ست قطع حجارة تاريخية من الرخام جعلت بعضها فوق بعض فى خط عمودى . وهذه صورة ما نقش فيها مبتدئا من الأعلى .

الحجر الأول : وما النصر إلا من عند الله .

الحجر الثانى : الطغراء السلطانية وفيها اسم السلطان سليم سليمان ، وتحت الطغراء صورة سيد محمد أسعد ، خليفة تاريخى سنة ١٢١٤ — سنة ١٧٩٩ م

الحجر الثالث والرابع والخامس : ثلاثة أبيات شعر بالتركية على كل حجر بيت وسنة إنشاء القلعة .

وترجمتها حرفيا :

لما أتى بعون الله السلطان لفتح الحصن أمرته الملائكة كلها فى هذا الفتح الأغر قال وزيره الأعظم يوسف ضيا باشا تأريخا فى الحروب الحالية من المصراع الثانى الذى نقش فى طابق الحصن الأعلى — حبذا الفاتح السلطان سليم خان الثالث الغازى فإنه بفتحه العريش قد علق سيفه فى العرش الأعلى سنة ١٢١٤هـ — ١٧٩٩ م .

الحجر السادس :

أمر بإنشاء هــذه القلعة مولانا السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن السلطان عثمان خــــلد الله ملكه وقدس شوكته وأعز دولته بمحمد وآله وسلم .

قلعة العريش والحملة الفرنسية

طافت برأس نابليون عدة مشروعات حربية تتعلق بمدينة السويس . فلما تم له احتلالها اعتزم أن يرتادها بنفسه لدراسة موقعها . فخرج من القاهرة يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٩٨ فى جماعة من كبار القواد والمهندسين وبعض الأعيان المصريين فبلغوها يوم ٢٦ ديسمبر ليلا ، وجاب نواحى طور سيناء وبرزخ السويس واستطلع آثار ترعة الفراعنة القديمة وخليج أمير المؤمنين . وعهد إلى أحد مهندسيه دراسة مشروع حفر ترعة تصل البحرين الأبيض والأحمر .

وبينما كان نابليون يقوم بهذه الأبحاث العلمية والعسكرية علم أن بعض قوات أحمد باشا الجزار والى عكاء احتلت قلعة العريش يوم ٢ يناير سنة ١٧٩٩ . فكان هذا الاحتلال نذيراً بزحف الجيش العثمانى على مصر .

وفى ذلك الوقت تحالف العثمانيون مع الإنجليز ، فعزم نابليون على أن يسبق خصميه إلى العمل فقرر مهاجمة الجيش العثمانى فى سورية .

وكانت القوات العثمانية والمماليك متمنعة فى العريش، فزحف عليها الجيش الفرنسى وواجه الجيش العثمانى بها بعد أن احتلت بعض قواته قطية وحصنها لتكون نقطة ارتكاز وتموين للجيش الزاحف .

ودار قتال شديد فى العريش بين الفريقين انتهى بهزيمة العثمانيين ليلة ١٥ فبراير، واستمرت قلعة العريش تقاوم مقاومة شديدة إلى أن سلمت يوم ٢٠ فبراير سنة ١٧٩٩ .

ثم تابع الفرنسيون زحفهم إلى سوريا إلى أن حاصروا عكا وارتدوا عنها خائبين، وقد دفنت تحت أسوارها كل أحلام وآمال نابليون .

رفع الحصار عن عكا يوم ٢٠ مايو سنة ١٧٩٩ وبدأ الجيش فى التقهقر عن طريق فلسطين والصحراء ، فبلغت مقدمة الجيش « خان يونس » يوم ٢١ مايو حيث استراح فيها أول يونيو ووصل إلى العريش فى اليوم نفسه ، فأمر الجنود بأن يستريحوا طوال اليوم التالى . وقضى هو ذلك اليوم فى تعهد قلعة العريش التى كانت فى ذلك الحين مفتاح مصر من الجهة الشرقية .

وقد كتب المسيو كوستاز .أحد مهندسى الحملة الفرنسية الذين رافقوا نابليون فى حملته على سوريا رسالة عن أهمية العريش قال فيها(١) .

إن قلعة العريش تكسب من يحتلها مزايا عظيمة تضمن له الانتفاع بآبار المياه العذبة التى هى وإن لم تكن فى عذوبة ماء النيل أوالسين إلا أنها صالحة جداً للشرب ووجود هذه الآبار يسهل إنشاء مخازن ومستودعات للجنود الذين يخترقون الصحراء من مصر إلى سوريا أو من سوريا إلى مصر . وقد كانت العريش دائماً جزءاً من مصر وهى ضرورية لضمان الدفاع عنها ، ولذلك استثناها نابليون من القلاع التى هدمها فى أثناء الحملة على سوريا ، فاستبقاها وأمر بتقويتها . ولم ينقطع العمل فيها مدة أربعة أشهر لجعلها أكثر مناعة . وأنفذ لها أخيراً طائفة من المهندسين وفرقة من العمال لإصلاح استحكاماتها وزيادة قوة الدفاع عنها . ولذلك ترك فيها نابليون حامية من الجنود وزودها بالمدفعية .

ثم تغيرت الأحوال السياسية فى أوربا وتطور الموقف الحربى للفرنسيين فى مصر بعد سفر نابليون إلى فرنسا . وكان الجنرال كليبر الذى تقلد قيادة القوات الفرنسية

---

(١) جريدة كوريه دى ليجبت — عدد ٣١ بتاريخ ٧ يوليو سنة ١٧٩٩ .

فى وادى النيل يسعى سعياً حثيثا إلى عقد الصلح مع الأتراك بالرغم من انتصاره عليهم فى معركة عزبة البرج .

وكانت تركيا قد أعدت العـــدة للزحف على مصر بينما كانت سفن الأسطول الإنجليزى تراقب السواحل المصرية بدقة .

ثم انتهت مفاوضات الصلح بالفشل وكانت تجرى بين كليبر والسير سيدنى سميث لوضع معاهدة العريش .

كان الجيش العثمانى بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا قد أتم معدات الزحف على مصر من طريق سوريا ، وتقدم من غزة قاصدا العريش فوصل تجاهها يوم ٢٢ ديسمبر سنة ١٧٩٩ وحاصرها ثم طلب من حاميتها تسليم القلعة .

وكان الفرنسيون قد عنوا بتحصين قلعة العريش وتزويدها بالمدافع والذخائر لتستطيع رد هجوم الجيش العثمانى وتعطل زحفه مدة طويلة من الزمن . لكن فريقا من حامية العريش وكانت تؤلف من ٤٥٠ جنديا فرنسيا دبت فيهم روح التمرد والخروج على النظام واعتبروا إرسالهم إلى العريش عقوبة لهم فاشتد سخطهم وتمردهم وضعفت روحهم المعنوية ، وجعلوا يرقبون الفرصة للكف عن القتال . فلما وصل الجيش العثمانى وضرب الحصار عليهم تمرد فريق من الحامية وطلبوا من القائد تسليم القلعة . فلم يجبهم إلى طلبهم وهدد المتمردين بأشد العقاب . فعاد النظام مؤقتا بين الجنود واستمرت المقاومة عدة أيام إلى أن انفجرت روح التمرد يوم ٢٩ ديسمبر لمناسبة هجوم شديد من الجنود العثمانيين على القلعة . فامتنع المتمردون عن المقاومة وسلموا القلعة . فاحتلها العثمانيون يوم ٣٠ ديسمبر وأعملوا فى حاميتها السيف وقتلوا منهم ٢٣٠ وأسروا الباقين ومنهم الكابتن جازلاس[١]

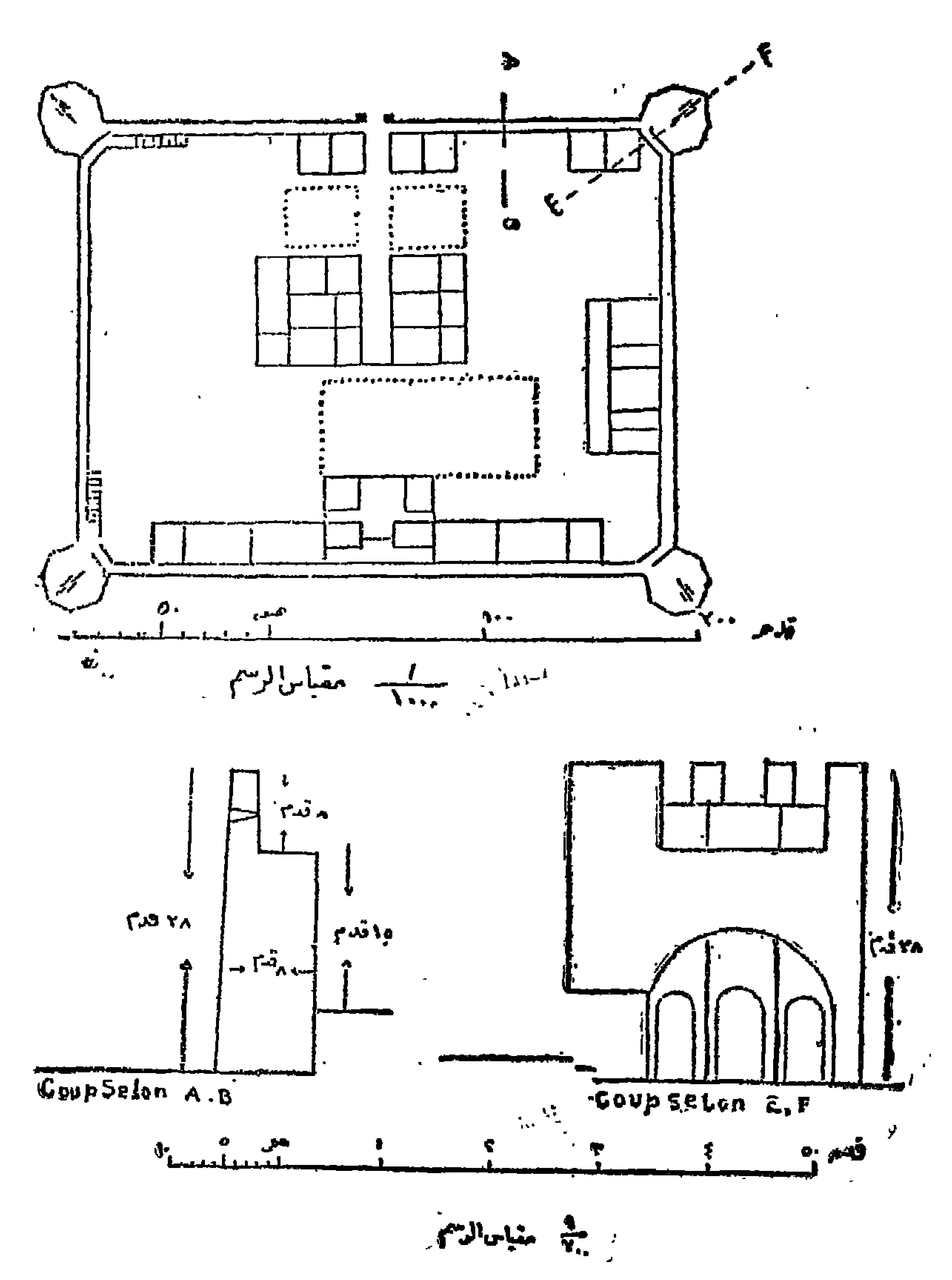
وبإخفاق معاهدة العريش حدثت عدة معارك بين الفرنسيين والعثمانيين كانت أهمها معركة عين شمس (١٩ مارس ١٨٠٠) التى هزم فيها الجيش العثمانى هزيمة منكرة وطارده نحو بلبيس فالصالحية ومنها إلى الشام .

وفى ١٤ يونيو ١٨٠٠ قتل كليبر فخلفه الجنرال مينو الذى اتبع أسلوبا قاسيا فى إخضاع الثورات المحلية التى نشبت فى أنحاء القطر ، وأشدها فى القاهرة ، وفى أيامه انسحبت القوات الفرنسية من مصر (ديسمبر ١٨٠١) .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى . تاريخ الحركة القومية جـ ١ ص ١٣٤ .

قلعة العريش



٥ ــ مخططان لقلعة العريش فى شبه جزيرة سيناء

قلاع الإسكندرية وأسوارها

كانت الإسكندرية فى عهودها القديمة منيعة بأسوارها وأبراجها وحصونها، ولقد عانى المسلمون فى فتحها الشدائد، وظلوا فى حصارها ومهاجمتها أربعة عشر شهراً حتى استطاعوا التغلب عليها.

فلما كانت خلافة عثمان بن عفان عزل عمرا عن الولاية، وولى مكانه عبد الله ابن سعد بن السرح، فلم تمض على ولايته أيام، حتى ثارت الإسكندرية على حاميتها فقتلوها وملكوا المدينة وخرجوا منها لقتال العرب، فطلب هؤلاء من الخليفة أن يعيد عمراً إلى الولاية لهيبته ومعرفته حرب الأهالى. فأعاده إليها وكانت حرب شعواء بينه وبين المتمردين، كتب الله النصر فيها للعرب. وقد أقسم عمرو لئن فتح الله عليه الإسكندرية ليهدمن حصونها وأســوارها. فلما انتصر بر بقسمه وسواها بالأرض، حتى لا يعتصم مقاتلتها بأسوارها وحصونها.

ولما استقل أحمد بن طولون بمصر (٢٦٥ هـ — ٨٧٨ م) أحاط الإسكندرية بسور جديد خوفا من غارة جنود الخليفة العباسى عليها، وقيل إن ذلك السور هو الذى بقى إلى أن تغلب عليها الفرنسيون فى زمن نابليون. وقيل أيضاً إنه تهدم وإنه شيد ثانياً فى أيام حكم المماليك البحرية وإن هذا هو الذى بقى عند وصول الحملة الفرنسية.

ويذكر ابن عبد الحكم فى كتابه فتوح مصر [١] أن الإسكندرية كانت تضم ثلاث مدن بعضها إلى جنب بعض. موضع المنارة وماوالاها. والإسكندرية وهى موضع قصبة اليوم، ونقيطة. وكان على كل واحدة منهن سور، وسور من خلف ذلك على الثلاث مدن يحيط بهن جميعا.

وذكر المقريزى فى كتاب الخطط أنه كان على الإسكندرية سبعة أسوار من

---

(١) صفحة ٤٢.

أنواع الحجارة المختلفة الألوان بينها خنادق وبين كل خندق وسور فصول[1] .

أما خليل بن شاهين الظاهرى حاكم الإسكندرية فى عهد السلطان الأشرف برسباى (توفى عام ٨٥٠ هـ — ١٤٦٨ م)فيقول فى كتابه زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك[2] عندكلامه على ثغر الإسكندريةوحصونه : إن ثغر الإسكندرية يشتمل على سورين محكمين بهما عدة أبراج يحيط بها خندق يطلق فيه الماء من البحر عند وقت الضرورة . وللثغر عدة أبواب محكمة حتى إنه على كل باب منها ثلاثة أبواب من حديد ، وبأعلى الأبراج مناجيق ومكاحل ، وهذا الثغر فى غاية التحصين وعلى كل برج منه أعلام وطبلخانة وأبواق وحرسية » .

وربما يكون وصف النويرى المؤرخ الإسكندرى الذى عاش فيها حوالى القرن الرابع عشر أقرب إلى الدقة والوضوح . فقد ذكر أنه كان يحيط المدينة ثلاثة أسوار . أحدها داخلى مما يلى البلد ، وثانيها خارجى يشرف على ما يحيط بها ، والثالث بينهما . وكان هناك بين كل سور والآخر فيصل يفصل بينهما . كما أنه كان للسور الخارجى المطل على البحر أبراج وقلاع مشحونة بالعدد والسلاح والأتراس تخفق عليها الأعلام . وكان للسور الخارجى عدة أبواب كان أهمها باب رشيد فى شرق المدينة ، وهو المؤدى إلى الطريق المنتهية إلى مدينة رشيد . وباب البحر وكان يواجه الميناء الشرقية ،والباب الأخضر ، وهذان كانا فى شمالى المدينة . وباب القرافة فى غربيها ، وكان لا يفتح إلا فى يوم الجمعة . وباب سدره أو باب العمود أو باب البهار فى جنوبها . وكانت العادة فى تلك الأيام إذا زار السلطان المدينة وجال فيها أن تفك أبوابها وتلق على الأرض إلى أن يغادرها فيعاد تركيبها .

وكان هناك خندق يحيط بالسور من ناحيته الغربية عند الباب الأخضر (باب الغرب) ، وكان قصر السلاح بالقرب من هذا الباب ، وهو قصر يضم قاعات كثيرة مشحونة بمختلف السلاح والعتاد الحربى . وبالقرب من الباب الأخضر ضريح الشيخ أبى بكر الطرطوشى وعلى مسافة يقوم الجامع الغربى أكبر جوامع المدينة وإلى جواره دار السلطان .

---

(١) صيغة الجمع لكلمة فاصل .

(٢) صفحة ٣٩ .

وكان للإسكندرية ميناءان ، يفصلهما لسان طويل من الأرض ، اتصلت به جزيرة منارة الإسكندرية ، وكانت الميناء الشرقية فى القرون الوسطى مخصصة لسفن المسيحيين ، وإلى القرب منها باب البحر والباب الأخضر ، وقد عرفت هذه الميناء ببحر السلسلة لأنه كانت له سلسلة من الحديد تغلق بها الميناء فى الليل لحراستها ومقاومة الاعتداء عليها .

وقد خرّب القبرصيون الكثير من تلك الأسوار والأبواب فى أثناء غاراتهم المتكررة على الثغر

وفى أخريات القرن الخامس عشر أمر السلطان قايتباى ببناء حصن كبير يعرف منذ إنشائه ببرج قايتباى ، ووقف عليه الأوقاف الجليـــلة ، كما عنى بتحصين الإسكندرية ورشيد ومعظم الثغور فى الديار المصرية وسورية ، كما عنى بذلك السلطان الغورى من بعده .

وقد استطاع المؤرخ كاهلة أن يخرج من هذه الأوصاف بالنتائج التالية :

ا ــ السور الشمالى : يحتوى على باب البحر ــ باب الميدان ــ باب الحمام ــ الباب الأخضر .

ب ــ السور الغربى : يحتوى على باب القرافة (الخوخة) .

حـ ــ السور الشرقى : يحتوى على باب رشيد .

ء ــ السور الجنوبى : يحتوى على باب سدره أو باب الشجرة ــ باب العمود ــ باب سيدى الصورى ، وقديما كان يطلق على أبواب السورين الشرقى والجنوبى ــ أبواب البر .

وعند قدوم الحملة الفرنسية كان حصون الإسكندرية عبارة عن سور محيط فيه أبراج ومزاغل ومرامى للنار وحوله خندق يصل إليه ماء البحر .

وكانت الجهة الشمالية من هذا السور (سور العرب) تبتدىء من موقع الباب رقم (١٠) من أبواب مخازن الجمرك الحالية أمام شارع البحرية وتمتد فى استدارته إلى ناحية الشرق مسافة قدرها ٣٤ متراً حيث كان يوجد فى نهاية هذه المسافة باب .

يدعى باب البحر الغربي الباب الأخضر . وموقعه الآن عند تقابل شارع الطوبجية بشارع الباب الأخضر . ثم يمتد في استدارته أيضاً إلى ناحية الشرق مسافة أخرى قدرها ٣٥٠ مترا إلى أن يقطع شارع دانسطاطي . ثم ينحرف إلى الجنوب قليلا ممتدا مسافة قدرها مائة متر فينكسر متجهاً إلى ناحية الشمال ممتدا مسافة قدرها ١٥٠ مترا حتى يصل إلى نقطة موقعها الآن وراء المحكمة المختلطة بقدر ٦٠ مترا تقريباً . ثم يعتدل مشرقا مسافة قدرها ١٠٠ متر حيث كان يوجد في نهاية هذه المسافة منه باب يدعى (باب البحر الشرقي) كان موقعه بالقرب من تقاطع شارعي مسجد العطارين والسبع بنات الآن ويمتد مسافة أخرى في هذا الاتجاه قدرها ٢٢٠ مترا حيث موقع البورصة الآن ثم ينكسر مرة أخرى متجها إلى الشمال مسافة قدرها ١٨٠ مترا مخترقا شارع البورصة القديمة إلى نقطة تقابله بشارع سعد زغلول ثم يعود فيعتدل إلى ناحية الشرق الشمالي ممتدا مسافة قدرها ٥٨٠ مترا تقريباً حتى يصل إلى موقع محطة الرمل الآن . ثم يرجع فينكسر إلى ناحية الجنوب ممتدا مسافة قدرها ٣٢٠ مترا غربي شارع المسلة بمقدار ٣٠ مترا ثم يعتدل مرة أخرى إلى ناحية الشرق ويكون حينئذ في شمال شارع السلطان حسين كامل الآن وعلى بعد ٣٠ مترا منه ممتدا مسافة قدرها ١١٠٠ متر حتى يصل إلى موضع حدائق البلدية الآن من شارع بلجيكا .

وتبتدئ الجهة الشرقية منه عند تقاطع شارعي بلجيكا والسلطان حسين كامل في موضع حدائق البلدية الآن ويتجه السور من هذه الجهة نحو الجنوب ممتدا مسافة قدرها ٢٣٠ مترا تقريباً حيث كان يوجد في نهاية هذه المسافة منه باب يدعى (باب رشيد) أو الباب الشرقي ثم يمتد مسافة أخرى في هذا الاتجاه قدرها ٣٠٠ متر تقريباً حتى يصل إلى موقع شارع الأمير عبد القادر الحالي .

وكانت تبتدئ الجهة الجنوبية من السور من الجهة الشرقية الجنوبية . ثم يمتد السور منها ناحية الغرب مسافة قدرها ١٠٠٠ متر تقريباً حتى يصل إلى موقع محكمة العطارين الجزئية الآن . ثم يميل إلى ناحية الشمال قليلا ممتدا مسافة ١٠٠ متر حتى يصل إلى جنوبي كوم الدكة . ثم ينحرف إلى ناحية الجنوب قليلا ممتدا مسافة قدرها ٢٧٠ مترا إلى أن يصل إلى موقع محطة مصر القديمة حيث كان يوجد في نهاية هذه المسافة منه باب يدعى قديما باسم (باب الصوري) ثم دعي بعد ذلك

باسم الباب الجديد وباب محرم بك . ثم يمتد فى هذا الاتجاه مسافة أخرى قدرها ٣٥٠ مترا إلى أن يصل إلى مبتدأ موقع شارع الخديو الأول ثم يعتدل إلى ناحية الغرب ممتداً مسافة قدرها ٣٥٠ مترا فى امتداد شارع الخديو الأول حيث كان يوجد فى نهاية هذه المسافة منه باب يدعى باب سدره أو باب العمود وموقعه الآن عند تقاطع شارعى عمود السوارى والخديو الأول ثم يمتد فى هذا الاتجاه مسافة أخرى قدرها ٩٧٠ مترا إلى أن يصل إلى موقع بورصة مينا البصل الحالية . ويدور حولها ممتداً فى استدارته مسافة قدرها ٢٤٠ متراً تقريباً إلى أن يصل إلى ترعة المحمودية .

أما الجهة الغربية من السور المذكور فكانت تبتدئ من جنوبى هويس ترعة المحمودية الواقع أمام شون الأقطان ويمتد السور منها متجهاً إلى الشمال مسافة قدرها ٣٥٠ متراً حيث كان يوجد فى نهاية هذه المسافة منه باب يدعى (باب المغارات) وموقعه الآن بشارع الكوبرى القديم أمام مكابس الأقطان . ثم يمتد فى هذا الاتجاه مسافة قدرها ٨٠ مترا ثم ينكسر متجها قليلا إلى ناحية الشمال الغربى ممتدا فى هذا الاتجاه مسافة قدرها ٣٠٠ متر حيث موقع رصيف جمرك المحمودية الآن ثم يعتدل إلى ناحية الشمال ممتدا مسافة قدرها ١٠٠ متر ماراً بموقع مخازن الجمرك الآن ثم يستدير نحو الشرق قليلا من اتجاهه إلى ناحية الشمال ممتدا فى هذا الاتجاه مسافة قدرها ٦٥٠ مترا مارا بمواقع مخازن جمرك الإسكندرية ومكتب البريد حيث ينتهى بالقرب من مواقع مخازن الدخان الآن غربى شارع البحرية . أى عند بدايته فى موقع الباب رقم (١٠) الآنف الذكر [١] .

وكان طراز هذا السور الحربى على ما يلوح من البناء الفاخر كما تدل على ذلك صوره ورسـومه المخططة فى كتاب « وصف مصر » الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية .

ونلخص هنا ما ورد فى كتاب « وصف مصر » عن هذا السور :

---

(١) نقلنا هذا الوصف الطبوغرافى الخاص بسور الإسكندرية عن كتاب الأمير عمر طوسون يوم ١١ يوليو ١٨٨٢ من ١٤ و ١٥ و١٦

يبدو لنا أن هذا السور الذى يبلغ امتداده ٧٨٩٣ متراً قد شيد العرب أكبر جزء منه فى القرن التاسع الميلادى (الرابع الهجرى) وحالة جدرانه الآن التى يحميها خندق ضيق سيئة على وجه العموم .

وفى هذا السور خمسة أبواب منها اثنان فى واجهة المدينة الحديثة ، واحد فى الشرق يسمى باب رشيد والآخر فى الجنوب يسمى باب العمود — عمود السوارى — ثم الباب الذى فى الغرب وهو الذى يطل من البرج الهائل على المرفأ القديم (الميناء الغربية) وهذا البرج هو آخر الأبراج غرباً . وهذه الأبواب مفتوحة فى الأبراج الراكبة فوق السور . وفتحاتها تواريها من الخارج حيطان الأبراج . ومصاريع هذه الأبواب المصنوعة من خشب الجميز . وواجهاتها الخارجية مكسوة بصفائح من الحديد مثبتة بمسامير ذات رءوس بارزة مشطوفة. ويوجد على وجهات هذه الأبواب كتابة عربية كوفية وغير كوفية منها يعلم زمن إنشائها وما يؤسف له أشد الأسف أنه لم تنقل الكتابة المذكورة ليعلم منها اسم منشئها .

ويذكر عمر طوسون أن عدد الأبواب لا بد أن يكون ستة لا خمسة لأنه كان يوجد فى الجنوب بابان لا باب واحد .

وعدا الأبراج العديدة التى شيدت خلال السور حسب الحاجة فى أعمال الحصون . كانت توجد قلعة فاروس (قايتباى) وهى عبارة عن سور محصن على طراز العصر الذى شيدت فيه . وتحتوى على برج مربع الشكل مشيد فى أركانه أربعة أبراج صغيرة . وبها شبه شرفة فيها مصباح يضاء الليل . وكان فى غرف هذا البرج العليا أكداس من الأسلحة المختلفة تراكم فوقها الصدأ وتدل حليها وأشكالها على أن بعضها من أسلحة الصليبيين والبعض الآخر من أسلحة حملة لويس السادس عشر المنكردة (؟) كما كان يوجد حصن آخر يقال له طابية فاروس الصغيرة لوقوعه إزاء القلعة السابقة وهو الطابية المعروفة بطابية السلسلة الحالية . وهذه الطابية كانت مشيدة فى نهاية خط الصخور التى هى نهاية الميناء الشرقية من جهة الشرق . وقد بنيت هذه الطابية للدفاع عن هذه الميناء . والصخور الموصلة لهذه الطابية الصغيرة إلا برج مربع الشكل متخرب به بعض أجزاء من مدافع شوه الصدأ عديدها من جراء رطوبة البحر التى حلت الحديد وجعلته شرائح معدنية لا قيمة لها .

لما احتل الفرنسيون الإسكندرية نصب الجنرال ما رمون قائداً لها ، وقد عنى بتحصين المدينة وتولى الجيش إنشاء ملعتين لصد هجمات البوارج الإنجليزية ، وكانت القلعة الاولى بكوم الدكة والقلعة الثانية بكوم الناضورة .

١ — حصن كوم الدكة .

وهو الحصن الباقى إلى الآن وسموه حصن كريتان (Cretin) تخليداً لذكرى المهندس الحربى الكولونيل كريتان الذى أشرف على بنائه ثم قتل فى معركة أبى قير التى نشبت بين الفرنسيين والأتراك فى ذلك الحين .

٢ — حصن كوم الناضورة .

وهو أيضاً لا يزال باقياً إلى الآن وسموه حصن كافاريللى (Cafarelli) باسم الجنرال الذى كان مشرفاً على الأعمال الهندسية الحربية . وقد فقد هذا الجنرال إحدى ساقيه قبل مجيئه إلى مصر . واستعاض عنها بساق خشبية وقتل فى حصار عكاء .

٣ — حصن لو توركه .

وهو حصن أقامه الفرنسيون غربى الحصن السابق على شاطئ البحر فى الموضع الذى به طابية سيدى صالح الحالية . ولو تورك اسم أحد القواد الفرنسيين .

٤ — حصن كليوباترة .

وهو حصن شيده الفرنسيون على المرتفعات القائم عليها الآن المستشفى الأميرى وسموه بهذا الاسم لمجاورته بمسلة المسماه للسلة كليوباترة .

وقد أقاموا عدا هـــذه الحصون صفوفا من المدافع « بطاريات » فى المواضع الآتية :

١ — بطارية فى نهاية رأس التين فى الموضع الذى صار فيما بعد طابية الغفار .

٢ — بطارية فى شمالى رأس التين فى الموضع الذى صار فيا بعد طابية سراى رأس التين .

٣ — بطارية فى موضع ميس ضباط الحرس الملكى . وكان فى موضعها قبل ذلك طابية الإسبتالية .

٤ — بطارية فى موضع طابية الأطة الحالية (القضاء) .

وقد نصب الفرنسيون المدافع فى قلعة قايتباى وفى قلعة أبى قير وبنوا قلعة بجزيرة العجمى مكان البرج القديم الذى كان بها ووضعوا المدافع على مدخل الميناء فى نهاية شبه جزيرة رأس التين .

ولما جاء الجنرال مارمون إلى الاسكندرية لزيارتها عام ١٨٣٥ ذكر فى كتاب وصف رحلته أنه وجد قلعتى كافاريللى وكريتان كما كانتا فى عهد الحملة الفرنسية ، ثم جددهما محمد على .

قلعة قايتباى

(٨٨٢ هـ — ١٤٧٧)

من أظهر القلاع المصرية على الإطلاق، مكانة وأهمية حين نذكر اسمها تتوارد فى الأذهان صورة متعاقبة لنضال عسكرى ، تتصل أسبابه بحياة وادى النيل .

ومثل هذه القلعة التى يحتضنها ثغر الإسكندرية ، على ساحل البحر المتوسط ، تناظر — منعة وأهمية — قلعة الجبـــل التى تنهض بالقاهرة ، على سفح المقطم . ما زالتا باقيتين — رغم تقدم الزمن — رمزين لأمجاد مصر الإسلامية .

ويرجع عهد هـذه القلعة إلى عام ١٤٧٧ إذ أرسى قواعدها السلطان المجيد الذى تحمل اسمه ، على أثر أن رأى تفوق العثمانيين وقيامهم بتأسيس دولة استعمارية تهدد الدول المجاورة بالفتح وبسط السيادة . وكانت بغيته الأولى — كما لا يعزب عن الفكر — حماية أهم ثغور ساحل مصر الشمالى .

أما موقع هذه القلعة أو إن شئت الطابية فنى نهاية لسان من الأرض يمتد غربى ميناء الإسكندرية الشرقى . أى على الجزيرة التى شيد فوقها المنار القديم بطليموس الثانى (فيلادلفوس) فى السنة التى احتفى فيها بذكرى والديه (٢٧٩ ق.م) — وكان يعد من عجائب الدنيا السبع القديمة . وهذه الطابية مقامة على شكل مربع أضلاعه على اتجاه النقط الأربع الأصلية [١] .

وكان يقف على مدخل الطابية قديماً باب حصين فى الجنوب الغربى . أما بابها الحالى القائم فى الجهة القبلية فبسيط البناء يوصل إلى دور قاعة تؤدى إلى الفناء الكبير ، حيث كان يرى البرج مرتكزاً أعلى للسور ، إلى أن قوضت معظمه مصلحة خفر السواحل عام ١٩٠٤ .

وهذا البرج مربع الشكل ، وفى كل زاوية من زواياه الأربع برج صغير مستدير يتصدره باب فى واجهته القبلية . قليل الغور يعلوه قوس ستينى — ومن دور قاعة

---

(١) هناك رأى آخر يقول إنه فكر فى إنشاء هذه المنارة فى حكم بطليموس الأول .

البرج يصل الإنسان على الشمال إلى دهليز سقفه مقبب به فتحتان للضوء . . ويؤدى إلى الجامع الصغير فى حنايا البرج . وترتفع جدران هذا الجامع حتى سطح الطابية التى تثبت فيها فتحات متفاوتة الأحجام تؤدى إلى طبقتين مقببتين تنطوى ضلوعهما على غرف شتى معدة للرمى صوب الجهات الشمالية والشرقية والغربية .

ووضع الجامع هو الوضع المتعامد (طراز المدرسة) ذو الإيوانات المسقفة والعقود الستينية . ويحتوى من الجهة البحرية الغربية على غرفة بجثم على صدرها ضريح — ولما كان هذا الجامع موضوعا على غير سمت القبلة فقد انحرف محرابه عن وضعه الطبيعى .

ولقد كان على باب البرج حجران منقوش على كل منهما هذا النص .

« عز لمولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى عز نصره » . وقد فقدا .

وفضلا عن هذا ، فهناك كتابة أخرى على الباب المؤدى إلى الفناء ، ويرتد تاريخها إلى عهد السلطان الغورى ، وهى منقوشة على لوح من الرخام . وفحواها مرسوم سلطانى ينهى عن إخراج الأسلحة بجميع أنواعها من القلعة . وهاك نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . رسم بأمر مولانا المقام الشريف الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى خلد الله ملكه أن لا أحد يأخذ من البرج الشريف بالإسكندرية سلاح مكاحل ولا بارود ولا آلة ولا غير ذلك . ومن خالف ذلك من جماعة البرج من مماليك وعبيد وزردكاشية وخرج منه بشيء شنق على باب البرج وعليه لعنة الله . . بتاريخ شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعمائة من الهجرة » .

وإلى شمال البرج يقع السور البحرى للطابية الذى يرتفع قليلا عن مستوى مياه البحر — وهذا السور يحتوى من الداخل على دهليز طويل يمتد بطول السور ، ومقسم إلى قاعات للمكاحل والمجانيق والذخيرة والجند . وقد رممت أخيراً لجنة حفظ الآثار العربية هذا السور من الداخل والخارج ، وأحاطته بمبان قوية تحميه من أمواج البحر ، وإن كانت المياه تتدفق فى زمن الشتاء من الفتحات والمزاغل فتمتلئ الغرف بها .

تاريخ الحصن

ذكرنا أن هذا الحصن قد شيد على أساس منار الإسكندرية القديم ولم نبين نقطة حرية بالبحث وهى أفلم يعرف حكام مصر المسلمين الانتفاع من هذا المنار ؟ .

الواقع أن هذا المنار ظل قائما يهدى السفن إلى الميناء عدة قرون بعد الفتح العربى[1] ، وكانت تنتابه عهود إهمال نتيجة لحوادث الزلازل . فكانت تخرب بعض طبقاته أو واجهاته . إلا أنه كان يسارع نواب السلاطين بإصلاحها . فعلى سبيل المثال ، أحدث زلزال هائل فى عام ١٣٠٢ تخريبا شاملا فى المنار ، وكان أن بادر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بإصلاحها — وقيل إن هذا السلطان كان قد شرع فى بناء منار مثله بإزائه فعاقه الموت عن إتمامه .

ولا مشاحة أن هذه الإصلاحات المتوالية غيرت ملامح البناء . فتبدل المنار مع تعاقب الأيام إلى بناء لا يمت معظمه بصلة إلى البناء المنيف الأصلى

وقد وصف حالة المنار الرحالة المعروف ابن بطوطة بعد رآه رأى العين لدى وصوله إلى الاسكندرية عام (١٣٢٦ م) فى طريقــه إلى مكة ، فقال إنه رأى إحدى واجهاته قد دمرت عن آخرها . ولما عاد من الحج لاحظ إصلاح تلك الواجهة (١٣٤٩ م) .

ولما هاجم بطرس لوزينان ، ملك قبرص ، ثغر الإسكندرية عام ١٣٦٥ ، كان المنار فى مجموعه عبارة عن أنقاض وخرائب . فنشط أتباعه فى نهب ما تيسر حمله فى سفنهم وعادوا بباب المنار المشغول بالنحاس المطروق والذى كان قد شيده الأمير صلاح الدين بن أرام — حينما رمم بناء المنار كما أقام برجا مستديراً .

وقد اتفق غالبية رجال الآثار على أن المنار فقد أهميته الأولى منذ منتصف

---

(١) وصف هذه المنارة كثيرون من مؤلفى العرب . ولم نجد فيما كتبوه عنها ما هو أوفى بوصفها مما كتبه أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوى الأندلسى المعروف بابن الشيخ المتوفى فى أوائل القرن السابع الهجرى حوالى سنة ١٢١٠م فى كتابة ألف باء — وقد كانت كتابته عنها سنة ١١٦٦ م جـ٢ ص ٥٣٧ .

القرن الرابع عشر ويؤيد تلك الحقيقة الرحالون الذين زاروا الإسكندرية والمؤرخون الذين تناولوا بالحديث الشئون المصرية أو الحكام . ونذكر منهم لا على سبيل الحصر وإنما على سبيل المثال غرس الدين خليـــــل الظاهرى الذى كان واليا على الإسكندرية حوالى عام ١٤٣٥ .

* * *

نهض العثمانيون فى القرن الرابع عشر ، وكانت فتوحاتهم تتجه صوب غرب آسيا وشرق أوربا . . وبدءوا يحتكون بولاة مصر فى الشام مما جعل السلطان قايتباى فى الشام يتذرع بالحيطة لكيلا يأخذوه على غرة . فهداه تفكيره إلى تحصين سواحل مصر الشمالية وتجديد بناء أسوار الإسكندرية وتشييد قلعة على ساحلها وأخرى فى رشيد على شاطئ النيل الغربى .

ففى اليوم الحادى عشر من شهر ربيع الأول عام ٨٨٢ هـ (٢٤ يونيو ١٤٧٧) رأس السلطان وبصحبته أعاظم رجال الدولة حفلة المولد النبوى ، فى قلعة الجبل بالقاهرة ، ثم سار قاصداً الإسكندرية عن طريق البر وفى معيته كبار أمراء الجيش والموظفين المدنيين . فلما وصل إلى الإسكندرية استقبله الملك المؤيد أحمد أشرف أينال وجقمق حاكم الثغر ، وسار فى طليعة موكب رائع ، حفل بعدد غفير من أمراء الجند والمماليك المدججين بالسلاح وهم رافعون الأعلام . وكانت جموع الشعب قد خرجت مغتبطة للاحتفاء بمقدم السلطان الكبير .

ولقد أجاد المؤرخ ابن إياس وصف هذا الموكب الرائع ، ويطالعنا فى هذا الصدد بصورة طريفة لتقاليد مواكب استقبال السلاطين فى مصر خلال القرن الخامس عشر ، وواجبات كل أمير من الأمراء ، وما كان ينثره أفراد الجاليات الأجنبية وتجارهم من العملة الذهبية على الموكب أو يقدمونه من هدايا نفيسة

وسار الموكب فى طريقه المرسوم بدقة تامة ، إلى أن وصل السلطان قايتباى إلى ميناء البحرية . فترجل عن ظهر جواده ، ونزل فى المكان المعد له فى المعسكر الذى أقيم خصيصا على شاطئ البحر . ثم تفقد منطقة الشاطئ حيث كانت أنقاض المنار القديم ، وأمر أن تشيد عليها قلعته ، وأن تستهل أعمال البناء توا

وانتهت رحلة السلطان الأولى بسلام . . .

وفى عام ٨٨٤ ﻫ (١٤٧٩ م) قصد السلطان الإسكندرية على ظهر سفينة من سفائن الأسطول النهرى من بولاق . نظراً لأن طرق الدلتا البرية كانت مغمورة بمياه فيضان النيل ، وكان الغرض من رحلة السلطان أن يشرف بنفسه على أعمال بناء قلعة الإسكندرية . وعرج على رشيد ليرى ما تم فى أمر قلعتها الجديد . ثم واصل سيره إلى الإسكندرية ليكشف عن البرج الجديد « الذى جاء من محاسن الزمان ومن أعظم الأبنية وأجل الآثار الحسنة ومن نوادر أفعال الملوك » .

وفى هذا السياق . ننقل عن المؤرخ ابن إياس ما جاء بكتابه عن هذا الحصن :

« وكان سفر السلطان (قايتباى) إلى الإسكندرية فى هذه المرة لأجل البرج الذى أنشأه هناك وقد انتهى العمل منه فتوجه إليه ليرى هيئته . . ثم توجه إلى رشيد وكشف عن البرج الذى أنشأه هناك بها ثم كشف عن البرج الذى أنشأه بثغر الاسكندرية مكان المنار القديم . فجاء من محاسن الزمان ومن أعظم الأبنية وأجل الآثار الحسنة ومن نوادر أفعال الملوك .

وقيل فى صفة بنيان هذا البرج إن دهليزه عقد على قناطر فى البحر المالح من الساحل حتى ينتهى إلى البرج وأنشأ بهذا البرج مقعداً مطلا على البحر ينظر منه من مسيرة يوم إلى المراكب وهى داخلة إلى الميناء وجعل بهذا البرج جامعاً بخطبة وطاحونا وفرنا وحواصل وشحنها بالسلاح . وجعل حول هذا البرج مكاحل معمرة بالمدافع ليلا ونهاراً لئلا تطرق الإفرنج الثغر والرواتب فى كل شهر وجعل شاراً من خواصه وهو باش عليهم يقال له قنصوه المحمدى الخاصكى وكان واليا على دمشق وعرف فيما بعد بقانصوه البرجى . وقيل إن للسلطان صرف على بناء هذا البرج زيادة على مائة ألف دينار وأوقف عليه الاوقاف الجليلة . وجاء من أحسن الآثار »

وفى خلال زيارة السلطان قايتباى للقلعة أمر بوضع حجرين نقش عليهما اسمه يثبتان على بابها . وبعد أن أمضى بضعة أيام فى الثغر غادره إلى دسوق حيث زار مقام الشيخ إبراهيم الدسوقى .

وقد شاهد بعض الرحالة الأوربيين هذه القلعة فى أثناء تشييدها . ومنهم الرحالة الألمانى توخر (Tucher) الذى مر بالثغر السكندرى عام ١٤٧٩ — وقد وصف فى كتابه بعض الأعمال التى كانت قد تمت حين وصوله .

وفى عام ١٤٨٤ مر الرحالة برنارد بريتنباخ بالقلعة وقال فى سياق ما سطره عنها إن الذى وضع تصميمها مهندس مملوك ألمانى ولد فى أوبنهيم من دوقية ما ينس ولا يستبعد أن يكون هذا القول صحيحاً — لأنه كان فى خدمة السلاطين كثير من الأرقاء الذين جلبهم الأمراء واشتروهم عن طريق المغامرين والقراصنة

وفى عام ١٤٩٧ ذكر الفارس أرنولد فون هارف الألمانى من كولونيا — إن السفينة التى قدم عليها إلى الثغر قام قبطانها بتحية القلعة التى كان قد بناها أب السلطان (الذى كان يحكم إذ ذاك) وقد رد قائد القلعة إطلاق المدافع رداً على تحيته للدولة التى انتمت إليها السفينة ، وهى جمهورية البندقية .

القلعة فى عهد السلطان الغورى

ولما اعتلى العرش السلطان الغورى وتغلب على مزاحميه من الأمراء ، بعد معارك دموية ، أصدر فى عام ١٥٠١ م — عقب توليه الحكم — مرسوما عسكريا ، سبق أن نوهنا عنه ، ينهى فيه عن إخراج الأسلحة من القلعة ، وينظم أعمال المسلحة ، وأمر بتثبيت هذا الأمر على جدار القلعة وهكذا نالت القلعة من عناية السلطان الغورى مثل ما نالته من السلاطين السابقين . فقد شحنت بالجند والضباط المنظمين وصناع الأسلحة والزرد . وكانت أقسامها معمورة بالنشاط الدائب والعمل المتتابع كما كانت تضم بين جوانحها سجن الحكومة الذى انطوت جدرانه على كثيرين من كبار موظفى الدولة المملوكية جزاء لإهماله فى شئون الدفاع عن صوالح البلاد .

وحين استقر الحكم للعثمانيين فى مصر ، تولى أعمال حفظ القلاع أفراد وجاق المتفرقة — فكان رجالهم يقيمون فى قلاع الإسكندرية ورشيد والبرلس ودمياط والعريش والطور وأسوان وأبريم . وكان لكل من هذه القلاع طوائف المتفرقة المشاة والفرسان والمدفعية مع جماعة الطبالين ونافخى الأبواق والمعماريين والنجارين وكان أفراد هذا الوجاق لا يقتصر عملهم لدى هذا الحد . . بل كانوا ينهضون بجمع البارود اللازم لشئون الدفاع عن مصر .

في القرن الثامن عشر :

وقد وصف الرحالة الفرنسي فولني (Volney) حالة الإسكندرية من الوجهة الحربية كما شاهدها في عام ١٧٨٣ — أي قبيل الحملة الفرنسية بخمس عشرة سنة — فقال إنها من الوجهة الحربية لا قيمة لها . ولا يوجد بها قلعة على جانب من الخطورة أما قلعة قايتباي (المنارة) بأبراجها العالية فإنها لا تصلح للدفاع إذ ليس بها سوى أربعة مدافع صالحة للاستعمال . وأكثر من ذلك ليس بها رماة يحسنون التسديد ، وحاميتها المؤلفة من خمسمائة من الإنكشارية المتطوعين من الأهالي هبط عددهم إلى النصف ، وإن فرقاطة واحدة لتكفي لهدم المدينة .

واتفق مع فولني — الرحالة الفرنسي سافاري الذي زار الإسكندرية عام ١٧٧٧ وكذلك المسيو مور (Mure) قنصل فرنسا فقد كتب في تقريره الذي قدمه إلى حكومته بصدد رغبتها في الحملة على مصر إن موانئ الإسكندرية خالية من القلاع والمدفعية والذخائر ، وليس بها من الجنود سوى الأهلين الذين انتظموا في سلك الفرق العسكرية المنشأة من عهد الفتح العثماني . أما قلعة المنارة فهي في ظاهرها فخمة بيد أنها تكاد تكون خالية من الحامية ومن المدفعية والذخيرة — والمدافع الباقية لا تصلح للضرب . ولا تستعمل إلا في أيام الأعياد .

ففي هذه الأقوال صورة صادقة عما كانت قد وصلت إليه قلعة قايتباي من الضعف على عهد الولاة الأتراك والبكوات المماليك — بعد ما كانت منيعة وخطيرة في أيام المماليك الشراكسة .

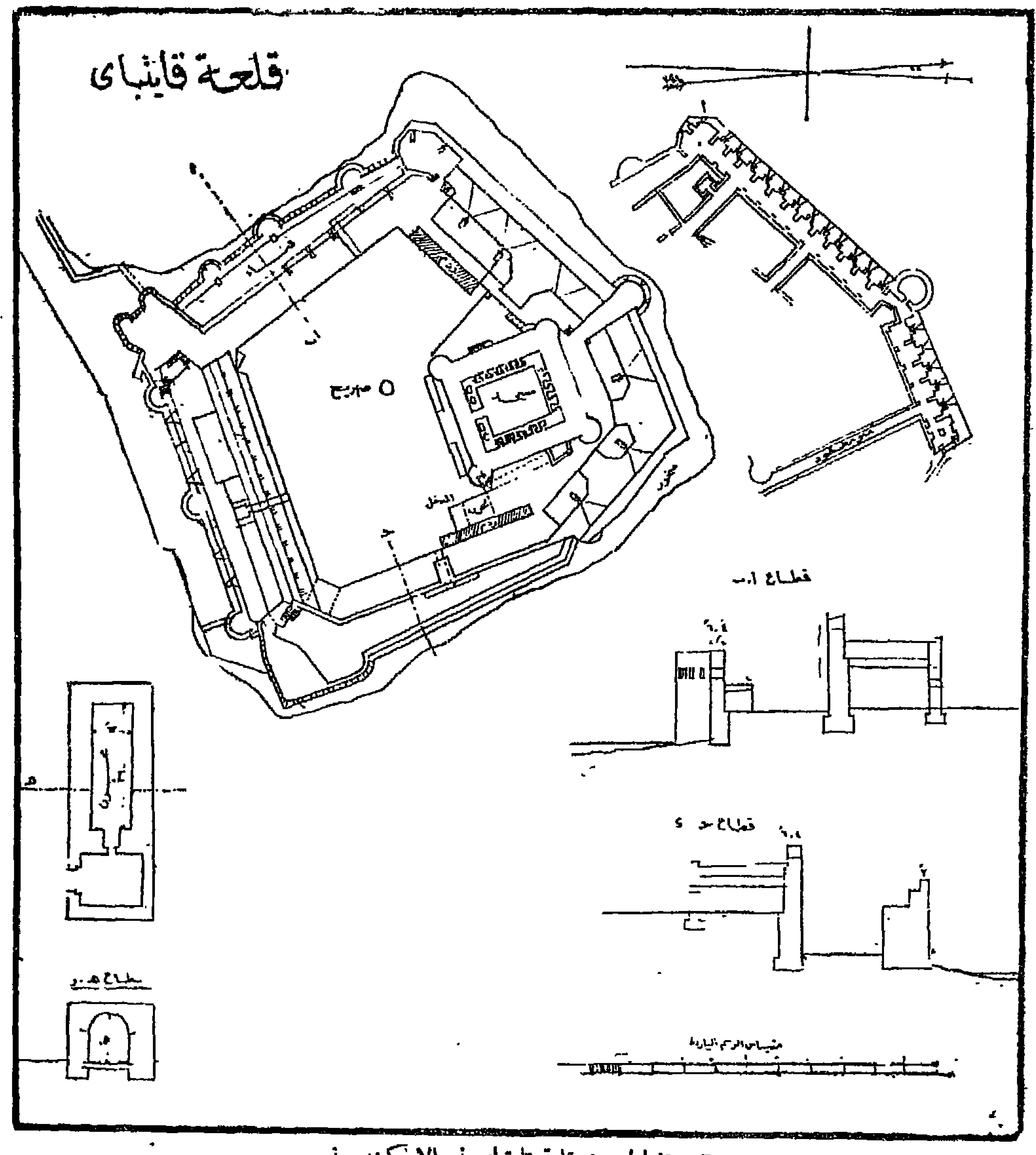
في القرن التاسع عشر :

وعندما استولى الفرنسيون على ثغر الإسكندرية (١٧٩٨) ووضعوا أيديهم على قلعة قايتباي عثروا في أبراجها وأقبيتها على أسلحة كثيرة مكدسة وسيوف علاها الصدأ ، واستدل من شكلها وما عليها من النقوش أنها من أسلحة الصليبيين ومن مخلفات حملة الملك لويس التاسع التي جاءت مصر في عام (١٢٤٨/١٢٥٠م) . وكان الفرنسيون يطلقون على هذا الحصن « قلعة المنارة » .

ولما استتب الأمر لمحمد علي ، عني عناية بالغة بترميم القلاع وتشييد الحصون

للدفاع عن سواحل القطر وثغوره . وكان نصيب قلعة قايتباى من تلك العناية جد وفير .

ففى عام ١٧٤٠ ، زاد عدد مدافعها . فأصبحت تحتوى على ٢٠ مدفع حصون و ١٢ مدفع هاون وعقب ثمانية أعوام — أى فى عام ١٨٤٨ على أخريات أيام محمد على — تزايد عدد تلك المدافع زيادة كبرى فصار ١١٠ مدفعاً بينما تقلصت مدافع الهاون فصارت ستة فحسب .



٦ — مخطط يبين قلعة قايتباى فى الإسكندرية

دمياط وحصونها

تروى أخبار الفتح العربى لمصر أن دمياط القديمة كان يحيط بها سور، فلعله أنشئ فى أيام الرومان. وقد تعددت بعد الفتح غارات البيزنطيين على دمياط فى خلال القرون الثلاثة الهجرية الأولى، وقد أشار المؤرخون إلى بعضها، وهى التى حدثت فى الأعوام: ٩٠ (٧٠٩ م) و ١٢١ (٧٣٨ م) و ٢٣٨ (٨٥٣ م) و ٢٤٥ (٨٥٩ م) و ٢٤٧ (٧٦١ م) و ٣٥٧ (٩٦٨ م). وكانت أخطر هذه الغارات وأهمها الغارة التى قدمت إلى دمياط فى سنة ٢٣٨ (٨٥٣ م) فى عهد ولاية عنبسة بن إسحق على مصر[1] فلما بلغه الخبر فى عاصمته الفسطاط، أسرع فى الحال للقضاء على المهاجمين ولكنه وصل إلى دمياط متأخرا بعد مغادرة الروم لها، فأخذ يعنى بتحصين المدينة، وكان معظم الأسوار والأبراج قد تهدمت، ولذلك أرسل الخليفة المتوكل إلى واليه عنبسة يأمره ببناء أسوار معينة تحيط بثغور مصر الشرقية: دمياط وتنيس والفرما، وقد أسرع الوالى بتنفيذ أوامر الخليفة. فبدأ فى تشييد سور دمياط وحصونها يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر رمضان سنة ٢٣٩ (٥ فبراير ٨٥٤)، وفى نفس العام شيدت أسوار تنيس والفرما وحصونها.

وقد جاء تحصين دمياط مثمرا، فلم تفد على دمياط غارة قوية بعد ذلك إذا استثنينا غارات الصليبيين عليها فى أثناء سيطرة الفواطم على أيام الخليفة الفائز (٥٥٠ هـ — أغسطس ١١٥٥)، وحملة جان دى برين ملك بيت المقدس (٦١٥ — ٦١٨هـ = ١٢١٨ — ١٢٢١)، على أيام الأيوبيين واحتلالهم المدينة فى عهد الملك العادل وكان ابنه الملك الكامل محمد ينوب عنه فى الحكم. ولكن سرعان ما استردها الملك الكامل[2]

---

(١) دكتور جمال الدين الشيال: مجمل تاريخ دمياط . ص ١١ . إسكندرية عام ١٩٤٩ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) شن البيزنطيون بالاشتراك مع مملكة بيت المقدس هجوما على صلاح الدين الذى كان قد تبوأ عرش مصر وشيكا (٥٦٥ هـ — ١١٦٩م) .

وقام الملك لويس التاسع بحملته الخائبة عام ٦٤٧/٦٤٨ ﻫ (١٢٤٩—١٢٥٠) فى الوقت الذى انتقلت فيه مصر من حكم الأيوبيين إلى حكم المماليك . وعمد المماليك إلى تدمير دمياط ليحولوا دون حدوث مثل هذه الوقائع فى المستقبل ، فهدموا جميع مبانيها وحصونها ماعدا المسجد الذى ظل قائماً وحده . وقامت إلى الجنوب من دمياط بقليل مدينة جديدة غير محصنة ، هى دمياط اليوم . وفى عام ٦٥٩ ﻫ / ١٢٦٠ عمد الظاهر بيبرس إلى سد مصب النيل عند دمياط حتى لا تدخله السفن . وكان مدخل النيل يقفل بمأصرة (سلسلة حديدية) إبان ازدهار دمياط .

وقد وصف مؤرخ معاصر لأحداث الحملات الصليبية برج السلسلة فى دمياط خير وصف . وهو شهاب الدين أبو محمد المقدسى المعروف بأبى شامة (توفى عام ٦٦٥ ﻫ) وقد رآه بعينيه وأفاض فى رواية استيلاء الفرنج على هذه المأصرة :

. . . وفيها (عام ٦١٥ ﻫ) أخذ الفرنج النازلون على دمياط برج السلسلة فى آخر جمادى الأولى ، فأرسل الكامل إلى ابنه العادل شيخ الشيوخ صدر الدين يستصرخ به ، فلما اجتمع بالعادل وأخبره دق بيده على صدره ومرض مرض الموت . . . وهو برج عال مبنى فى وسط النيل ودمياط بحذائه على حافة النيل من غربه ، وفى ناحيته سلسلتان تمتد إحداهما على النيل إلى دمياط ، والأخرى على النيل إلى البحيرة فتمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها إذا أريد ذلك حين قتال العدو ، فهو قفل البلاد بالديار المصرية ، إذا أوثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور إليها ومتى لم تكن السلسلة عبرت المراكب وبلغت إلى القاهرة ومصر وإلى قوص وأسوان[1] .

ومنذ خيبة حملة لويس التاسع المذكورة أهملت حصون دمياط وتحولت إلى خرائب . وقامت دمياط الحالية التى شيد فيها خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر بعض ثكنات الجند .

(١) منتخبات من كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين : النورية والصلاحية . وهو الجزء الخامس من مكتبة الحروب الصليبية . ص١٦٧—١٦٨ طبعة بربين دى مينار فى باريس عام ١٩٠٦

قلعة قايتباى فى رشيد

إن أقدم قلاع رشيد — القلعة الأثرية التى عرفها المؤرخون الأجانب باسم قلعة جوليان التى قالوا عنها إنها شيدت فى أثناء وجود الحملة الفرنسية بمصر (١٧٩٩ — ١٨٠١).

وتقع هذه القلعة على الشاطئ الغربى للنيل وجنوبى مدينة رشيد بحوالى ستة كيلومترات أما فيما يتعلق بتاريخ تشييد القلعة فقد ذكر المؤرخ المصرى ابن إياس أنه لما انتهى السلطان قايتباى من افتتاح قلعته المعروفة بالاسكندرية فى جمادى الأولى عام (٨٨٤ هـ — أغسطس ١٤٧٩ م) قصد رشيد ليشرف على ماتم من بناء قلعتها التى كانت تشيد فى ذلك الحين.

ولم يذكر ابن إياس شيئا عن القلعة فى أيام قايتباى إلى أن وصل إلى الكلام عن السلطان قنصوه الغورى. فقال « إنه لما خشى غزوة العثمانيين ذهب بنفسه للتفتيش على حصون الإسكندرية ورشيد وكان ذلك فى يوم الأربعاء الموافق ٢ رمضان عام (٩٢٢ هـ — أكتوبر ١٥١٥) وشاع الخبر إذ ذاك بأن السلطان قد أمر ببناء سور لرشيد على ساحل البحر الأبيض المتوسط. وأرسل لأجل ذلك البنائين والحجارين — ولما عاد السلطان من رحلته فى يوم الثلاثاء الموافق ٢٣ أكتوبر ١٥١٥ م ندب كبير معماريه « خير بك العلائى » وعينه قائدا للآلاى للإشراف على بناء تلك الأسوار. فرحل للقيام بمهمته وأخذ فى إتمامها إلى أن عاد إلى القاهرة عام (٩٢٢ هـ — ١٥١٦ م) فى أوائل أيام نيابة المتولى الأمر (فى أثناء غياب قنصوه الغورى فى الشام لمحاربة الترك) طومان باى.

ولما استولى السلطان سليم على مصر ودخل القاهرة قصد فيما بعد الإسكندرية. ثم نزل النيل فوصل إلى رشيد (٣١ مايو ١٥١٧ م) لحيته مدافع قلعتها عندما اقتربت السفينة السلطانية منها.

وقد وصف قلعة رشيد معظم الرحالين الذين وفدوا على مصر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. أمثال الرحالة « سيزار لامبرث » الذى قال عنها إن البناء

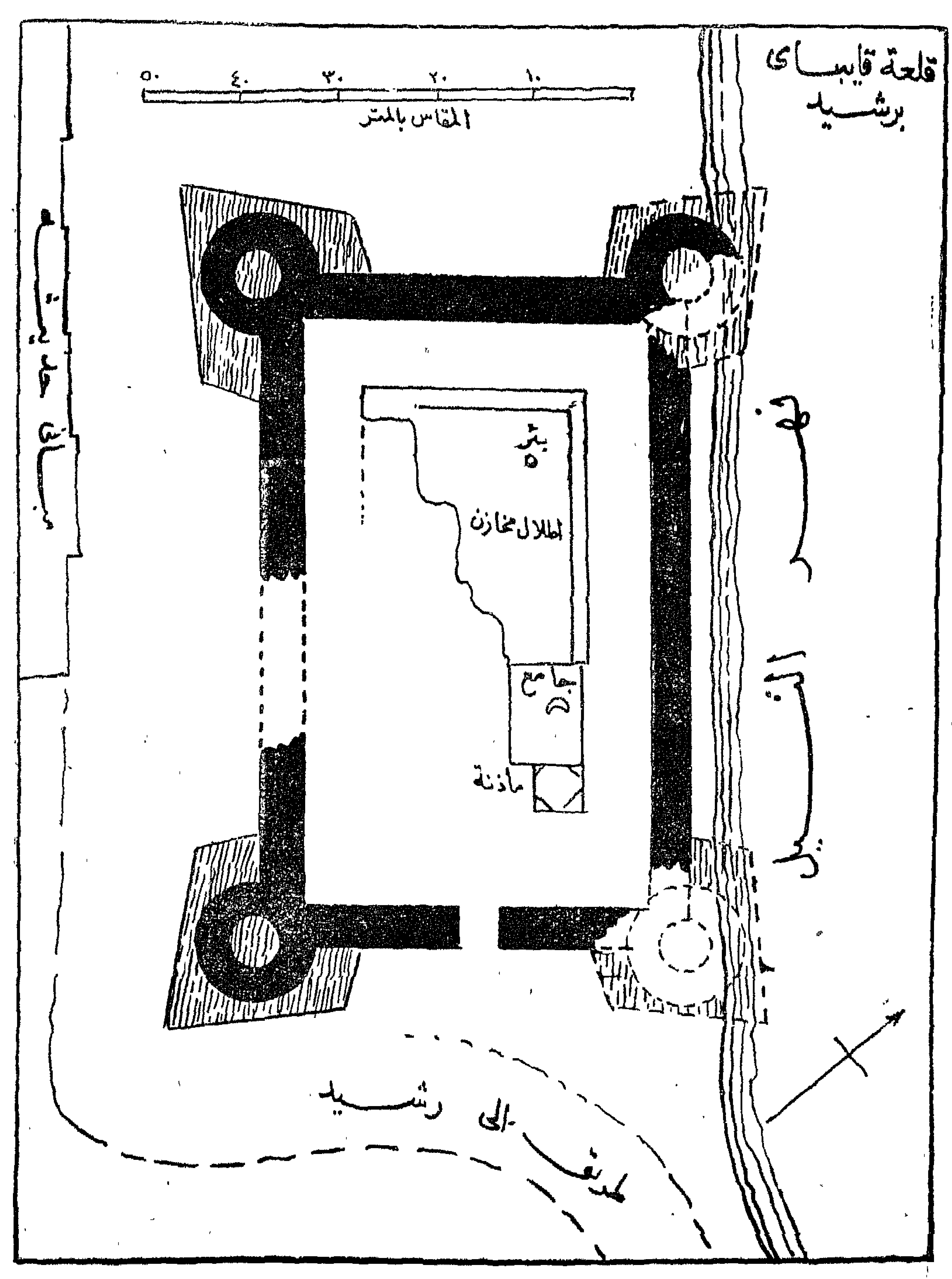
الأصلى فى تصميمه يشبه بدرجة كبيرة الحصن الداخلى فى قلعة قايتباى بالإسكندرية ، أى أنه كان عبارة عن بناء مربع بأبراج مستديرة فى أركانه الأربعة . وما زالت بعض آثار القلعة قائمة إلى اليوم .

كذلك وصف القلعة الرحالة « فانسلب » وبول لوكاس الذى زار القلعة عام ١٦٩٩ .

وترك الرحالة الدنمركى « نوردن » صورة واضحة لشكل القلعة . كما خلف لنا الرحالة ريشارد بوكوك وصفا يكاد يكون كاملا كما كانت علية عام ١٧٣٧ . وتظهر فى لوحة الرحالة نوردن مأذنة الجامع القديم فى القلعة ، وقد حل محله الجامع القائم حاليا ، وهى تعلو على بناء الحصن الداخلى .

ووصف القلعة السائح الفرنسى « سافارى » عند زيارته لرشيد (١٧٧٧ م) « ولا لارم » وسونينى . وشهدها « فيفان دينو » عام ١٧٩٨ ورسمها فى كتابه رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا »

وفى أنقاض قلعة رشيد اكتشف بوشار أحد ضباط الحملة الفرنسية فى شهر أغسطس ١٧٩٩ الحجر المشهور بحجر رشيد — مفتاح اللغة المصرية القديمة .



٧ — مخطط يبين قلعة قايتباى فى رشيد

قلاع البرلس

كانت البرلس من الثغور المصرية القديمة الواقعة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط . وإليها تنسب بحيرة البرلس الواقعة فى شمالى مديرية الغربية . ويطلق اسم البرلس أيضا على المنطقة الساحلية المعروفة بإقليم البرلس الممتدة بين البحر الأبيض وبين بحيرة البرلس .

ففى العصر الأيوبى شيدت بقرية البرلس قلعة على شاطئ البحر اشتهرت بين الأهالى « بالبرج » ومن ذلك الوقت عرفت قرية البرلس باسم « البرج » ، واختفى اسمها الأصلى ، إلا أن البرلس لا تزال علما على إقليم البرلس .

وقد ذكر الرحالة « سيزار لامبرت » الذى وفد على مصر فى عام ١٦٢٧ م أنه كان فى البرلس قلعة يقوم بحمايتها ثلاثون رجلا يتناولون مرتباتهم من إيرادات صيد الأسماك .

وللمرة الأولى يرد ذكر قلعة البرلس فى خطاب مهم أرسله القائد بونابرت غداة يوم وصوله إلى فرنسا عائدا من القطر المصرى لخلفه القائد كليبر بتاريخ ٢٢ أغسطس ١٧٩٩ . إذ طلب إليه أن يشيدبرجا أو بطارية المدافع فى البرلس[١]

فبادر القائد الجديد كليبر بتكليف المهندس العسكرى الكابتن لويز ترومان . (Lewis Thurman) لتنفيذ مشروع بناء القلعة . وقد وصل إلينا تاريخ إنشائها وسير العمل فيها مما كتبه ثورمان إلى أبيه منذ بدء العمل فيها فى شهر مايو من عام ١٨٠٠ ، فقد ورد فى إحدى رسائله لأبيه .

« لقد اختار الجنرال كليبر مشروعى وكلفنى بالقيام بتنفيذه »[٢] .

---

1 — Correspondence de Napoleon 1 er publiee par ordre de Napoleon III, Paris.

2 — C-Bachatly — Une Inscription Francaise Inedite du Fort d'El-Borollos. B. I. d' Egypte. T. XVIII, 1935 — 1936.

ومن الرسائل التى صاغها هذا الضابط فى أثناء إقامته فى البرلس لأبيه المقيم فى فرنسا — وجدنا المصدر الفريد عن كتابة تاريخ هذه القلعة . وكيف لا . . فقد أورد الكابتن فى تلك الرسائل كثيرا من المعلومات الدقيقة والتفصيلات الفنية التى نلخصها فيما يلى :

فى يونيو عام ١٨٠٠ كتب لأبيه يقول إنه انتهى من عمل التخطيط العام للقلعة وإنه سماها قلعة البرلس . وفى يوليو من العام نفسه وضع الحجر الأساسى لها ووصف لأبيه الاحتفال الشائق الذى نظمه لهذه المناسبة . وكان مما نوه به اشتراك فرقة الموسيقى التركية لقوة رشيد وجماعات الراقصات فى المهرجان[1] .

وقد حمل الصندوق الذى اشتمل على الحجر الأساسى ستة من الجند الفرنسيين الأقوياء بعد وضعه على محمل أتمه لهذا الغرض . وغطى الحجر بسجادة فارسية جميلة الزخرف والصناعة وقد أمسك بطرفيها الأماميين أوسطى البنائين الفرنسيين وزميله أوسطى النجارين . وأمسك بمنتصفها الأوسطى التركى للبنائين وزميله التركى للنجارين أما ركناها الخلفيان فقد أمسك بهما الريسان أحمد وشعبان «مقدما العمال» .

وجاء بعد هؤلاء ممثلو شتى الحرف التى ساهم أصحابها فى أعمال الإنشاء . وقد خصص لكل حرفة محمل حشبى وضع عليه العـــدد والآلات التى تمثل الحرفة كالبناء والنجارة والحدادة وصناعة الطوب وحملة قرب المياه ، وتبعهم جماعات المشايخ يتقدمهم الكابتن تورمان

وخلال مرور هذا الموكب كانت تحييه طلقات المدافع ورصاص البنادق لرجال حامية البرلس الذين اصطفوا فى ميدان الأسلحة .

ولما وصل الموكب إلى المكان الذى اختير للبناء انتظم المحتفلون فى هيئة دائرة ، ووقف الكابتن بالقرب من حافة الأساس المحفور وخاطب المجتمعين باللغة الفرنسية ، ثم ترجم الخطاب إلى اللغة العربية ، (وانتهى الاحتفال بالهتاف للجمهورية الفرنسية ومصر والبرلس وأهلها) .

---

1 — Capitaine Thurman - Bonaparte en Egypte. Souvenires publie avec preface et appendices par le comte Fleurey Paris, 1902 P. 151 —

ومن ثم طفقت فرقة الموسيقى التركية تشنف آذان المستمعين — وهم جالسون القرفصاء على الرمل — بأنغامها الشجية ، وخلبت الراقصات أفئدة الجماهير برقصاتهن الفنانة

وفى غمرة ذلك السرور الذى بسط جناحيه على المكان كانت تقدم أقداح القهوة وكئوس المشروبات والطباق والنرجيلات ثم وضع حجر الأساس للقلعة فى مكانه بين هتاف الحاضرين .

وفى نحو الساعة العاشرة ليلا ، تحت سقف خيمة واسعة أقيمت خصيصاً لهذا الاحتفال ، اجتمع الكابتن ثورمان بضباط الحامية ورجال البحرية وكبار رجال العمل الفرنسيين والأتراك ونخبة من المشايخ وجلسوا لتناول العشاء على الطريقة العثمانية ، والكل جالسون على الأرض . . وبعد الفراغ من العشاء استأنف الموسيقيون عزفهم وقامت الفتيات الراقصات بحركاتهن واستمر الجمع فى سرور وحبور حتى تفرقوا حوالى منتصف الليل وهم على أكمل صداقة وأسعد حال .

أما الحجر الأساسى فكان قطعة من الرخام الابيض طوله ستون سنتيمتراً وعرضه ثمانية وعشرون سنتيمتراً وارتفاعه اثنا عشر سنتيمتراً . وكان منقوشاً على أوجهه العبارات الست الآتية باللغة الفرنسية :

١ — العام الثامن للجمهورية الفرنسية فى العام ١٧٩٩ المسيحى والعام ١٢١٤ الهجرى . شيد الفرنسيون قلعة البرلس .

٢ — القنصل بونابرت الأول . القائد العام مينو . لجيش الشرق . بعد ثلاثة أعوام وشهر من وصول الفرنسيين إلى مصر .

٣ — الجنرال سانسون قائد عام سلاح المهندسين . قائد الكتائب ومدير الحصون .

٤ — شيدها لويز ثورمان — كابتن المهندسين — والمولود فى كولمار — إدارة الرين الأعلى .

٥ — الترجمة العربية لما جاء فى (١)

٦ — الترجمة العربية لما جاء فى (٢) .

وقد أحضر ثورمان حجراً آخر وضع فى داخله مجموعة من النقود المستعملة فى ذلك الحين ولوحا من الورق السميك سطر عليه العبارات السالف ذكرها التى نقشت على حجر الأساس . ودفن فى مكان يبعد قليلا عن موضع الحجر الأول(١) .

واستؤنف العمل بعد ذلك بنشاط زائد ، فقد كانت جميع حاجات البناء متوفرة وفى أثناء العمل عهد إلى الكابتن ثورمان بمهمة استكشاف خطوط الدفاع الشرقية الممتدة إلى الشام . وكانت قلعة البرلس إذ ذاك على وشك الانتهاء كما نستدل على ذلك من خطاب ثورمان إلى أبيه الذى يقول له فيه :

« انتهى العمل فى قلعتى . . . »

وفى اكتوبر ١٨٠٠ غادر الكابتن ثورمان مقر عمله بالبرلس قاصداً بلبيس ولم يكن يعلم إذا كان سيعود ثانية إلى البرلس . غير أنه كان ميالا للعودة لينجز العمل الذى استهله كما نستدل على ذلك من خطابه الأخير لأبيه . وقد ضمنه بيانا اشتمل على نقط الدفاع الساحلية التى حصنها الفرنسيون فى أثناء احتلالهم لمصر وهى على ساحل البحر .

قلعة مربوط — عززت وحصنت الاستحكامات القديمة ، وهى فى مكان يسهل منه الدفاع عن خطوط اقتراب السفن الحربية من الميناء القديمة للإسكندرية .

قلعة الفنار — فاروس — وهى المعروفة بطابية قايتباى تعاونها قلاع حمامات كليوباترة والمقابر لحماية مدخل الميناءين كانوبى حيث السوق القديم وممر للقوافل التجارية .

قلعة أبى قير — وكانت فى حالة صالحة للدفاع مع ما لحقها من التجديد .

بطارية سد المحمودية .

برج عزبة أبو مندور .

---

(١) Thurman : Bonaparte en Egypte, P. 197 — x

قلعة جوليان برشيد — حالتها جيدة بالرغم من ضعف بنائها .

بطارية فارستى .

موقع دفاعى أمام قلعة جوليان .

قلعة البرلس — للدفاع عن بوغاز بحيرة البرلس .

قلاع القاهرة التى أقامها الفرنسيون .

قلعة عزبة البرج بدمياط .

قلعة أم فرجة والطينة والعريش .

وكانت هناك قلاع أخرى فى بلبيس والصالحية وقاطية والسويس والقصير والمنصورة وبركة الحاج . . وغيرها

وعقب انقضاء بضعة أسابيع على سفر ثورمان فى شهر ديسمبر عام ١٨٠٠ افتتحت قلعة البرلس واحتلتها جنود الحامية الفرنسية التى كانت تعيش مؤقتا فى معسكر من الخيام إلى انتهاء بناء القلعة[١] .

طابية برج البرلس الغربية

وقلعة البرلس التى بسطنا الحديث عنها تهدمت واندثرت ولم يبق منها شىء سوى قطعة الحجر الأساسية التى نقلت فيما بعد إلى دار الآثار العربية وأعطيت الرقم ١٢٨٩٤ لمجموعات الدار الأثرية وكان ذلك بهمة أحد أمنائها المرحوم الأستاذ حسن الهوارى .

ولقد كانت هناك فى الجهة الغربية من بوغاز البرلس طابية اندثرت بأجمعها ولم يبق سوى بعض أطلال تافهة مبنية بالطوب الأحمر . ومن المحتمل أن تكون مدافعها قد غاصت فى البحر .

Bachatly : B. I. a Egypte. t. XVIII. 1945. P. 199. (١)

طابية برج البرلس الشرقية

وقد اندثرت أيضاً هـــذه الطابية ولم يتبق منها أى شىء مطلقاً إلا أنه يوجد بالحديقة التى أمام قسم البرلس مدفع صغير من المدافع التى ترتد إلى عهد إسماعيل وهو من صنع محل أرمسترونج .


وكان بجوار القسم ثلاثة مدافع ملقاة على الأرض ومطمورة بالأتربة وعرباتها مفقودة وهى من عهد إسماعيل من صناعة أرمسترونج أحدها قطر فوهته تسع بوصات والاثنان الآخران قطر فوهة كل منهما سبع بوصات ورقم أحدهما ٢٧٩٣ ومؤرخ سنة ١٨٧٣ أما رقم الآخر وتاريخ صناعته فطمورة فى الرمال .

طابية فنار البرلس

تقع هذه الطابية بجوار فنار البرلس ويوجد بها خمسة مدافع . وقد تهدمت بأجمعها وطمرت جدرانها السفلية بالرمال . وأحد هذه المدافع الخمسة لا يزال على عربته فى موضعه الأصلى على قمة تل من الرمال . ولذلك يطلقون عليه سكان تلك الجهة « المدفع المعلق » من صناعة محل أرمسترونج وقطر فوهته يبلغ سبع بوصات تقريباً . وكان بين أنقاض الطابية مدفع آخر من عهد إسماعيل وهو من صناعة أرمسترونج راكب على كرسيه وعربته لكنه ملقى على جانبه ولا يزال المحور الذى كان يدور حوله مثبت فى الركيزة الرأسية التى خلعت من مكانها وأصبحت أفقية ومطمورة فى الرمال . أما الثلاثة المدافع الأخرى فهى صغيرة .

طابية العياشى

طمرت هذه الطابية بالرمال ويوجد بها ثلاثة مدافع مطمورة أيضاً فى الرمال ومدفعان من صناعة أرمسترونج لا يزالان على عربتيهما فى موضعهما الأصلى وقطر فوهة أحدهما سبع بوصات وقطر فوهة الثانى سبع بوصات أيضاً ورقمه ٢٦٦١ وتاريخ صناعته ١٨٧٢ .



٨ — رسم مطور يوضح قلعة البرلس التى شيدها الفرنسيون عام ١٧٩٩

ملحق

الأيوبيون

١١٧١ – ١٢٥٠ م

يوسف صلاح الدين الأيوبي	١١٧١ — ١١٩٣ م
العزيز بن يوسف صلاح الدين	١١٩٣ — ١١٩٨
المنصور بن العزيز	١١٩٨ — ١٢٠٠
الملك العادل بن أيوب	١٢٠٠ — ١٢١٨
الملك الكامل بن العادل	١٢١٨ — ١٢٣٨
الملك العادل بن الكامل	١٢٣٨ — ١٢٤٠
الملك الصالح بن الكامل	١٢٤٠ — ١٢٤٩
الملك المعظم بن الصالح	١٢٤٩ — ١٢٥٠
الملكة شجر الدر	١٢٥٠

وتعتبر أولى الدولة المملوكية .

المماليك البحرية

الملكة شجر الدر	١٢٥٠ م
المعز عز الدين أيبك	١٢٥٠
المنصور نور الدين على بن أيبك	١٢٥٧
المظفر سيف الدين قطز	١٢٥٩
الظاهر ركن الدين بيبرس	١٢٦٠
السعيد ناصر الدين بركة خان بن بيبرس	١٢٧٧
العادل بدر الدين سلامش « «	١٢٧٩
المنصور سيف الدين قلاوون	١٢٧٩
الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون	١٢٩٠
الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون	١٢٩٣

العادل زين الدين كتبغا	١٢٩٤
المنصور حسام الدين لاجين	١٢٩٦
الناصر (ثانى مرة يلى الحكم)	١٢٩٨
المظفر ركن الدين بيبرس الثانى	١٣٠٨
الناصر (ثالث مرة)	١٣٠٩
المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر	١٣٤١
الأشرف علاء الدين كوجوك « «	١٣٤١
الناصر شهاب الدين أحمد « «	١٣٤٢
الصالح عماد الدين إسماعيل « «	١٣٤٢
الكامل سيف الدين شعبان « «	١٣٤٥
المظفر سيف الدين حاجى « «	١٣٤٦
الناصر ناصر الدين حسن « «	١٣٤٧
الصالح صلاح الدين صالح « «	١٣٥١
الناصر حسن (المرة الثانية)	١٣٥٤
المنصور صلاح الدين محمد بن حاجى	١٣٦١
الأشرف ناصر الدين شعبان بن حسين	١٣٦٣
المنصور علاء الدين على بن شعبان	١٣٧٦
الصالح صلاح الدين حاجى بن شعبان	١٣٨١
برقوق (المماليك البرجية)	١٣٨٢

المماليك البرجية

الظاهر سيف الدين برقوق	نوفمبر ١٣٨٢
(يتولى المنصور حاجى الملك)	يونيو ١٣٨٩ — فبراير ١٣٩٠
الناصر ناصر الدين فرج بن برقوق	يونيو ١٣٩٠
المنصور عز الدين عبد العزيز بن برقوق	سبتمبر ١٤٠٥
الناصر فرج (مرة ثانية)	ديسمبر ١٤٠٥
العادل المستعين الخليفة العباسى	مايو ١٤١٢
المؤيد شيخ	نوفمبر ١٤١٢
المظفر أحمد بن شيخ	يناير ١٤٢١
الظاهر سيف الدين ططر	أغسطس ١٤٢١
الصالح ناصر الدين محمد بن ططر	نوفمبر ١٤٢١
الأشرف سيف الدين برسباى	إبريل ١٤٢٢
العزيز جمال الدين يوسف بن برسباى	يونيو ١٤٣٨
الظاهر سيف الدين جقمق	سبتمبر ١١٣٨
المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق	فبراير ١٤٥٣
الأشرف سيف الدين إينال	مارس ١٤٥٣
المؤيد شهاب الدين أحمد بن إينال	فبراير ١٤٦١
الظاهر سيف الدين خوش قدم	يونيو ١٤٦١
الظاهر سيف الدين يلباى	أكتوبر ١٤٦٧
الظاهر تيموربغا	ديسمبر ١٤٦٧
الأشرف سيف الدين قايتباى	يناير ١٤٦٨
الناصر محمد بن قايتباى	أغسطس ١٤٩٦
الظاهر قنصوه	أكتوبر ١٤٩٨
الأشرف جنبلاط	يونيو ١٥٠٠
العادل طومان باى	يناير ١٥٠١
الأشرف قنصوه الغورى	إبريل ١٥٠١
الأشرف طومان باى	أكتوبر ١٥١٦
سقوط الدولة	يناير ١٥١٧

مراجع الكتاب

— أبو شامة :
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين . جزءان القاهرة ١٢٨٧ ﻫ .

— أبو المحاسن — جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الأتابكى :
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . ١٢ جزءاً — القاهرة

— على مبارك باشا :
الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة المشهورة — القاهرة .

— عبد الرحمن الجبرتى :
عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . طبعة بولاق ١٢٩٧ ﻫ . أربعة أجزاء .

— تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقريزى .
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . طبعة بولاق ١٢٧٠ ﻫ . جزءان
طبعة النيل ١٣٢٤ ﻫ . أربعة أجزاء

— جلال الدين السيوطى :
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . مجلدان — القاهرة .

— القلقشندى :
صبح الأعشى ١٤ مجلداً — القاهرة .

— عبد الرحمن زكى (القائمقام) والدكتور زكى محمد حسن عميد كلية الآداب
فى مصر الإسلامية — القاهرة ١٩٣٨

— عبد الرحمن زكى (القائمقام) :
القاهرة — جزءان — القاهرة ١٩٣٢ و ١٩٣٥ .
الجيش المصرى فى عهد محمد على — القاهرة ١٩٣٩ .

— ابن إياس :
بدائع الزهور فى وقائع الدهور — ثلاثة أجزاء :

— محمد عبد الله عنان :
مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية — القاهرة — ١٩٣١ .

— حسن عبد الوهاب :
تاريخ المساجد الأثرية — جزءان — القاهرة ١٩٤٦

— كراسات لجنة حفظ الآثار العربية ١٨٨٢ — ١٩٢٠ — القاهرة

— الدكتور عبد اللطيف حمزة
حكم قره قوش — مطبعة مصطفى الحلبي — القاهرة .

— نعوم شقير :
تاريخ سيناء وجغرافيتها — القاهرة .

— مذكرات المرحوم الأستاذ حسن الهوارى أمين دار الآثار العربية .

— مذكرات المرحوم الأستاذ محمد بك رمزى .

المراجع الأفرنجية

— P. Casanova :

Histoire et Description de la Citadelle du Caire ; Memoires Publié's par les Membres de la Mission Archéologique Française du Caire. Tome Sixieme, 1897.

— Professor K. A. C. Creswell :

Archeological Researches at the Citadel of Cairo Cairo, 1924

— Description de l'Egypte, 2e édition, Paris. 1821, t XVIII et Atlas.

الجزء الخاص بوصف القلعة (ص ٣٤٧ — ٣٦٣ و ٥١٨ — ٥٢٢) الذى كتبه جومار .

— Stanley Lane Pôole :

The Art of the Saracens in Egypt. London, 2. 186.

بيان الصور الفوتوغرافية

١ — منظر من أعلى يوضح القسمين الرئيسيين لقلعة صلاح الدين والمبانى الأثرية المتناثرة فيهما .

٢ — نسر صلاح الدين الأيوبى المنقوش على الحجر على أحد أسوار القلعة

٣ — لوحات الكتابات العربية الأثرية المنقوشة على الحجر فوق باب المدرج بقلعة صلاح الدين .

٤ — الدرج المؤدى إلى باب المدرج — القائم خلف الباب الجديد .

٥ — الباب المؤدى إلى ميدان العلم المطل على القاهرة ، ببدنتيه الضخمتين .

٦ — بقايا إيوان السلطان الناصر بقلعة صلاح الدين ، كما كان قائما فى أيام الحملة الفرنسية (عن رسم المصور هاى) .

٧ — قطعة من أسوار القلعة الجنوبية وأبراجها ، وإلى اليسار مسجد محمد على .

٨ — منظر عام للمبانى التاريخية التى يضمها القسم الشمالى فى قلعة صلاح الدين، ويرى إلى اليمين مسجد الناصر محمد .

٩ — جامع السلطان الناصر محمد ، الذى يقع إلى يسار الزائر لمسجد محمد على .

١٠ — باب العزب ببدنتيه الضخمتين ، ويطل على ميدان صلاح الدين .

١١ — منظر عام لآثار قلعة صلاح الدين ، ويرى جامعا محمد على وابن طولون إلى اليسار .

١٢ — قلعة قايتباى فى رشيد

١٣ — قطعة من أسوار قلعة قايتباى فى رشيد .

١٤ — قلعة قايتباى فى الإسكندرية .

فهرس الأعلام

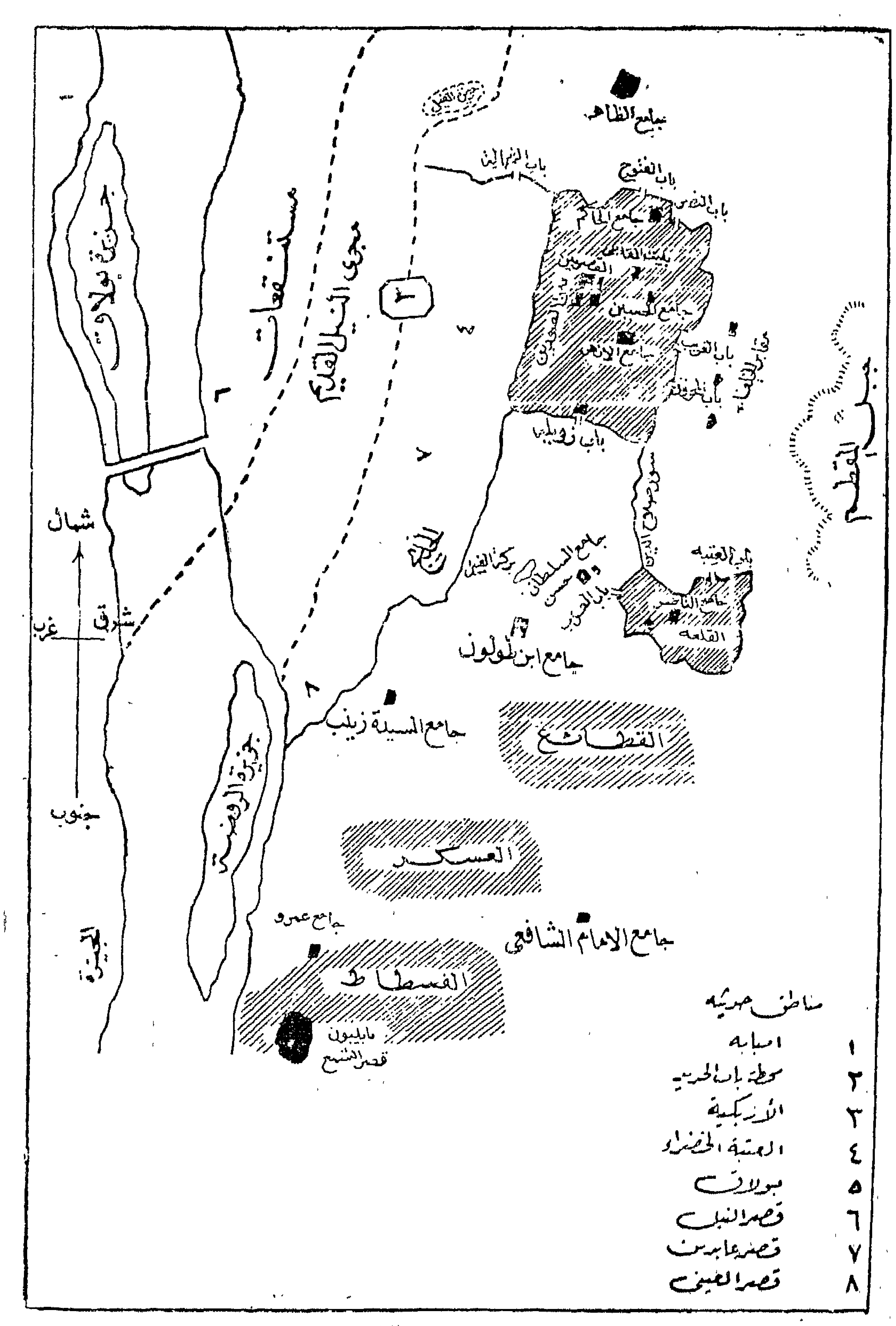
الفهرس

رقم الصفحة

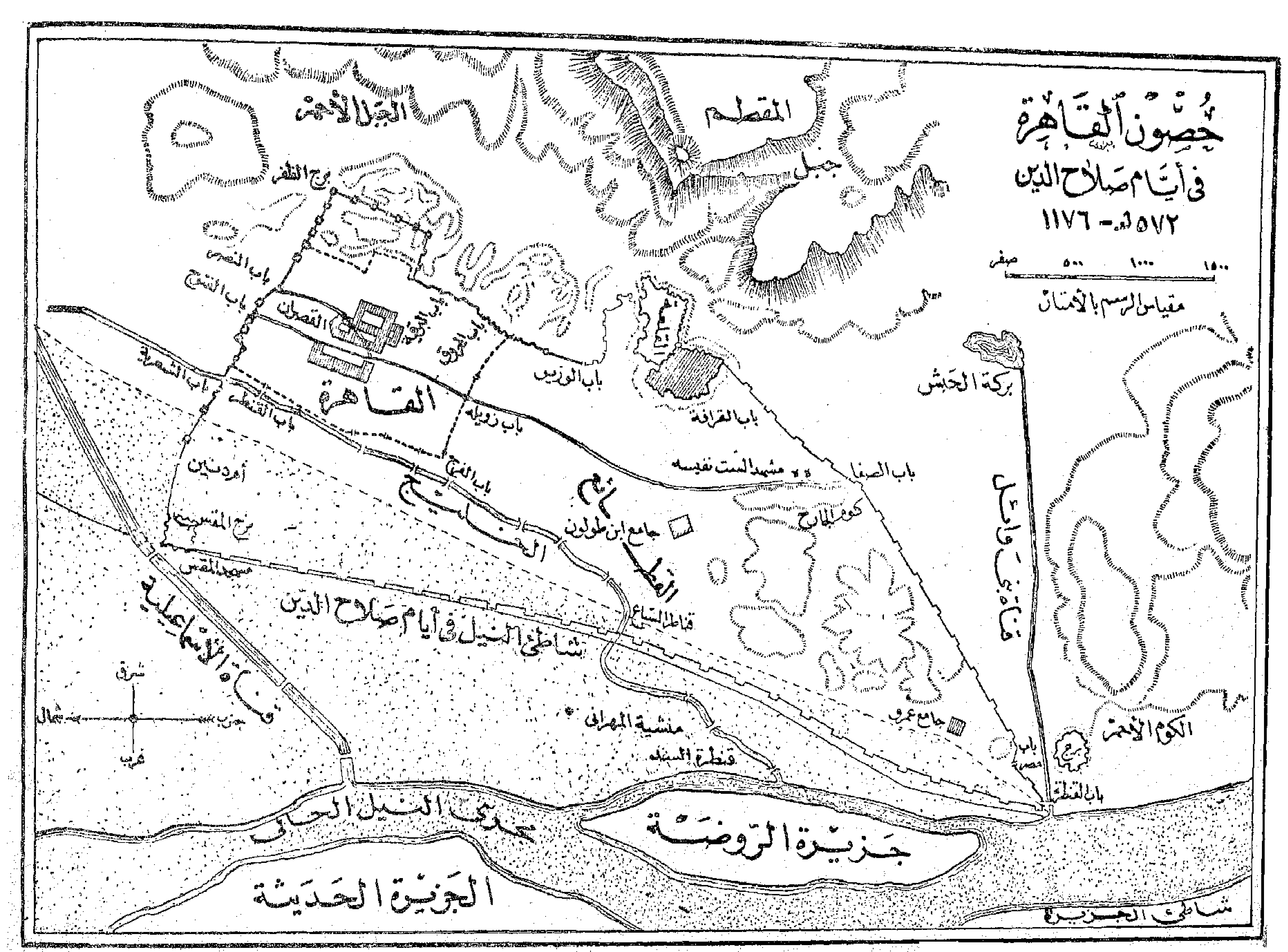
رقم الصفحة

فهرست اللوحات والخرائط

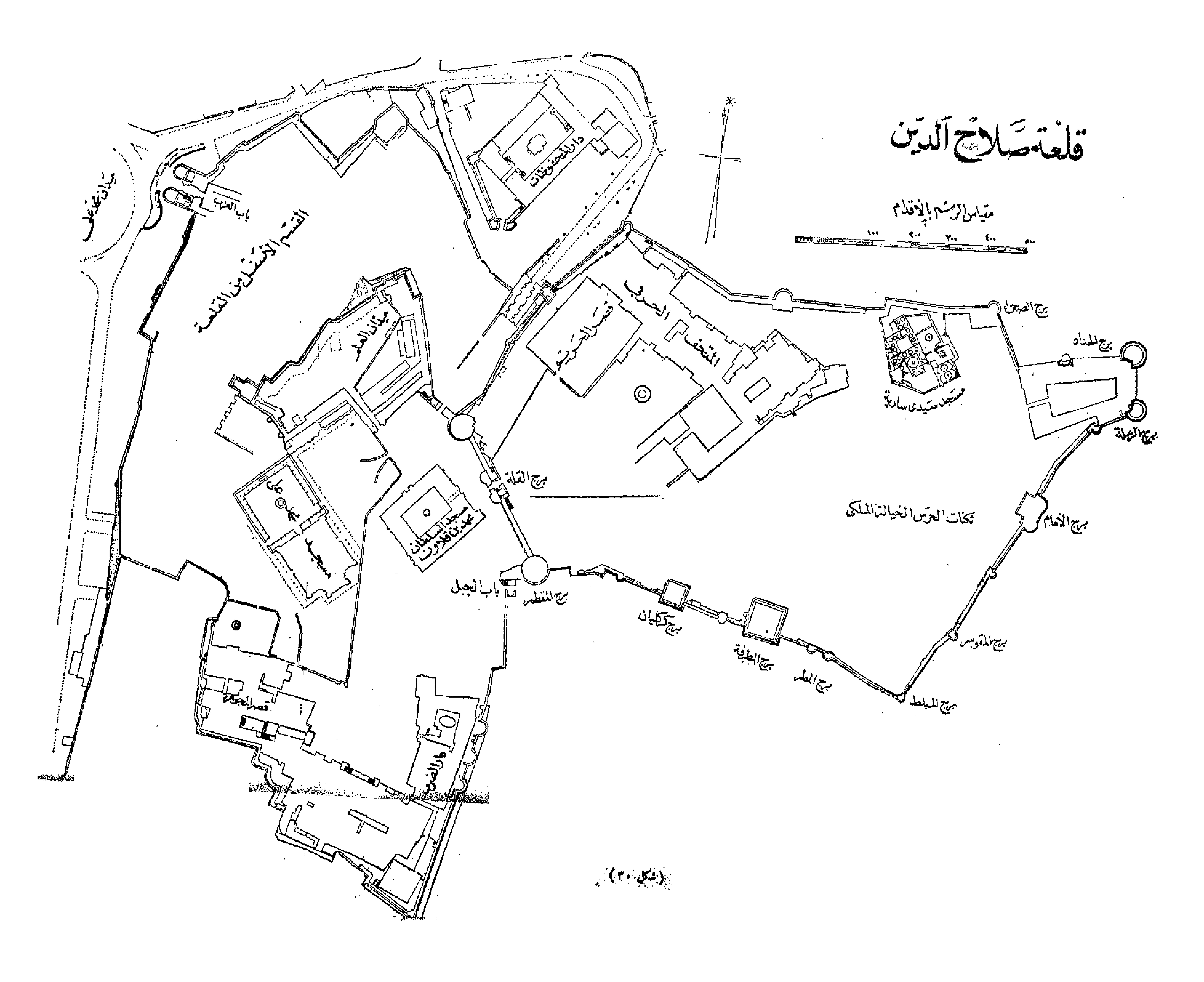
فى متن الكتاب



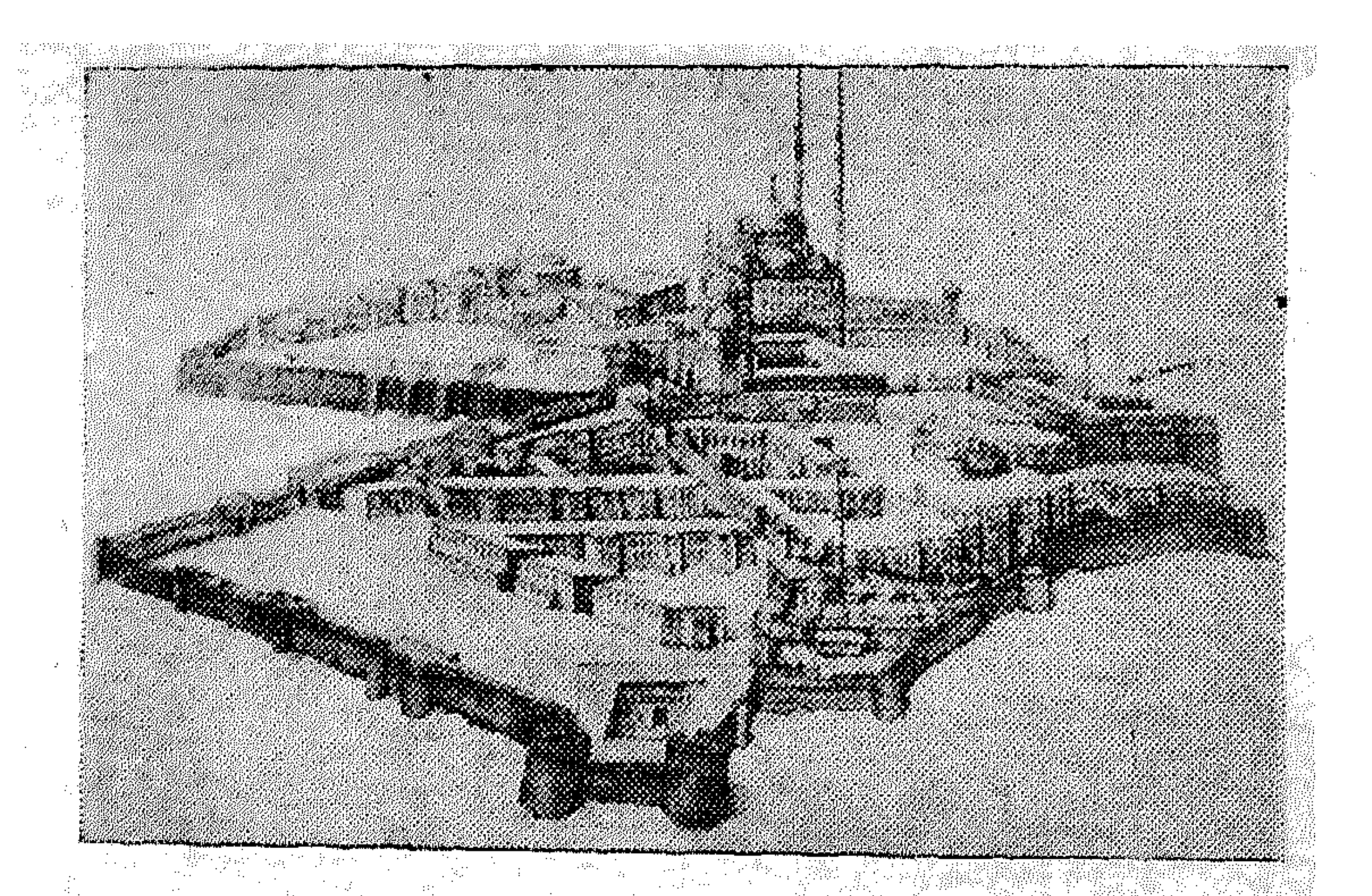
٩ — عواصم مصر الإسلامية



١١ — حصون القاهرة فى أيام صلاح الدين (٥٧٢ هـ — ١١٧٦) م


قلعة صلاح الدين
مقياس الرسم بالأقدام
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠
ميدان محمد علي
باب العزب
القسم الأسفل من القلعة
دار المحفوظات
ميدان العلم
قصر الحريم
المتحف الحربي
مسجد سيدي سارية
برج الصحراء
برج الحداد
برج الرملة
مسجد محمد علي
مسجد السلطان محمد بن قلاوون
برج القلة
باب الجبل
برج المقطم
ثكنات الحرس الخيالة الملكي
برج الإمام
برج كركيان
برج الطرفة
برج المطار
برج المقوصر
برج المبلط
قصر الجوهرة
دار الضرب

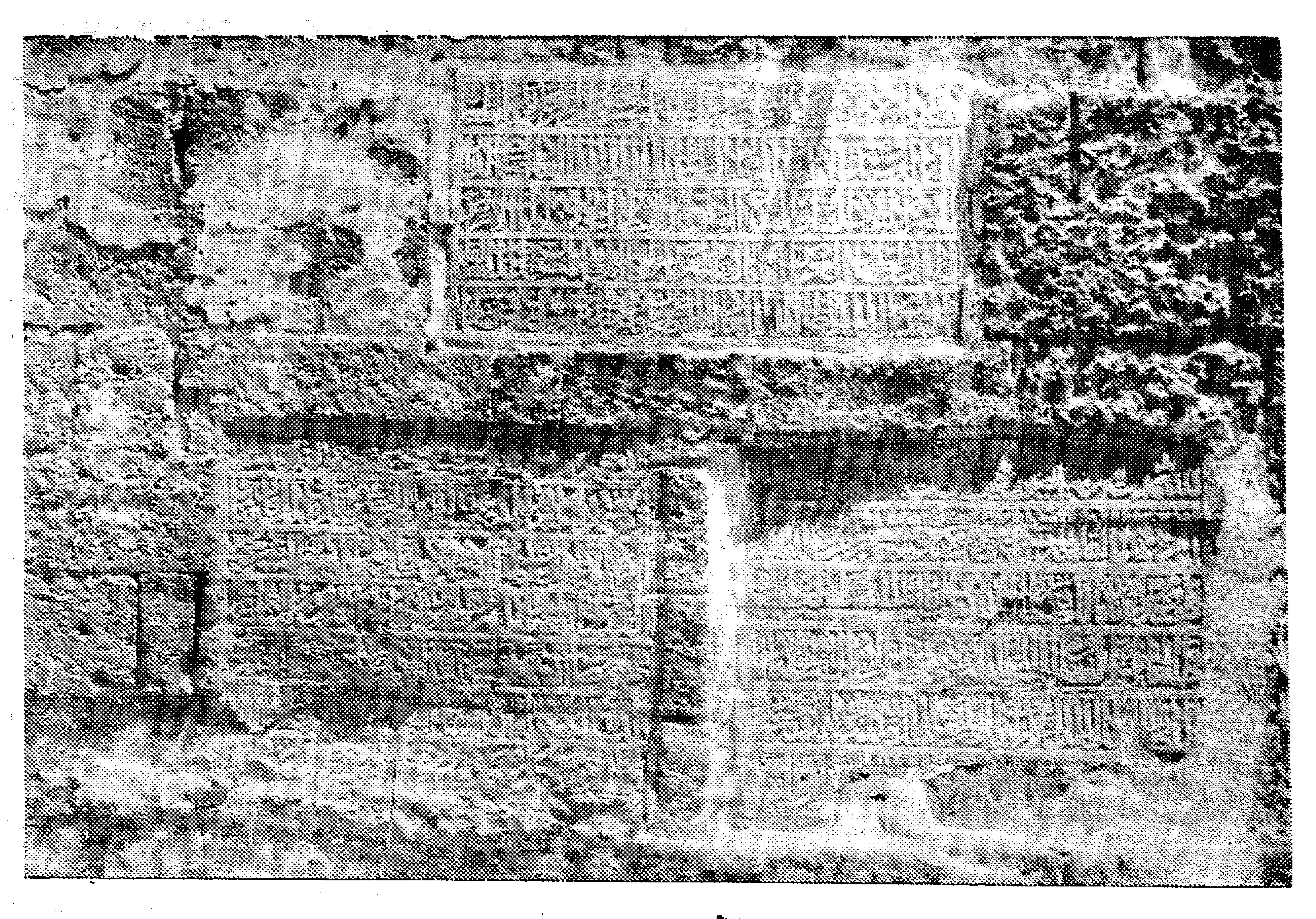
(شكل ٣٠)



١ — منظر يوضح القسمين الرئيسيين لقلعة صلاح الدين



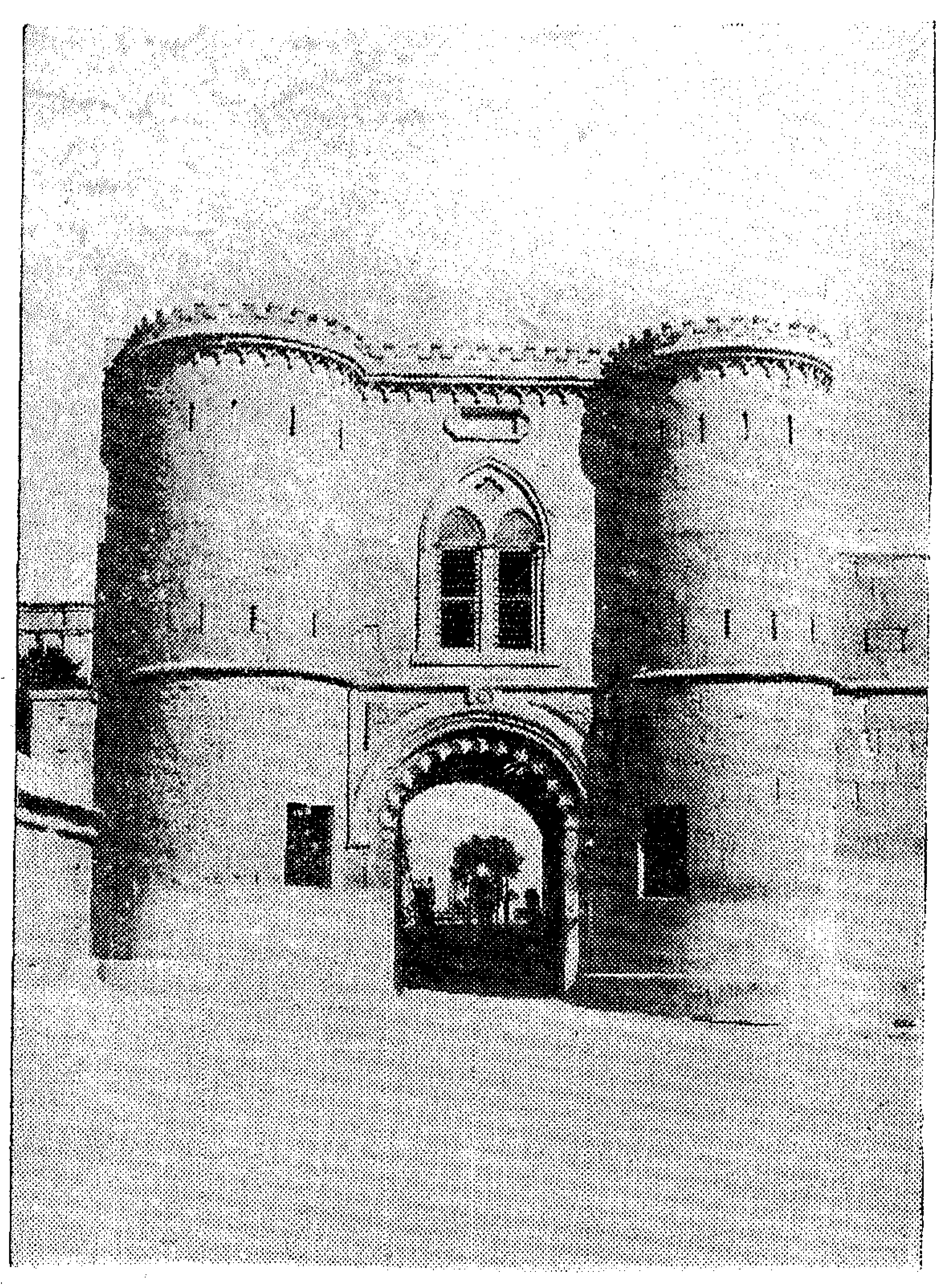
٢ — نسر صلاح الدين الأيوبي المنقوش على الحجر



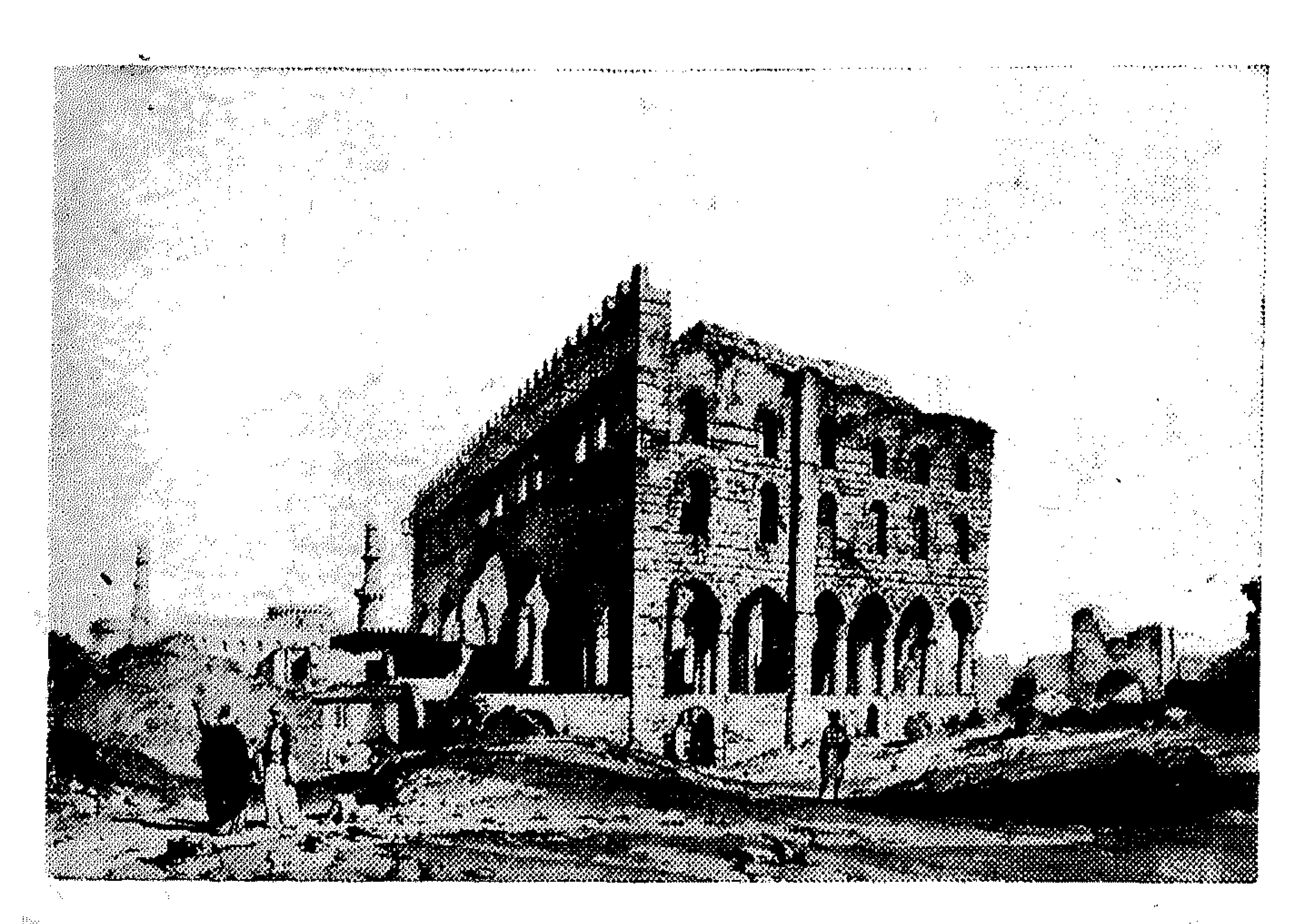
٣ ـــ لوحات الكتابات العربية الأثرية المنقوشة على الحجر فوق باب المدرج



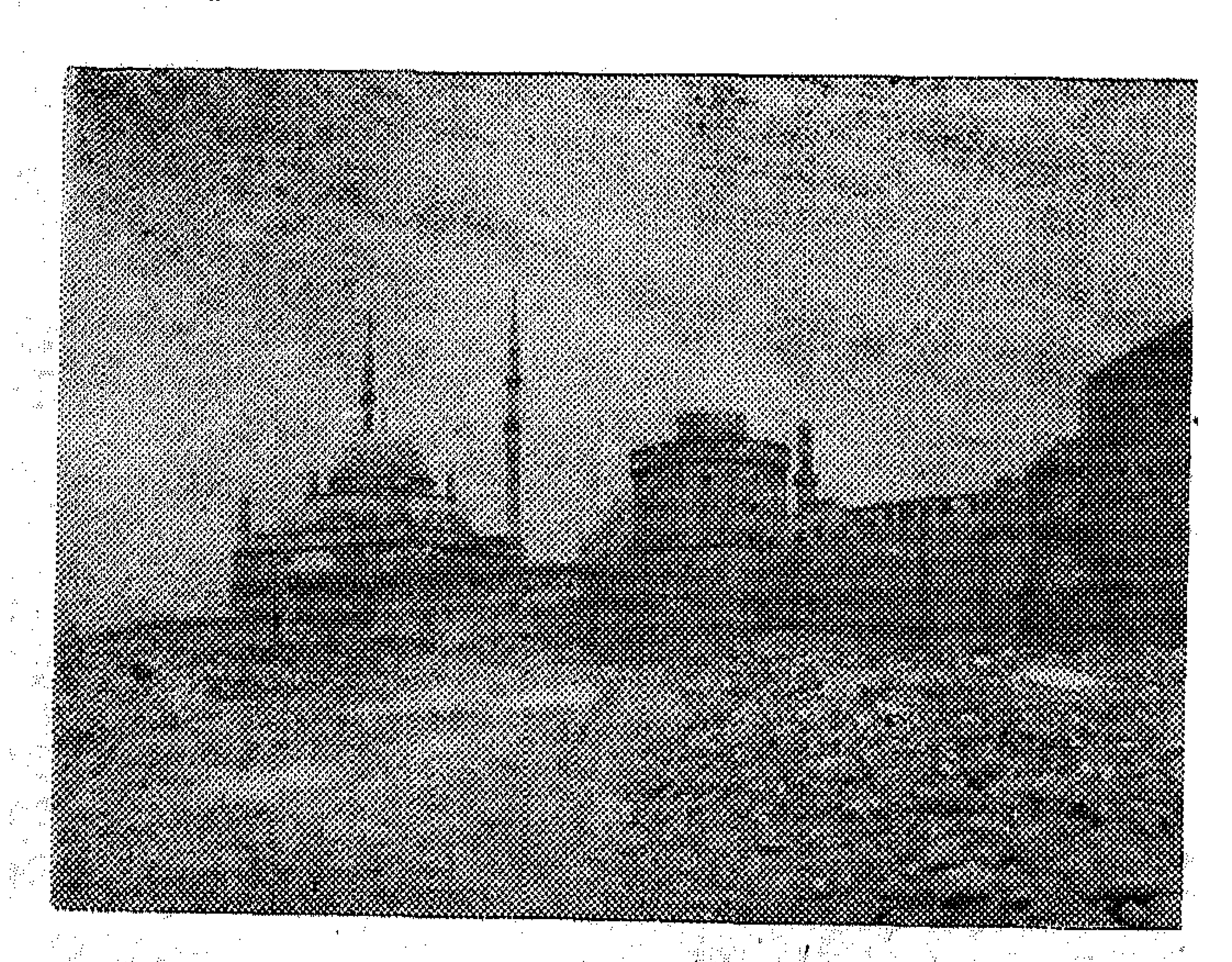
٤ ــ الدرج المؤدى إلى باب المدرج القائم خلف الباب الجديد



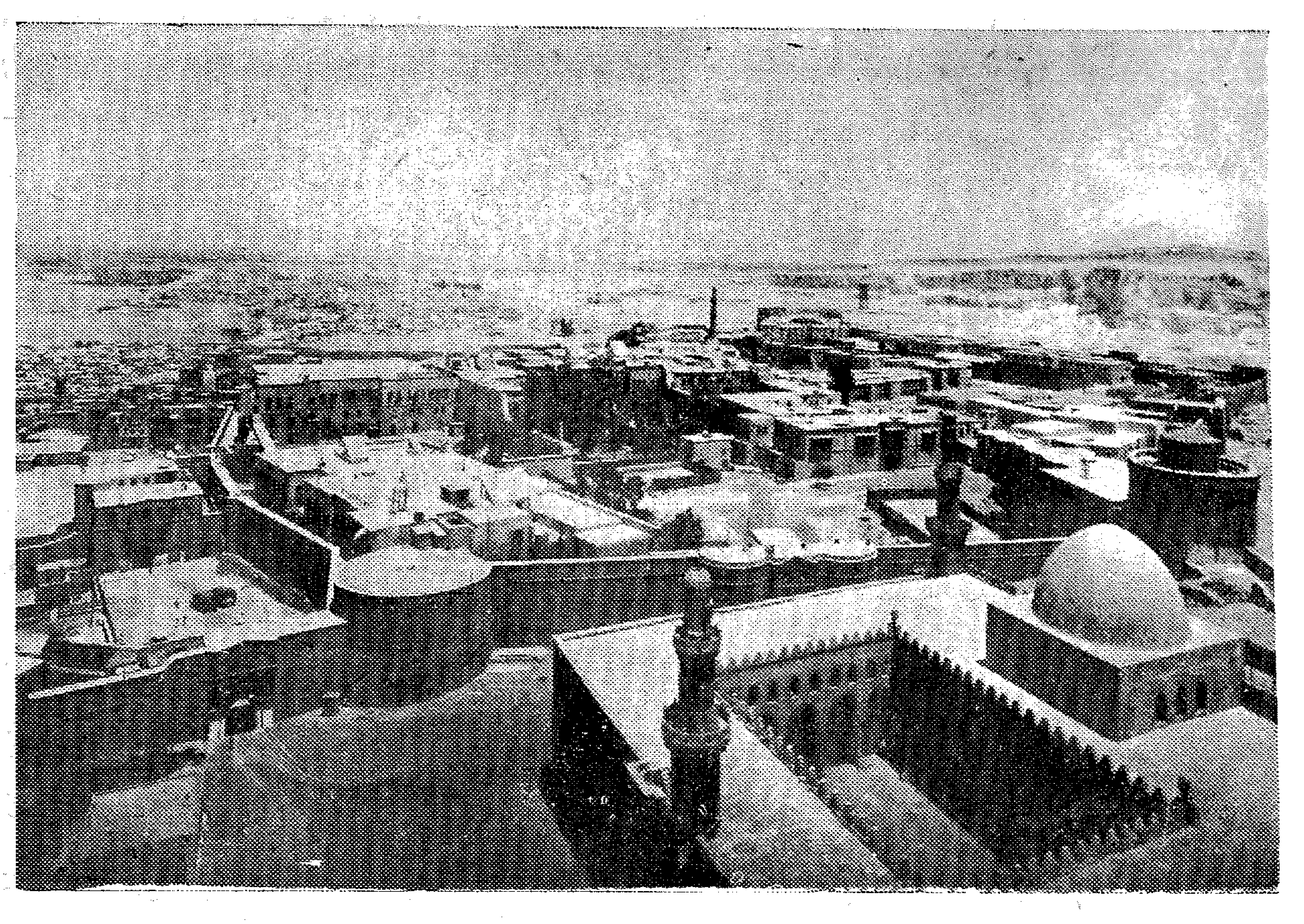
٥ — الباب المؤدى إلى ميدان العلم بالقلعة



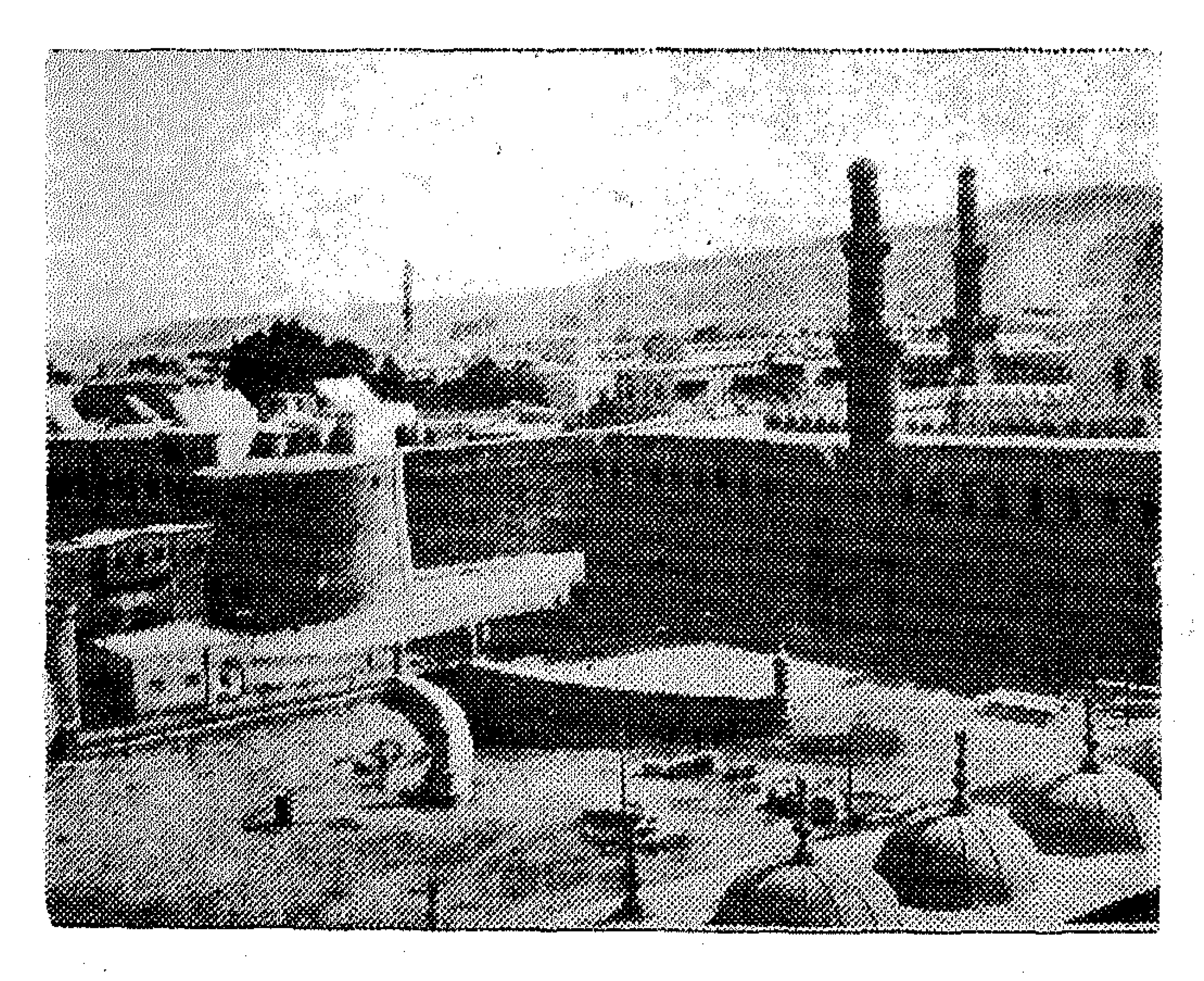
٦ — بقايا إيوان السلطان الناصر بقلعة صلاح الدين



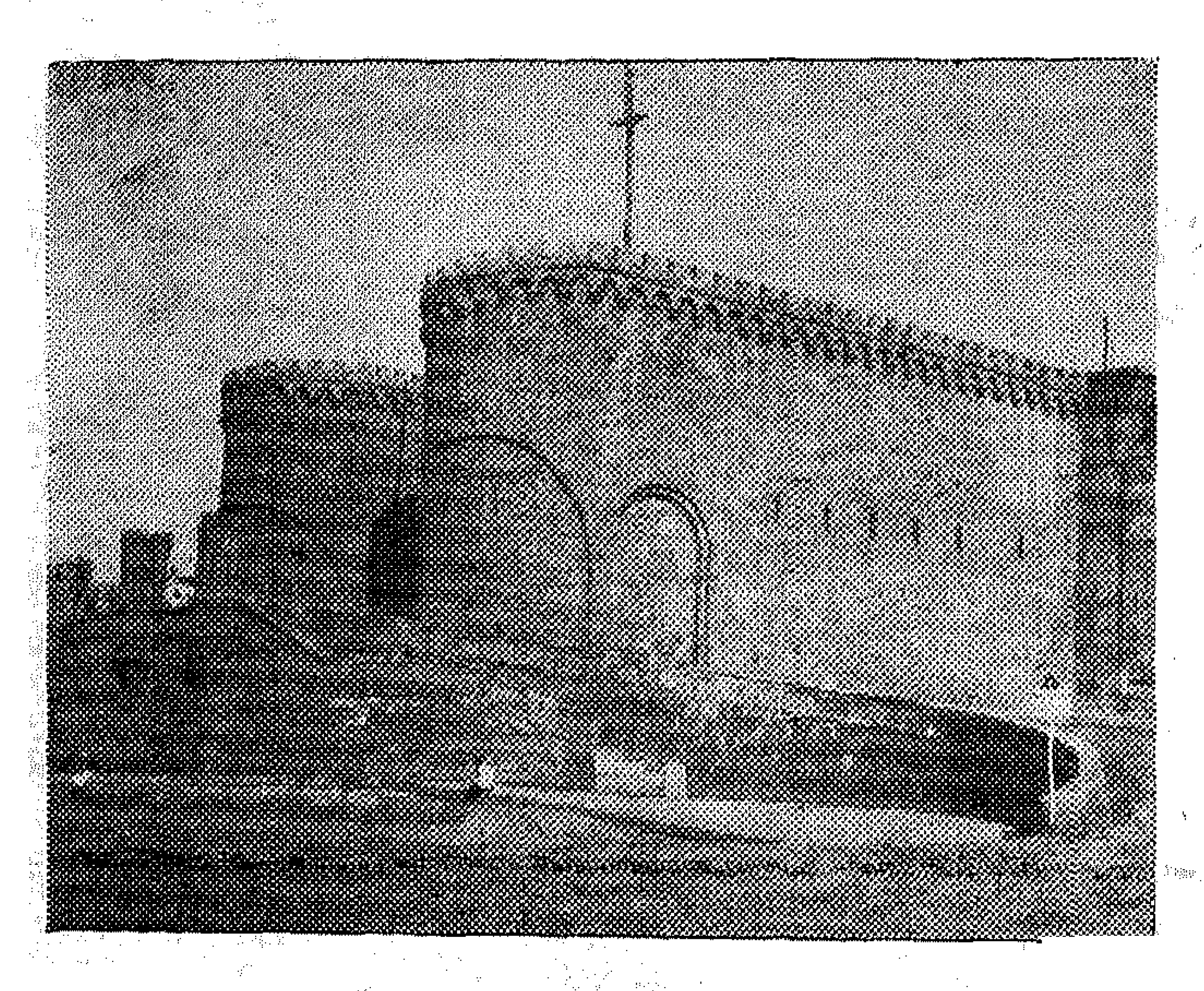
٧ — قطعة من أسوار القلعة الجنوبية المقابلة لجبل المقطم



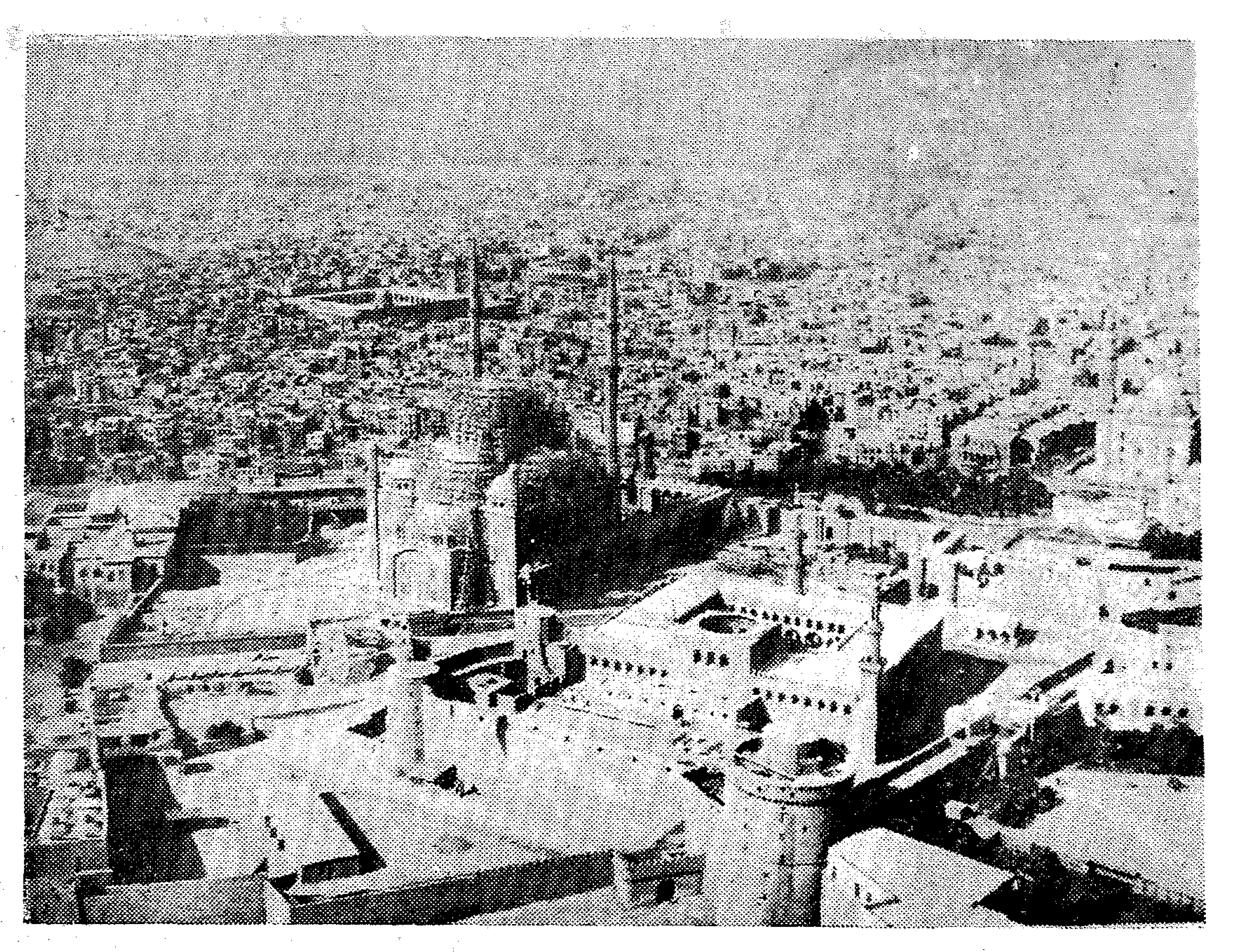
٨ — منظر عام للمبانى التاريخية التى يضمها القسم الشمالى فى قلعة صلاح الدين



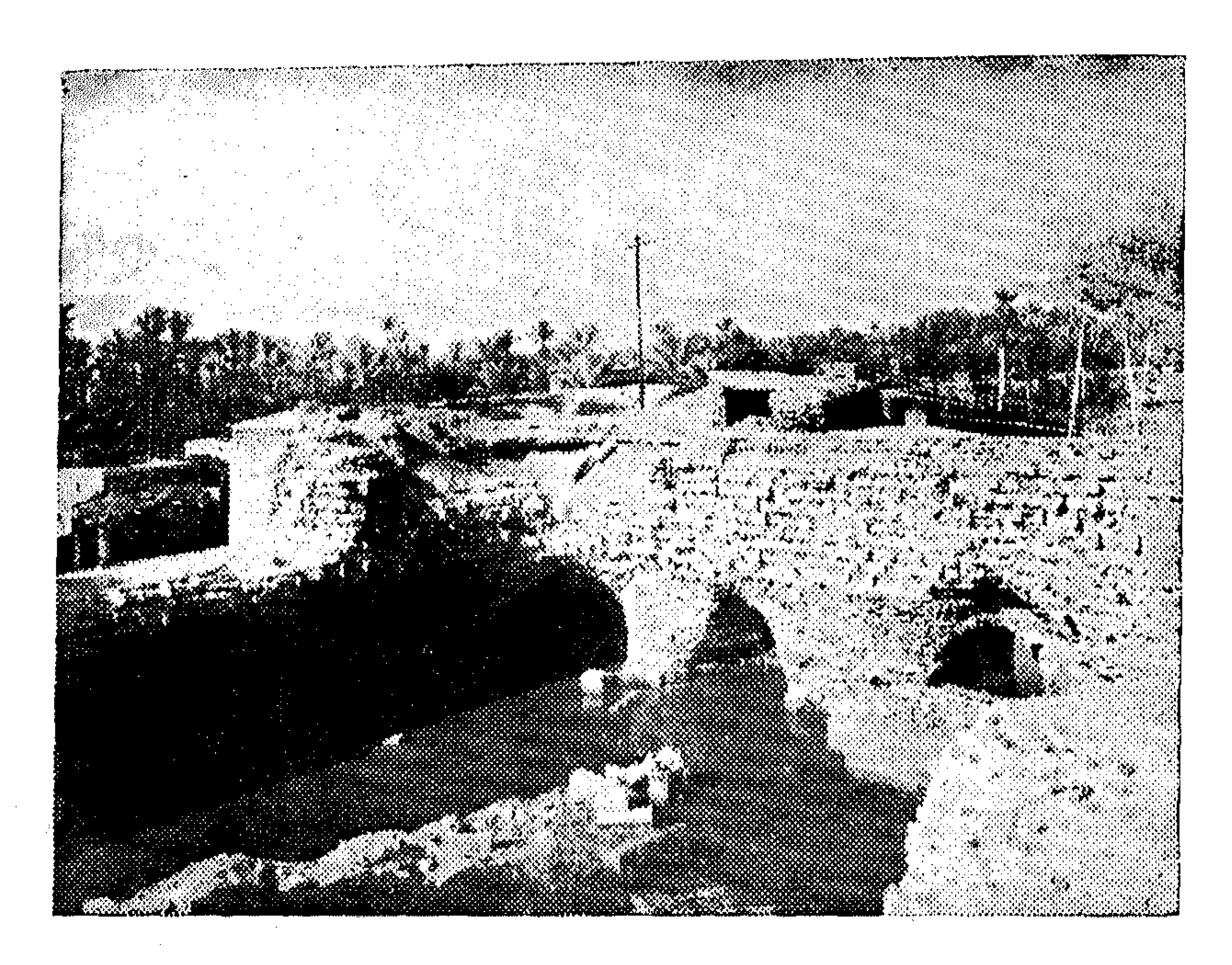
٩ — جامع السلطان الناصر محمد بداخل القلعة



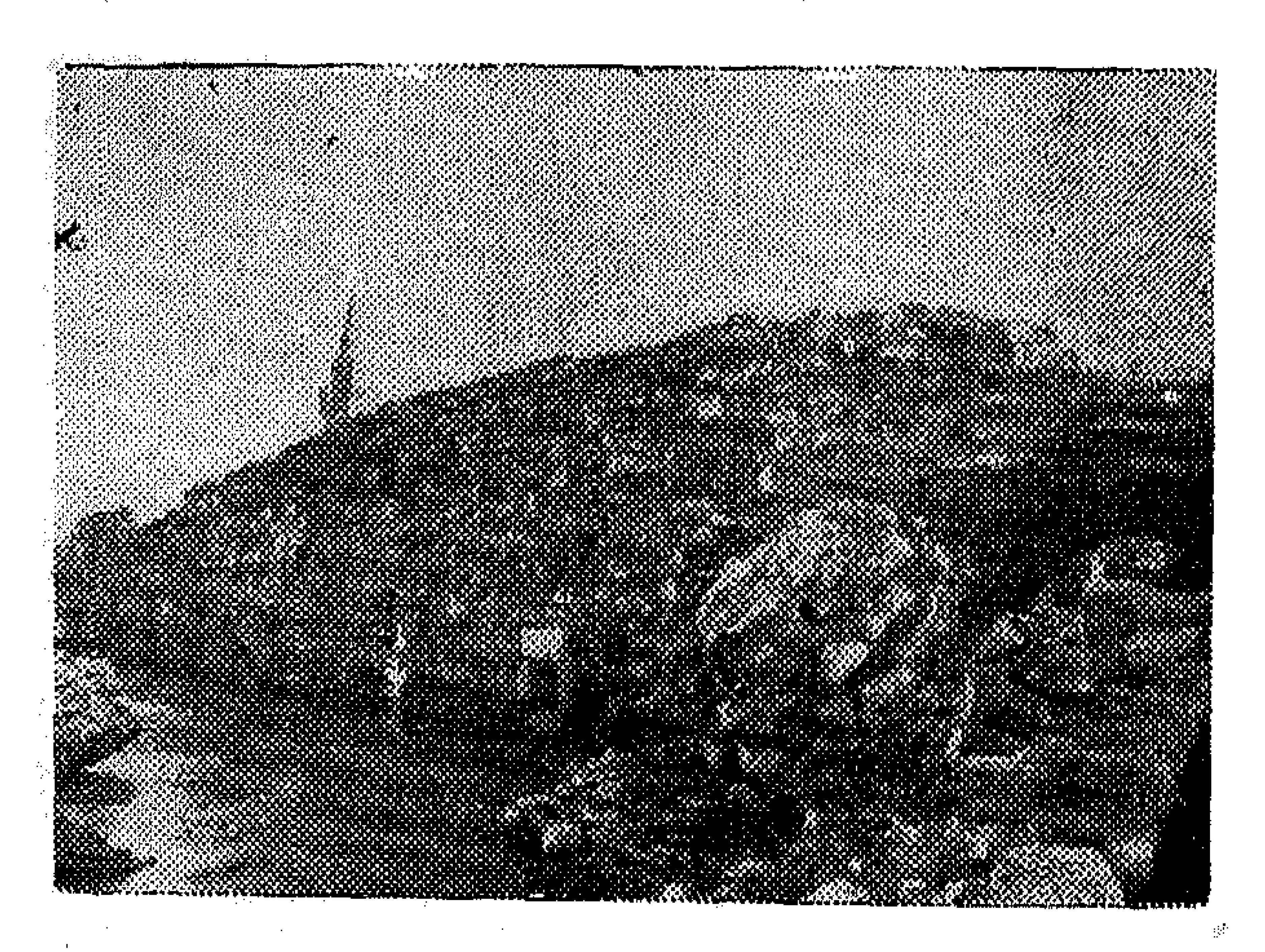
١٠ — باب العزب المطل على ميدان صلاح الدين



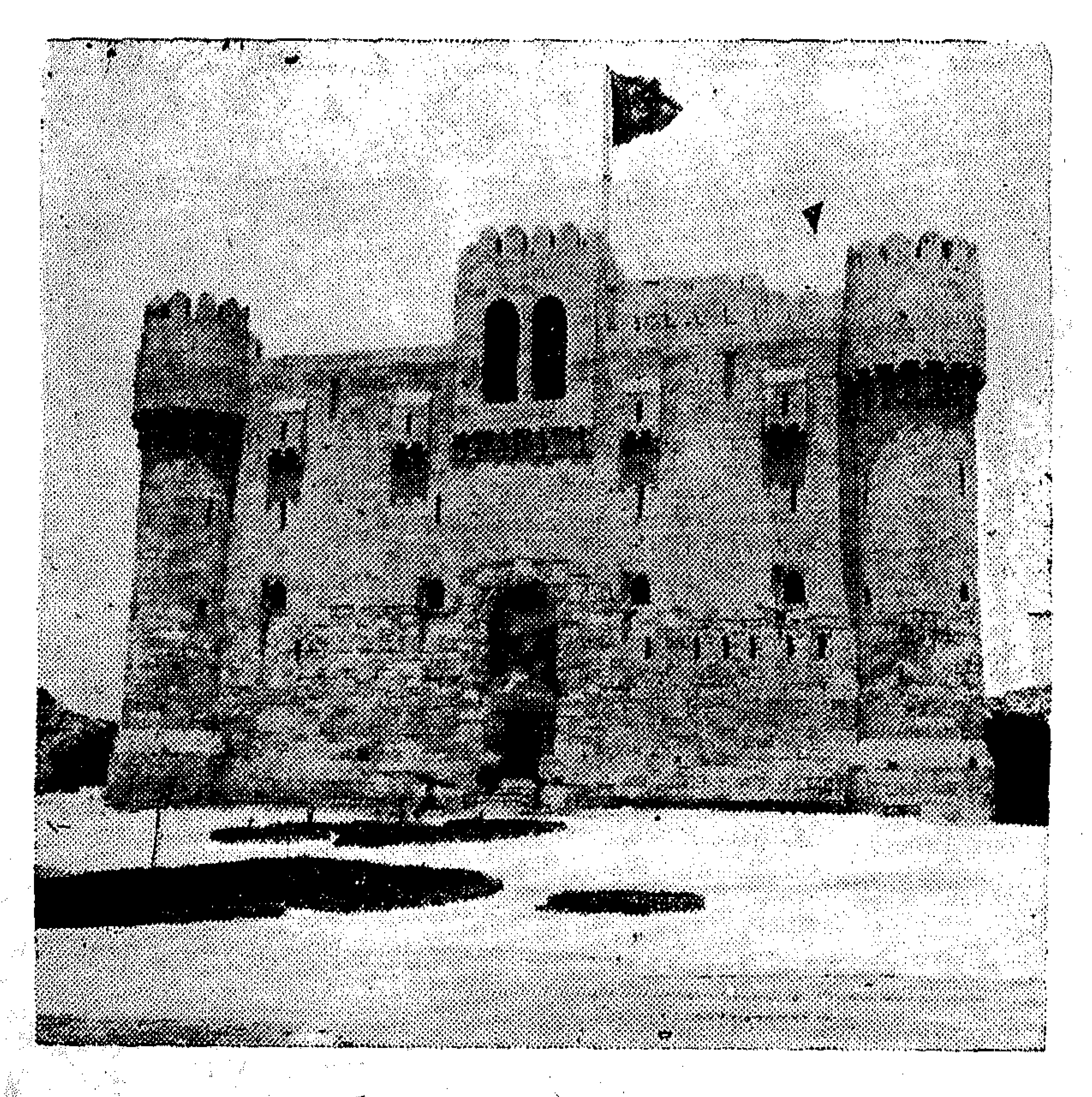
١١ — منظر عام لآثار قلعة صلاح الدين ويرى جامعا محمد على وابن طولون إلى اليسار



١٢ ـ قلعة قايتباى فى رشيد



١٣ ـ قطعة من مبانى قلعة قايتباى فى رشيد



١٤ ــ واجهة قلعة قايتباى فى الإسكندرية

مطبعة نهضة مصر

الفجالة . القاهرة



الثمن